رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الجنة

المكتبات في الإسلام

نشأتها وتطورها ومصائرها

تأليف
محمد ماهر حمادة
دكتور في علم المكتبات



مؤسسة الرسالة
بيروت

المكتبات في الإسلام

نشأتها وتطورها ومصائرها

الطبعة الاولى

١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م

الطبعة الثانية

١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

مؤسسة الرسالة — بيروت — شارع سورية — بناية صمدي وصالحة
هاتف ٢٩٥٥٠١—٢٤١٦٩٢ ص ب ١١٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

المكتبات في الإسلام

نشأتها وتطورها ومصائرها

تأليف

محمد ماهر حمادة

دكتور في علم المكتبات

مؤسسة الرسالة

للطباعة والنشر

إلى والدي العظيم

الذي رباني على تعاليم الاسلام وغرس في نفسي حبـــه والدفاع عنه أهدي هـــذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير العالمين وبعد :

تعتبر المكتبات الاسلامية من اهم المؤسسات الثقافية التي يفخر بها الاسلام والتي كان لها دور كبير جداً في نشر المعرفة والثقافة بين المسلمين ، وقد تعدى تأثيرها المسلمين انفسهم فانتقلت اثارها الى ديار الغرب مما يجعل دراسة موضوعية لمثل هذه المؤسسات ضرورة كبرى .

وقد كتب كثير من الباحثين العرب والاجانب ، فصولاً ومقالات عن هذه المؤسسات الثقافية واهميتها بشكل مجمل ، ولكن لم يصل الى علمنا ان احد الباحثين خصص كتاباً لسرد تاريخ هذه المكتبات وتطورها وتأثيرها بغيرها من المؤسسات المشابهة في الغرب ، ولم نطلع على مثل هذا الكتاب رغم ان بعض الاخوان الكرام اخبروا المؤلف شفاهاً ان المرحوم الدكتور يوسف العش عميد كلية الشريعة بجامعة دمشق سابقاً قد الف كتاباً في نفس الموضوع ، ولكن لم يتمكن المؤلف لسوء الحظ من الاطلاع عليه . ومهما يكن فقد حاولت جهدي ان اجمع المادة من المصادر المختلفة — وهي مشتتة جداً — وان ارتبها وان انظمها تنظيماً منهجياً وساحاول ما امكن الفصل بين الاراء الشخصية والحقائق الثابتة ، وذلك عن طريق اسناد الحقيقة الى مصدرها ، وان أُري القارىء الكريم تطور هذه المكتبات والمؤسسات العلمية والدور الهام الذي لعبته في حياة اسلافنا وفي تطورهم لعل ذلك يكون باعثاً لهم لتقصي اثار السلف الصالح وتقليده في العناية بهذه المكتبات الفخمة والاهتمام بها .

كذلك يود المؤلف ان يشكر كل من ساعده في اعداد هذه الدراسة وخاصة الاخ الدكتور عبد الرحمن الحجي الذي سمح له بالاطلاع على نص محاضرة كان قد سبق ان القاها في جامعة الرياض عن الكتب والمكتبات الاسلامية في الاندلس فساعده بذلك على الاهتداء الى نص او نصين لم يكونا قد وصلا الى علمه فله الشكر الخالص .

ختاماً لا يدعي المؤلف الكمال في عمله ولا انه وفى الموضوع حقه ، وإنما هو محاولة ان نجحت فهذا ما قصد اليه المؤلف ولعل في ذلك إثارة لهمم باحثين اخرين ليطرقوا الموضوع او بعض نواحيه بشكل اكمل وافضل ، ولعل في ذلك القاء للانوار على اهمية المكتبات وعلى الدور العظيم الذي لعبته في حياة اسلافنا والدور العظيم الذي يمكن ان تلعبه في حياتنا ومستقبلنا فتسمو الهمم من اجل نشر المعرفة والعلم ومن اجل تعميم المكتبات وتنظيمها تنظيماً يكفل حسن الاستفادة منها ويساعد في نهضتنا وتقدمنا الحضاري ، والله نسأل ان يجعل اعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو السميع العليم .

المؤلف

محمد ماهر حمادة

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الجنة

المقدمة

تعتبر المكتبات المنظمة الغنية بمحتوياتها ، الدعائم الاساسية التي تشاد عليها صروح العلم والثقافة والحضارة والمعرفة والتربية . والينابيع الفياضة التي تغذي تقدم الامم العلمي والحضاري بماء الحياة والبقاء،ويقاس رقي امة من الامم او تأخرها بكثرة المكتبات وما تلقاه من عناية ورعاية او ندرتها واهمالها واعتبارها شيئا ذا اهمية ثانوية . والملاحظ ان اجدادنا المسلمين اعتنوا بالمكتبات على انواعها عناية فائقة نتمنى، نحن العائشين في القرن العشرين وفي عصر الذرة والصواريخ والصعود الى القمر ، ان تنال مكتباتنا شطراً يسيراً منه . هذه العناية وهذا الحب للكتب وجعلها مبذولة للجميع لم يولدا هكذا طفرة ، ولم تأتيا عفواً دونما تعب او نصب ، وانما هما نتيجة تطور طويل اخذ سمته منذ عهد صاحب الرسالة عليه السلام وامتد عبر القرون حتى اثمر ثمره وآتى أكله في دار الاسلام .

والواقع ان العرب كانوا قبل الاسلام شبه منعزلين في جزيرتهم عن العالم الخارجي وكانوا شيعاً واحزاباً جهلة غلظاء جفاة تحولوا بفضل الاسلام وبفضل محمد عليه السلام وبفضل تعاليمه ومثله الى امة متماسكة قوية مؤمنة رأت النور فاستضاءت به وحملته الى غيرها ، ذلك انه خلال عقد واحد من السنين بعد انتقال صاحب الدعوة الى الملأ الاعلى حرر المسلمون بلاد الهلال الخصيب ومصر وغيرها من قبضة الاجانب وانتشر الاسلام في تلك الاصقاع واصبح الخضوع الى الله العلي العظيم والايمان بالرسول الكريم قطب الرحى في حضارة كبيرة عظيمة وحدت به اجزاء متباعدة من الارض تمتد من حدود فرنسا غرباً الى حدود الهند والصين شرقاً ووحدت به اقوام مختلفون في العرق واللغة

واصبح الاسلام واللغة العربية رباطهم الوثيق الذي يشد بعضهم بعضا . وهذا لا يعني ان الاسلام ازال جميع الفوارق التي كانت موجودة بين تلك الاقوام المختلفي اللغات والعروق والمشارب، ولكنه قدم اساساً متيناً من اجل بناء حضارة عريقة وبناء امبراطورية عظمى .

ومما يدهش له ان اسلافنا العرب المسلمين الذين خرجوا من شبه جزيرتهم منساحين في الارض تبنوا حضـــارات الامم الاخرى ، او بالاحرى تبنوا ما لاءم مثلهم منها ورقوها وابدعوا ما شاء لهم الابداع ، ذلك ان المرء يتوقع في حالة قبائل منعزلة بدوية ان تدمر كل ما يصادفها من معالم الحضارة في البلاد التي يقدر لها ان تطأها اقدامها كما فعل المغول والتتار عندما غزوا العالم الاسلامي فيما بعد ، ولكن الذي حدث هو العكس ، لم يدمر العرب المحررون شيئاً مما وجدوه وانما تبنوه واحتضنوه وطوروه وتمثلوه وبعد فترة ابدعوا حضاراتهم الذاتية المعبرة عن شخصيتهم ، ولكن العجب يزول عندما يتذكر الانسان ان العرب زمن الفتوح كانوا حملة رسالة وهذه الرسالة تحض على العلم والتعلم وهي انسانية في اساسها اتت من اجل خير الانسان واحترامه بصرف النظر عن دينه ولونه وعرقه وجنسه،وتطبيقها يعني اكمال الانسان لانسانيته ، وهذا هو الفرق الاساسي بين المسلمين وغيرهم من الغزاة ، يحرر المسلمون النفوس قبل الاراضي ويحطمون الطواغيت التي تمنع من تحقيق انسانية الفرد ويسمحون لحيوية الافراد وامكاناتهم ان تتضح وان تبدع ، واما الآخرون فيغزون لدوافع هي ضد الانسانية ولتدميرها .

بدأ المسلمون حضارياً ، وفي كثير من المجالات من نقطة الصفر كما يقال وتتلمذوا على ايدي سكان البلاد المحررة ، ولكن لم يمض جيلان او ثلاثة حتى اصبح المسلمون أنفسهم سادة الحضارة ذلك انهم اتقنوا مـــا تعلموه ثم ابدعوا وهذه هي مهمة التربية الحقيقية الاساسية .

لقد احب العرب الكلمة الطيبة وكانت تسحرهم البلاغة والفصاحة ولما تحضروا واستقروا في البلاد المفتوحة استمروا على تأثرهم بالبلاغة والفصاحة

واضيف الى ذلك حب الكتب واحترامها . لقد احضروا معهم من شبه جزيرتهم كتابهم المقدس القرآن الكريم الذي تمركز حوله عدد كبير جداً من الدراسات ، ولكنهم وجدوا في البلاد الاخرى كتباً كثيرة فلم يدعهم حبهم واحترامهم لكتابهم العزيز إلى احتقار واتلاف الكتب الاخرى ، بل بالعكس اهتموا بها ونموها وطوروها وحفظوها وبنوا لها اماكن لايوائها هي ما كانوا يسمونه خزائن الكتب وهي ما تعرف الان بالمكتبات . والواقع ان احدى مميزات الحضارة الاسلامية الرئيسية هي حبها للكتب ونشرها المعرفة عن طريق الكتب واحتضانها المكتبات وتعميمها وجعلها في متناول جميع افراد الشعب دون اعتبار للعمر او الجنس او الدين اواللون او الثقافة . لم يبز شعب من شعوب الارض كلها المسلمين في حبهم للكتب وفي حدبهم عليها ، ترى احدهم وتسمعه يناجي كتابه وكانه يناجي ولده الوحيد او اليفه الحبيب، وكتب الادب العربي مليئة بالامثلة الرائعة الدالة على ذلك، هذا الحب نابع من صميم وجدانهم ومن تعاليم دينهم الذي يقضي باحترام المعرفة والحكمة وبالتالي اوعيتها .

لقد غزا الاسكندر المكدوني الشرق واخضعه كله لسيطرة اوربا السياسية والثقافية والعقلية فترة قاربت الألف سنة (٣٣٠ قم الى ٦٣٢ م) ، وقد انتشرت اثناء ذلك اللغة اليونانية ومن بعدها الرومانية وانتشرت المدارس اليونانية والفلسفة اليونانية والعادات اليونانية حتى خيل للمشاهد السطحي ان الفروق بين الشرق والغرب قد زالت او أن الشرق قد تغرب ، ولكن ذلك كان بالظاهر فقط ، ذلك ان للشرق اصالته وشخصيته المميزة ، وقد حاول الشرق التخلص من سيطرة الغرب العقلية واسترجاع شخصيته فقام بعدة محاولات ، او لنستعمل تعبير المؤرخ الشهير توينبي ، قام بعدد من ردود الفعل بقصد استرجاع شخصيته وتحرره من ربقة الغرب ، ورغم ان اغلب ردود الفعل هذه لم تنجح ، الا ان ظهور الاسلام اعاد للشرق شرقيته وشخصيته المميزة له وبمنتهى السهولة زالت اللغة اليونانية والعادات اليونانية والاخلاق الاوربية فكان الاسلام الرد الناجح ضد تحدي الغرب للشرق ، اما المعارف

فهي تراث انساني ورغم ان المسلمين لم يطرحوه جانبا وانما احتضنوه واعتنقوه الا انهم لم يكونوا عبيداً له فقد نقلوا تراث الامم القديمة دون تفريق — من يونان وقبط وهنود واشوريين وفرس وكلدان وسريان . . . الى اللغة العربية ثم تمثلوا ما عربوه وابدعوا بعد ذلك تفكيرهم واراءهم المستمدة من ثقافتهم المتلائمة مع اوضاعهم ومثلهم واخلاقهم ومشاربهم، وبهذا يكون المسلمون هم الورثاء الطبيعيين لحضارات البحر الابيض المتوسط القديمة العظيمة السامية بتقاليدها العائدة الى اقدم العصور وبهم بلغت تلك التقاليد ذروتها ووصلت الى نقطة كمالها، كما وان حضارة البحر الابيض المتوسط استرجعت بهم شخصيتها المميزة لها ، كما استرجع الشرق وجهه الحقيقي بالاسلام والمسلمين .

هذه الحضارة الرائعة حضارة غنية متعددة الجوانب ، وهي لم تدرس دراسة وافية وكما يجب ان تكون عليه الدراسة من وجهة نظرنا نحن وبالطريقة التي يجب ان تتم بها هذه الدراسة اذ يجب ان تتم الدراسة بطريقة علمية ومن وجهة نظر اسلامية تنظر الى الاسلام كما ذكرنا قبل قليل . ويدعو البعض هذه الحضارة الاسلامية طالما انها نتاج اسلامي ويدعوها البعض الآخر حضارة عربية طالما ان حملتها الاوائل هم العرب ولكننا نفضل ان ندعوها بالحضاراة العربية الاسلامية طالما ان اساسها الصلب الذي انبتها واستندت اليه هو الاسلام بكل معانيه وجلاله ، وان اللغة التي كتبت بها اغلب روائع هذه الحضارة هي اللغة العربية ، ومهما يكن فحيثما يرد في الصفحات التالية تعبير حضارةاسلامية او حضارة عربية او حضارة عربية اسلامية او ما شابه فاننا نعني بذلك تلك الحضارة الخلاقة التي المعنا اليها انفاً .

سبق ان قلنا ان احدى مميزات الحضارة الاسلامية انها حضارة كتب ومكتبات ، وهذه هي احدى الجوانب المهمة من الحضارة الاسلامية التي لما تدرس كما ينبغي بعد ، ولذلك سوف يجد القارىء فيما يلي محاولة لدراسة هذه الناحية المهمة من روائع حضارتنا التي ارجو ان اكون قد وفقت لرسم صورة واضحة مشرقة علمية لها ولتطورها الا وهي سرد تاريخ وتطـور المكتبات في الاسلام .

الفصل الأول

ماقبل المكتبات الإسلامية

عاش العرب في شبه جزيرتهم احقاباً طوالاً قبل ظهور الاسلام وهم في شبه عزلة عن العالم الخارجي ، نعم كانت هناك اتصالات بينهم وبين الروم البيزنطيين في الشمال ،وبينهم وبين الفرس في الشمال الشرقي ،وبينهم وبين عرب الجنوب والاحباش وغيرهم من الامم والشعوب ، ولكنها كانت اتصالات محدودة ومقصورة على التجارة وحراسة القوافل وغيرها من الاعمال البسيطة . فلم تكن من الاتصالات الواسعة المدى التي تغير العقلية او تحفز على التغيير والتبديل او تساعد على الاقتباس والتبادل الثقافي بشكل واسع . كذلك كانت معارفهم بسيطة تتناسب مع حياتهم البدوية المتنقلة فكانوا يعنون بانسابهم عناية كبرى ، ولهم اهتمام بايامهم ووقائعهم وحروبهم ، والبلاغة وانشاد الشعر اساس ثقافتهم ، وكانوا يرددون كثيراً من الاساطير ، وعندهم بعض مبادىء الطب العملي القائم على التجربة ، ووجدت بعض الملاحظات الفلكية الممزوجة بكثير من الخرافة والتنجيم ، ولم يكن عندهم سجلات مدونة او مكتبات او كتب او شيء من هذا القبيل (نستثني من هذا الحكم عرب الجنوب اذ تختلف حضارتهم عن حضارة عرب الشمال ووجد عندهم كثير من النقوش على الاحجار وغيرها) . ذلك لان طبيعة حياتهم المتنقلة وفقدان المواد اللازمة للكتابة وانتشار الامية بينهم بشكل يكاد يكون تاماً جعلتهم يعتمدون اعتماداً كلياً على الذاكرة وجعلت وجود السجلات المكتوبة امراً يكاد يكون مستحيلاً. هذا وانَ اقدم نص معروف من عهد ماقبل الاسلام عائد الى عرب الشمال هو

نص النمارة او نقش النمارة وهو نقش وجد مكتوباً على قبر امرىء القيس احد ملوك كندة . وكان العرب يجتمعون في اسواق موسمية في جاهليتهم يتحاربون ويتساجلون ويتفاوضون ويقايضون بضائعهم ويبيعون ويشترون ويتقارضون الاشعار ويقصون الاسمار ويمارسون بعض الكهانة والعرافة والعيافة ، واشهر هذه الاسواق ثلاثة عكاظ وهو اشهرها وهو قرب الطائف والمجنة وذو المجاز.

ولا بد من ذكر انه كانت قد سادت بين القبائل العربية لهجات مختلفات في الكلام اشهرها لهجة قريش وهناك لهجة تميم ولهجة عامر ... لكن لهجة قريش اعتبرت اللغة الفصحى وكانت قد بدأت تسود على غيرها من اللهجات الاخرى لعوامل كثيرة اهمها زيارة بقية العرب لبيت الله الحرام والاجتماع في عكاظ والتبادل التجاري، ولغة قريش هي لغة العرب الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم

عندما بزغ فجر الاسلام في مكة المكرمة لم يكن في قريش من يحسن القراءة والكتابة سوى بضعة عشر نفراً ، وهذا يدل على تفشي الامية بينهم . ويذكر الاستاذ كرد علي في كتابه **الاسلام والحضارة العربية** ان حرباً وابنه ابا سفيان هما اللذان نقلا الخط العربي الى الحجاز قبيل ظهور الاسلام [1] ويذكر ان ذلك من اعظم مآثر بني امية على العرب [2] ولذلك اعتمد اوائل العرب المسلمين على الحفظ والذاكرة في تعلم القرآن الكريم والحديث الشريف . والرسول الكريم نفسه كان امياً وقد منع الاجتماع في عكاظ وحل محل التساجل والتفاخر بالانساب الاخوة الدينية وتعلم القرآن الكريم ، والغى الكهانة والعرافة والتنجيم والسحر اي انه ابطل قسماً مهماً من معارف العرب قبل الاسلام ، ولكنه فتح لهم افاقاً لا تحد للعلم والتعلم ، اغلق امامهم باباً يؤدي الى باطل

---

(١) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . الطبعة الثانية مزيدة منقحة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م ٢ ج الجزء الاول ص ٧٣

(٢) نفس المصدر .

ومنعهم من علم يضر ولا ينفع وفتح لهم ابواب العلم والمعرفة الواسعة الرحبة ليغترفوا منها ما شاؤوا وشاء لهم الاغتراف .

لم يبق المسلمون محصورين في شبه جزيرتهم ، اذ بدأت المحاولات الاولى لتحرير العالم من ربقة الطاغوت زمن الرسول الكريم، ولكنها اخذت طابع الجد والنشاط زمن الخلفاء الراشدين والامويين فقد تمكنت الدفعة الاولى زمن ابي بكر وعمر رضي الله عنهما ان تمد حدود الاسلام لتشمل بلاد الهلال الخصيب وبلاد الرافدين وفارس من جهة ومصر وبرقة من جهة اخرى ، واما الدفعة الثانية التي تمت زمن الوليد بن عبد الملك فقد وسعت دار الاسلام حتى جعلتها تشتمل على شمال افريقيا بكاملها وعلى اسبانيا واقسام من فرنسا غرباً وعلى بلاد السند وبلاد ما وراء النهر وحدود الهند والصين شرقاً .

هذا التوسع تبعه انسياح العرب المسلمين في الاراضي المحررة وامتزاجهم بسكانها واطلاعهم المباشر على حضاراتهم وتأثرهم بهم وتأثر الاخرين بهم . وبتعبير آخر بدأ التبادل الحضاري باوسع معانيه يفعل فعله . اعتنق اغلب سكان البلاد المحررة الدين الاسلامي بسهولة ويسر دونما اكراه بعد ان زالت القيود التي كانت تمنعهم من الانعتاق وبعد ان رد لهم الاسلام اعتبارهم وسمح لهم ان يفكروا على سجيتهم وان يحققوا ذواتهم ، واعتناق الاسلام سيتبع بالغالب تعلم اللغة العربية ولذلك قامت حركة نشيطة تستهدف تعلم وتعليم الدين الاسلامي واللغة العربية . وبالمقابل، كان لدى سكان المناطق المحررة اشياء كثيرة لم يكن للعرب عهد بها ، ولذلك لم ير العرب اي حرج في تبنيها واستعمالها وتطويرها لصالحهم ومن اجل ملاءمة شروط الحياة الجديدة التي انتقلوا اليها .

اما الثقافات التي كانت سائدة في المناطق المحررة اعني سورية وبلاد الرافدين وبلاد فارس ومصر فهي الثقافات : اليونانية المصطبغة بالصبغة الشرقية والسريانية والفارسية والقبطية . وقد امتزجت هذه الثقافات ببعضها بحيث يصعب فصل عناصر احداها عن الاخرى . ففي اوائل هذا العصر ساد

الفرس الفرتيون في الشرق ونشروا حضارتهم وثقافتهم ، وهؤلاء الفرتيون كانوا اقل تحضراً من اسلافهم الفرس الأخمينيين ، هذا وان اهم ظاهرة حدثت في هذه الفترة هو اختفاء اللغة الفارسية القديمة واختفى معها الادب الفارسي القديم ، وظهور لغة فارسية جديدة .[١]

ان الاطاحة بحكم الفرتيين الفرس الذي تم سنة ٢٢٦م على يد ساسان احد سلائل الفرس الاخمينيين القدماء قد اوجد نوعاً من نهضة جديدة متأثرة بالحضارات السريانية واليونانية . لقد بلغت هذه النهضة الفارسية الجديدة ذروتها في عهد كسرى انو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) معاصر جستينيان امبراطور بيزنطة . وان حروبه ضد جستينيان وحملاته المظفرة ضد الروم وأعماله البطولية قد احيت الادب الفارسي والهمته،وقد كان هو نفسه حكيماً وعاقلاً ومحباً للآداب والعلوم ومشجعاً لهما وهو الذي شجع الفلاسفة على الدخول الى بلاده وهو الذي ادخل العلم اليوناني والفلسفة اليونانية الى بلاد الرافدين وفارس . ويمكن القول انه بدأ وقتئذٍ تاريخ المكتبات الشرقية في العصور الوسيطة [٢] .

فلما حرر العرب المسلمون بلاد الهلال الخصيب وبلاد فارس اصبحوا هم الورثاء الطبيعيين لحضارات متأثرة كلهـــا بالهيلينية رغم ان الهيلينية لم تكن الثقافة الوحيدة في المنطقة . ذلك ان العلم اليوناني والفلسفة والثقافة اليونانية كانت قد شقت طريقها في الشرق واصبح لها مراكز كبرى في الامبراطورية الفارسية ، وكان السريان هم الوسطاء في هذا النقل ، ذلك ان اشهر مؤلفات الفلسفة اليونانية والعلم اليوناني نقلت الى السريانية في مدارس إنطاكية والرها وحران وغيرها من مدن الجزيرة السورية ، وقد قام بهذا النقل النساطرة المضطهدون من قبل السلطات البيزنطية في سورية . ذلك ان عقيدة الدولة

---

(١) تومبسون ، ج ، و . **المكتبة في العصور الوسيطـة** . نيويـورك ، شركة هافنر للنشر ، ١٩٥٧ م . ص ٣٤٨ .

(٢) نفس المصدر .

البيزنطية كانت تختلف عن عقيدة النساطرة فاضطهدتهم من اجل ذلك، وفي سنة ٤٨٧م اغلق الامبراطور زينون مدرسة الرها فلجأ علماؤها الى الامبراطورية الفارسية حيث سمحت لهم الحكومة الفارسية ان يقيموا في مدينة نصيبين وان يستأنفوا نشاطهم العلمي . وعندما طرد الامبراطور جستينيان الفلاسفة اليونانيين من اثينا بعد اغلاق مدارسهم ٥٢٩ م لجأوا الى الامبراطورية الفارسية فرحبت بهم السلطات الفارسية واسكنتهم مدينة جنديسابور الواقعة في قلب الامبراطورية الفارسية وهناك استأنف العلماء عملهم واسسوا مدرسة للطب في تلك المدينة ظلت حية ونشيطة حتى الفتح الاسلامي وحتى زمن الخلفاء العباسيين حيث نجد عدداً من الاطباء والعلماء والنقلة ينتمون الى تلك المدينة وخاصة اسرة بختيشوع . وقد نقل هؤلاء العلماء اليونان وتلاميذهم انفس ما في الفكر اليوناني الى السريانية والفارسية . وعندما اتت الدولة الاسلامية وبدأ الاهتمام بالعلوم وبالتعريب والنقل الى اللغة العربية وجد المسلمون هذه النفائس اليونانية منقولة الى احدى اللغتين السريانية او الفارسية ومتأثرة بروح واساليب وثقافات النقلة .

ولقد شاهد المسلمون الاوائل كتب الفرس ومكتبات الفرس واعجبوا بها . وعندما اتى دور تأسيس المكتبات في الاسلام صاغوا مكتباتهم على النمط الفارسي الى حد ما، وتأثروا بالفرس في جمعهم كتبهم ، ذلك ان الحضارة الفارسية كانت معروفة للعرب زمن الجاهلية وقد كان في بلاد الفرس حركة ادبية وعلمية وفلسفية كبرى كما ذكرنا آنفاً اتت مع قيام السلالة الساسانية وبلغت ذروتها في عهد كسرى انو شروان . وقد جمع ملوك الفرس مدى العصور كثيراً من خزائن الكتب في مختلف فروع المعرفة، ورغم ان قسماً كبيراً من هذه المجموعات كانت تذهب بها الفتن والحروب والنيران الا ان الفرس كانوا بعد ان يستردوا قواهم يعيدون الكرة في التنظيم والجمع والتشجيع ، ويعتبر ازدشيربابك من اشهر ملوك الفرس واكثرهم تشجيعاً للعلم وحباً للعلماء، وجمعاً للكتب، ذلك ان هذا الملك الذي حكم بين سنتي

٢٢٦ و ٢٤١ م، ارسل في طلب الكتب من الهند والروم والصين [١] وقد فعل نفس الشيء خلفاؤه من بعده وخاصة كسرى انو شروان الذي شجع العلم والادب والجأ الى بلاده العلماء اليونانيين وجمع مكتبة فائقة في جنديسابور وغيرها من مراكز العلم ، ومما يعزز هذا الرأي ما يذكره المسعودي من انه استعان بكتاب منقول عن الفارسية يبحث في تاريخ الفرس القدمـــاء وفي العلوم عندهم كان فيما مضى من الايام احـــد كتب المكتبة الملكية الفارسية واخذ وقت الفتوح الاسلامية كغنيمة ثم نقل الى العربية [٢].. كذلك يذكر الاستاذ احمد امين نقلاً عن طيفور صاحب كتاب **تاريخ بغداد** ان كتب العجم – في العصر العباسي – كانت موجودة في خزانة في مرو ، واليك النص كما هو مذكور في كتاب ضحى الاسلام : قال يحي بن الحسن : اني بالرقة بين يدي محمد بن طاهر بن الحسين على بركة اذ دعوت بغلام لـــه فكلمته بالفارسية . فدخل العتابى – وكان حاضراً في كلامنا – فتكلم معي بالفارسية فقلت له ابا عمرو مالك وهذه الرطانة ؟ قال فقال لي : قدمت بلدتكم هذه ثلاث قدمات وكتبت كتب العجم التي في الخزانة في مرو – وكانت الكتب سقطت الى ما هنالك مع يزدجرد فهي قائمة الى الساعة – فقـــال كتبت منها حاجتي ثم قدمت نيسابور وجزتها بعشر فراسخ الى قرية يقال لها ذِوَدَرْ فذكرت كتاباً لم اقض حاجتي منه فرجعت الى مرو فأقمت اشهراً قـــال قلت ابا عمرو لم كتبت كتب العجم ؟ فقال لي وهل المعاني الا في كتب العجم، وبلاغة اللغة لنا والمعاني لكم ثم كان يذاكرني ويحدثني بالفارسية كثيراً [٣]

ولقد تأثر المسلمون في حضارتهم وثقافتهم وجمعهم كتبهم بالثقافة

---

(١) امين ، احمد . ضحى الاسلام . الطبعة الثالثة . القاهرة ، لجنـــة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ م . ٣ جـ ص ١٧٦

(٢) ماكينيسن ، ر. س. « خلفية تاريخ المكتبات الاسلامية » في : **المجلة الامريكية للغات السامية وآدابها** . المجلد ٥٢ (تشريـــن اول ١٩٣٥ – تمـــوز ١٩٣٦) ، ص ٣٠

(٣) امين ، احمد . **المصدر المذكور آنفا** ص ١٨٠

اليونانية في مراكزها الكبرى مباشرة وذلك في سورية ومصر . احتل الاسكندر المكدوني كما هو معلوم سورية ومصر ونشر فيهما النفوذ اليوناني والحضارة اليونانية وبنى مدينة الاسكندرية التي قدر لها ان تصبح عاصمة الدنيا الفكرية والثقافية اكثر من ثلاثة قرون (من القرن الثالث ق‌م الى القرن الاول منه) . وقد فلسف اليونان الذين اقاموا في سورية ومصر الديانة المسيحية وصبغوها بالصبغة الهيلينية وصبغوا كل الفكر الاغريقي بصباغتهم الخاصة بحيث يسمى هذا الاتجاه الفكري بمدرسة الاسكندرية ، وقد اتصل المسلمون اول ما اتصلوا بالفكر الاغريقي عن طريق مدرسة الاسكندرية هذه وكان لتعاليمها نفوذ عظيم ومهم في التفكير الاسلامي وفي الفلسفة الاسلامية بشكل خاص . ذلك ان المسلمين الذين تأثروا بالفكر اليوناني اخذوا هذا الفكر عن المدرسة الاسكندرانية ذات الاتجاه الافلاطوني المحدث الجديد وكذلك الحال بالنسبة للطب والفلك وغيرهما من فروع العلم . وقد سمع العرب ولا شك بمكتبة الاسكندرية الشهيرة التي اسسها بطليموس الاول سوتر مؤسس السلالة . وغذاها وطورها من بعده ابنه وخليفته بطليموس فيلادلفوس الذي جعل مكتبة الاسكندرية اكبر معهد اكادمي في العالم القديم . وجمع فيها اكبر عدد ممكن من الكتب والملفات واستخدم فيها اشهر الادمغة في زمانه . يذكر ابن النديم في كتاب **الفهرست** القصة التالية : حكى اسحق الراهب في تاريخه ان بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الاسكندرية لما ملك فحص عن كتب العلم وولى امرها رجلاً يعرف بزميره فجمع من ذلك على ما حكى اربعة وخمسين الف كتاب ومائة وعشرين كتاباً وقال ايها الملك قد بقي في الدنيا شيء كثير في السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم [١] .

يدل هذا النص على ان المسلمين عرفوا مكتبة الاسكندرية من العهود الاولى ، ويبدو لنا ان الخلفاء الاول ولا سيما المأمون الذي حاول ان يجمع

---

(١) ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن اسحق . **كتاب الفهرست** . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٤٨ هـ . ص ٣٣٤

في مكتبة بيت الحكمة في بغداد اكبر عدد من الكتب واشهر العلماء في عصره وبعث البعوث في سبيل استجلاب الكتب وتعريبها ، كانوا مقلدين مكتبة الاسكندرية والنموذج الذي ضربه لهم ملوكها . وأما قصة احراق المسلمين لهذه المكتبة قصة خيالية سنعود لبحثها بعد قليل وبشيء من التفصيل .

كذلك سمع المسلمون الاوائل، على الاغلب ، بالمكتبات اليونانية التي كانت موجودة في سورية زمن الفتوح . ذلك انه كانت توجد مكتبة شهيرة في مدينة القدس زارها يوسيفوس واستفاد منها في كتابة تاريخه وقد ذكر انه وجد المجموعة التاريخية فيها مدهشة ولا تقدر بثمن.وقد وصف القديس جيرم مكتبة مدينة قيصرية بانها مهمة وربما كانت أهم من مكتبة القدس . وقد جمع الاباطرة البيزنطيون الاوائل مكتبات ضخمة في القسطنطينية كانت تحوي بشكل خاص الكتب التي تبحث في اللاهوت المسيحي ، وكانت الاديرة المسيحية تحوي مكتبات صغرى معظم كتبها مؤلفات دينية ومسيحية ، وطبعاً لسنا متأكدين ان المسلمين رأوا هذه المكتبات لان من المشكوك فيه كثيراً ان تكون مكتبات القدس وقيصرية موجودة زمن الفتوحات الاسلامية ، ولكن الذي لا شك فيه انهم سمعوا بها وان التقاليد المكتبية اليونانية كانت لا تزال حية عند الفتح الاسلامي فتأثر بها المسلمون .

وهناك مركز ثالث من مراكز الثقافة كان له تأثير مباشر على الفكر لاسلامي في نشأته ونموه وتطوره اعني به تأثير السريان وتأثير تفكيرهم وتقاليدهم ومكتباتهم . ذلك ان المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات والتي يسميها البلدانيون المسلمون باسم الجزيرة كانت مركزاً كبيراً من مراكز الفكر اليوناني الهلينستي السرياني وكان فيها نحو خمسين مدرسة تعلم فيها العلوم السريانيةواليونانية واشهرها مدارس الرها وقنسرين ونصيبين وحران وكان يتبع هذه المدارس مكتبات . وقد غذت هذه المدارس والمراكز العالم الاسلامي بسيل لا ينقطع من النقلة والاطباء والفلاسفة منذ عهـــد المنصور العباسي حتى عهد المتوكل وما بعد . يقول بروكلمن في الموسوعة البريطانية مادة

مكتبات ما يلي : ان الجزيرة والعراق كانا منذ ايام الاسكندر متأثرين بالحضارة اليونانية ، وكان في الاديار اليونانية كثير من الكتب المترجمة لا في الاداب النصرانية وحدها، بل كان هناك ايضاً تراجم لمؤلفات ارسطو وجالينوس وابقراط اذ كان هؤلاء محور الدائرة العلمية في ذلك العصر ، وكان السريان نقلة الثقافة اليونانية الى الامبراطورية الفارسية ايام الساسانيين ... واخذت هذه البذرة اليونانية في الازدهار حتى ايام العباسيين . وقد ذكروا ان الفرس في حملتهم على مصر واليونان كانوا يحملون معهم بعض الكتب وهم عائدون من الغزو [1]

نخلص الى القول ان العرب المسلمين بعد ان استقروا في بلاد الرافدين وبلاد سورية ومصر تأثروا بالحضارات الموجودة آنذاك وبالتقاليد العلمية السائدة ، وهذا امر طبيعي ولا غبار عليه ولا سيما اذا تذكرنا ان الشرق هو مركز الحضارات وقد بدأت به اقدم الحضارات الانسانية واعرقها وفيه وجدت اقدم المكتبات في العالم قبل وجودها في الغرب بالوف السنوات . فمكتبات معابد مصر وبلاد الرافدين شهيرة ولعل اشهرها مكتبة اشور بانيبال التي حوت ٦٠٠ الف لوحة فخارية في نينوى عاصمة الامبراطورية ، كذلك اكتشف في رأس الشمرة في سورية في مدينة اوغاريت العائدة الى العصر الفينيقي والواقعة شمالي مدينة اللاذقية الحالية مكتبة في القصر الملكي . ولكن المهم في الامر هو ان المسلمين لم يكونوا مقلدين حرفيين وانما كانوا مبتدعين ومبدعين في اقتباسهم فنون الحضارة ، والاسلام العظيم حض على التبادل الثقافي والتبادل الحضاري وهو يحسن العطاء كما يحسن الاخذ والناحية البارزة العظيمة في الاسلام هي احترام الفكر واحترام الكلمة سواء كانت ملفوظة او مكتوبة وعدم هدم الحضارات السالفة بل تبنيها وتنقيتها والبناء عليها والزيادة فيها لخدمة الانسانية جمعاء .

لا نود ان نختم هذا الفصل دون الكلام على مكتبة الاسكندرية الشهيرة المذكورة آنفاً ومصيرها الذي آلت اليه .

---

(١) أمين ، أحمد ٠ **المصدر المذكور آنفا** ٠ ٢ جـ ٠ ص ٦٠ ٠

لا نستطيع ان نبحث هنا الموضوع بتفصيل فقد سبق ودرسه دارسون كثيرون ، ولكن يجب ان نعطي بعض الملامح العامة للمشكلة وابراز الخطأ من الصواب .

اتهم كثير من المؤرخين المسلمين بانهم احرقوا مكتبة الاسكندرية عندما فتحوا المدينة على يد عمرو بن العاص ايام حكم الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب . ذلك ان البطالمة الذين ورثوا حكم مصر بعد موت الاسكندر اهتموا بالعلوم والاداب اهتماماً بالغاً، وقد وضع نواة المكتبة مؤسس السلالة بطليموس الاول ووسعها وطورها كثيراً ابنه بطليموس فيلاديلفوس واصبحت مكتبة الاسكندرية في عهده المركز العقلي للثقافة الهيلينستية ذلك انه جمع المخطوطات من جميع انحاء العالم المعروف آنذاك وتقاطر اليها العلماء والبحاثة باعداد متزايدة لدراسة هذه المخطوطات ، وقد كان مركز المكتبة الرئيسي بالاضافة الى المتحف في البناء المعروف باسم البروكيوم Brucheum ، ثم اوجد للمكتبة فرع آخر في العهد الروماني ووضع في معبد السيرابيوم . وقد كان عدد الكتب كبيراً جداً ، ولكن لا يمكن اعطاء رقم تقريبي لعدد الكتب ، وذلك بسبب تضارب الروايات . وقد تولى ادارة هذه المكتبة علماء بحاثة كبار ساهموا اكبر المساهمة في تطوير المكتبة واغنائها بمختلف الكتب، واشهر هؤلاء العلماء خمسة يغطي عهدهم قرابة قرن من الزمان وهم زينودوتس وكاليماخوس وايراتوستينس وابولونيوس واريستوفانس، وان فهرست المكتبة الذي وضعه كاليماخوس والمعروف باسم بيناكس Pinakes يعتبر من اقدم الامثلة على البيبليوغرافيا في العالم (١) .

ادعى جمهور كبير من المؤرخين ان المسلمين احرقوا هذه المكتبة عند احتلالهم الاسكندرية ، ومما يؤسف له ان اول من روى هذه القصة هو مؤرخ مسلم معاصر لصلاح الدين الايوبي اسمه عبد اللطيف البغدادي ، وقد رحل

---

(١) « مكتبات » في : **دائرة المعارف البريطانية** . الطبعة ١٢ ،شيكاغو، وليم نبتون،١٩٣٦ م. ج ١٤ ، ص ٢

في عدد من الاقطار الاسلامية وروى بشكل عرضي قصة احراق المسلمين لمكتبة الاسكندرية على يد عمرو بن العاص بامر من عمر بن الخطاب **وذلك** في كتابه **الموعظة والاعتبار** ؟ ثم اتى من بعده عدد من المؤرخين من امثال القفطي في كتابه **تاريخ الحكماء** وابي الفرج بن العبري في كتابه **مختصر تاريخ الدول** وابي الفداء في كتابه **المختصر في تاريخ البشر** وكلها تؤكد ان المسلمين هم الذين احرقوا المكتبة . تقول الرواية باختصار انه عندما تم فتح المسلمين للاسكندرية سنة ٦٤٢ م اتى يوحنا النحوي احد العلماء والمناطقة الاسكندرانيين الى عمرو بن العاص وكان اثيراً لديه ، فطلب منه الافراج عن بعض حواصل الاسكندرية التي امر عمرو بالختم عليها فسأله عمرو ما الذي تحتاجه منها فقال كتب الحكمة في الخزائن الملوكية ونحن محتاجون اليها فسأله عمرو عن قصة هذه الكتب وعن محتواها فاخبره أمرها وان الذي جمعها بطليموس فيلادلفوس مدى السنين وقد اجتمع له على مر السنين ٤٥٠١٢٠ كتاباً، وهذه الكتب لم تزل محفوظة حتى زمان عمرو بن العاص فقال له عمرو لا استطيع ان اقطع برأي ما لم استأذن امير المؤمنين، وقد ارسل عمرو إلى عمر كتاباً بهذا الشأن.فاتاه الجواب يقول واما الكتب التي ذكرتها فان كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنه غنيً وان كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة اليها فنقدم باعدامها. فشرع عمرو بن العاص بذلك فامر بتفرقتها على حمامات الاسكندرية واحراقها في مواقدها،وكان عدد حمامات الاسكندرية آنذاك اربعة الاف حمام . ويختم ابن القفطي روايته للحادثة بقوله ان احراقها استنفد مدة ستة اشهر فاسمع ماجرى واعجب [1] .

من الملاحظ ان ابا الفداء نقل رواية ابن العبري على حين ان ابن العبري لم يذكر المصدر الذي استقى منه معلوماته، واما المقريزي فيذكر اشارة عابرة الى مكتبة الاسكندرية واحراقها في خططه وذلك اثناء كلامه عن عمود السواري:

---

(١) القفطي ، جمال الدين . **تاريخ الحكماء** ... تحقيق جوليوس ليبرت . ليبزيغ ، ١٩٠٣ م..ص ٣٣٥

ويذكر ان هذا العمود من جملة أعمدة كانت تحمل رواق ارسطوطاليس الذي كان يدرس به الحكمة وانه كان دار علم فيه خزانة كتب احرقها عمرو بن العاص باشارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] .

تلقف المؤرخون الغربيون هذه التهمة وبدأوا يدرسونها ويدعمونها ويؤيدونها ويحشدون لها الشواهد والادلة كل ذلك لكي يثبتوا عداء الإسلام والمسلمين للكتب والمكتبات والعلوم خاصة وللمدنية والحضارة بشكل عام . ذلك ان الغرب اطلع على هذه القصة اول ما اطلع سنة ١٦١٣ م عندما نقل الى اللاتينية بوكوك كتاب **مختصر تاريخ الدول** لابن العبري مع الاصل العربي . وقد درس منذ ذلك الحين هذه القضية كثير من الباحثين واغلبهم كما قلنا يميلون لتصديقها والايمان بها لا لشيء الا لانها تتماشى مع روح الاسلام العدائية للحضارة بزعمهم من جهة ولأن راويها شخص مسلم ، ولكن انبرى لدراستها دراسة موضوعية عدد من العلماء استطاعوا ان يترفعوا عن التعصب ولو لفترة محدودة ودرسوا المشكلة بتجرد ونزاهة وانتهى بهم الامر الى رفضها رفضاً كلياً جملة وتفصيلاً . فقد درسها المؤرخ الشهير ادوار جيبون وشك في محتواها ومضمونها ولعل اشهر من درسها بتجرد وتحرر الفرد ج بتلر في كتابه العظيم **فتح العرب لمصر** [٢] . استند بتلر في رفضه للقصة الى العناصر التالية :

اولا : ان يحيى النحوي والذي اسمه اليوناني حنا فيليبونوس توفي قبل فتح العرب لمصر باكثر من عقدين من السنين .

ثانياً : ان مكتبة الاسكندرية بفرعيها كانت قد احترقت قبل قدوم المسلمين الى مصر بزمن طويل

---

(١) المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي ٠ **الخطط المقريزية** ٠ الشياح ، لبنان ، مكتبة احياء العلوم ٠ ٣ جـ ١٠ حـ ص ٠٢٨٠

(٢) بتلر ، ج الفرد ٠ **فتح العرب لمصر** تأليف الفرد ج بتلر تعريب محمد فريد ابو حديد ٠ الطبعة الثانية ٠ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ م ٠ ص ٢٩٤ ـ ٣١٢ ٠

ثالثاً : ان اغلب الكتب كانت مكتوبة على رقوق ، والرقوق كما هو معروف لا تصلح للوقود

وبعد ان يحلل المؤلف القصة ويدرسها من جميع جوانبها ومن جميع وجهات النظر يختم دراسته بقوله «ولعلنا لا نكون مخطئين اذا نحن اجملنا فيما يلي ادلة حجيتنا، فان قصدنا ان نبين حقيقة امر مكتبة الاسكندرية ومقدار نصيب قصة احراق العرب لها من الصحة او الكذب ، وقد بنينا في ما سلف الامور التالية :

١ : ان قصة احراق العرب لها لم تظهر الا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التي نذكرها

٢ : اننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فالفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل .

٣ : ان الرجل الذي تذكر القصة انه كان اكبر عامل فيها مات قبل غزو العرب بزمن طويل

٤ : ان القصة قد تشير الى واحدة من مكتبتين : الاولى مكتبة المتحف وهذه ضاعت في الحريق الكبير الذي احدثه قيصر ، وان لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد في وقت لا يقل اربعمائة عام قبل فتح العرب ، واما الثانية وهي مكتبة السيرابيوم فاما ان تكون نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١ واما ان تكون قد هلكت او تفرقت كتبها وضاعت فتكون على كل حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف القرن .

٥ : ان كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودها وكذلك كتاب اوائل القرن السابع

٦ : ان هذه المكتبة لو كانت باقية عندما عقد قيرس (المقوقس) صلحه مع العرب على تسليم الاسكندرية لكان من المؤكد ان تنقل كتبها وقد

ابيح ذلك في شروط الصلح الذي يسمح بنقل المتاع والاموال في مدة الهدنة التي بين عقد الصلح ودخول العرب في المدينة وقدر ذلك احد عشر شهراً .

٧ : ولو صح ان هذه المكتبة قد نقلت او لو كان العرب قد اتلفوها حقيقة لما اغفل ذكر ذلك كاتب من اهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل حنا النيقوسي ولما مر على ذلك بغير ان يكتب عنه [١] .

ونحب ان نضيف تعليقاً اخيراً مهماً على ما مر ذكره وهو ان احراق الكتب واتلاف مخلفات الحضارة ليس من شيمة الاسلام ولا المسلمين ، هذا الدين الذي يحض على العلم والتعلم ويحمي المغلوب اذا استسلم او خضدت شوكته ويحترم الانسان كانسان ويحترم نتاج العقول بصرف النظر عن الجنسيات والديانات والألوان . وختاماً لهذا نود ان نذكر ان قسماً كبيراً من مؤرخي الغرب الذين صدقوا هذه القصة وحاولوا اثباتها انما فعلوا ذلك لتغطية قضية احراق الصليبيين لمكتبة طرابلس الشام الزاهرة الذي تم سنة ١٠٠٩ م ابان الحملة الصليبية الاولى ، وذلك اضافة الى دوافع اخرى كثيرة .

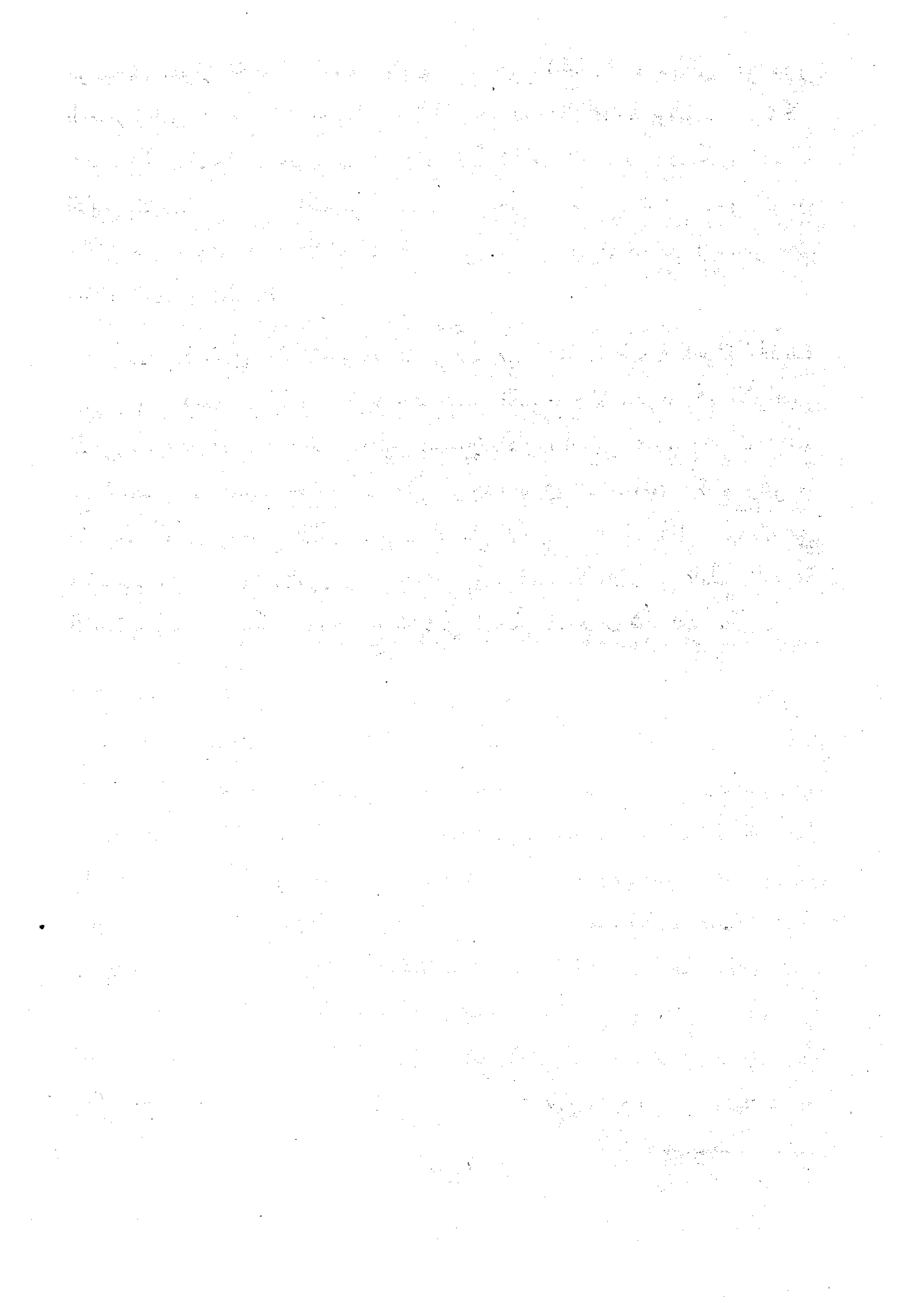
ظهرت المكتبات في الاسلام وتطورت نتيجة لانتشار العلم والمعرفة في العالم الاسلامي ، فالمكتبات في الاسلام هي كائنات حية انبثقت عن المجتمع الذي وجدت فيه نتيجة لتطوره وحاجته اليها وهي في الوقت نفسه ساعدت كل المساعدة على تطور هذا المجتمع ودفعه في طريق الرقي والنجاح والفلاح . اذن فالمكتبات الاسلامية مرآة تنعكس فيها حياة المسلمين وتظهر فيها هذه الحياة واضحة صافية مشرقة وفي جميع جوانبها ، كما ان المكتبات هي نفسها نتاج تفاعل هذه الحياة. ولذلك فان هذه المكتبات مرت كالمجتمع الاسلامي في ادوار حضانة ونمو وادوار ازدهار ونضج وادوار انحطاط وتقهقر ، ولسنا من الذين يؤمنون بتقسيم التاريخ الى ادوار تحددها وتفصل بينها سنوات محددة فذلك ليس من التاريخ في شيء ، وانما نقول ان المكتبات في الاسلام

---

(١) نفس المصدر . ص ٣١١ – ٣١٢

مرت في ادوار ثلاثة : الدور الاول هو دور الحضانة ، والثاني هو دور النضج والنمو وبلوغ الاوج والدور الثالث هو دور الانحطاط والتقهقر. ويمكن تحديد القرن الاول الهجري بشكل عام كفترة للحضانة، والقرون الخمسة التالية الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس وحتى قسماً من السابع دور النضج والازدهار ، واما عصر الانحطاط فيبدأ من اواخر القرن السابع ويستمر حتى مطالع العصور الحديثة .

نمت المكتبة في الاسلام وظهرت وتطورت كنتيجة طبيعية للحياة الجديدة التي وجد المسلمون انفسهم فيها بعد عصر الفتوح والاستقرار في الاراضي المحررة، وقد تم ذلك بتأثير عاملين اساسين الاول اجنبي عنهم وهو تفاعلهم مع الحضارات السابقة لحضارتهم والتي وجدوها في البلاد المحررة ، وهو ما مر بيانه آنفاً . والعامل الثاني — وهو العامل الاهم — عامل ذاتي منبعث من عقيدتهم وايمانهم واسلامهم وهو يتمثل في موقف الاسلام من العلم والمعرفة الانسانية وهو ما سيكون موضوع بحثنا في الفصل القادم ان شاء الله تعالى .



الفصل الثاني

فجر المكتبات الإسلامية

سبق ان قلنا ان المكتبات في الاسلام كانت وليدة الحاجات المحلية التي أحس بها المسلمون بعد ان استوطنوا في البلاد المحررة وبعد ان انتشر العلم والتعلم والتعليم في طول البلاد الاسلامية وعرضها . والواقع ان النهضة العلمية التي بدأها الاسلام وتبناها المسلمون كانت هي السبب الاعظم في اهتمام المسلمين بالكتب والمكتبات ، لان الكتاب ، كما لا يخفى ، وعاء المعرفة . وقد احترم اوائل المسلمين الكتب لانها اوعية المعرفة وطالما ان الدين الاسلامي يحض على العلم والتعلم . والواقع ان النهضة العلمية الشاملة نفسها التي حدثت في العالم الاسلامي بعد حروب التحرير والحضارة الاسلامية كلها انما نبعت وبالدرجة الاولى من حض الاسلام معتنقيه على العلم والتعلم. ان هذا التوجيه نحو النور والعلم والتعلم لا مثيل له في تاريخ البشرية قديماً وحديثاً. فقد حض وحث القرآن الكريم المسلمين والمؤمنين على التعلم ومدح العلم والعلماء في اكثر من عشرة مواضع ، فقد افتتح رب العزة والجلال وحيه للرسول الكريم بقوله «اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم»[1] ، وفي هذا تشريف واعظام لكل من علم او تعلم او امسك قلماً مدى العصور. وقال جل من قائل «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون[2] » فبين فضيلة المتعلم على الجاهل وان الجاهل

---

(١) سورة العلق : الآيات ١ ـ ٥

(٢) سورة الزمر : الآية ٩

لا يسنوي مع العالم . وكذلك قال جل ثناؤه «ن، والقلم وما يسطرون»[١]». فيقسم الله تعالى بالقلم وما يكتب به . كذلك قال تعالى « انما يخشى الله من عباده العلماء [٢]». وقال « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات[٣]».فقرن الايمان بالعلم.وقال ايضاً «ويعلمكم مالم تكونوا تعلمون»[٤] ويقول ايضاً « الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان [٥] » هذا وان الآيات المحرضة على العلم وحبه واحترامه والدعوة اليه كثيرة ولا مجال لاستقصائها جميعها. كذلك بعث الرسول الكريم معلماً وهادياً ومرشداً للناس جميعاً ، والسنة المطهرة مليئة بالامثلة النظرية والتطبيقية على فضل العلم والحرص عليه والتدليل على اهميته فقد اثر عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال « اغد عالماً او متعلماً او مستمعاً او محباً ولا تكن الخامسة فتهلك [٦] » وكذلك اثر عنه قوله « اطلب العلم ولو بالصين » و « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وفي رواية اخرى « ومسلمة » وقال عليه الصلاة والسلام « لا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم فاذا ظن انه قد علم فقد جهل »[٧] . وقال عليه الصلاة والسلام « الناس عالم ومتعلم وسائرهم همج » وعنه صلى الله عليه وسلم « ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضاً بما يطلب ولمداد جرت به اقلام العلماء خير من دماء الشهداء في سبيل الله [٨] » .

وعن معاذ بن جبل رضي الله تعالى عنه انه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تعلموا العلم فان تعلمه لله تعالى خشية وطلبه عبادة ومذاكرته تسبيح والبحث

---

(١) سورة القلم : الآية ١
(٢) سورة فاطر : الآية ٢٨
(٣) سورة المجادلة : الآية ١١
(٤) سورة البقرة : الآية ١٥١
(٥) سورة الرحمن : الآيات ١ ــ ٤
(٦) رواه الطبراني وذكر ان رجاله رجال الثقات
(٧) ابن عبد ربه ، ابو عمر احمد بن محمد ◦ **القصد الفريد** تأليف ابن عبد ربه تحقيق احمد امين واحمد الزين وابراهيم الابياري ◦ الطبعة الثانية ◦ القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ م ٧ جـ ◦ ٢ جـ ص ٢٠٩
(٨) نفس المصدر

عنه جهاد وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة وبذله لاهلة قربة لانه معالم الحلال والحرام ومنار سبل اهل الجنة وهو الانيس في الوحشة والصاحب في الغربة والمحدث في الخلوة والدليل على السراء والضراء والسلاح على الاعداء والزين عند الاخلاء يرفع الله تعالى به اقواماً فيجعلهم في الخير قادة وأئمة تقتفى آثارهم ويقتدى بفعالهم ترغب الملائكة في خلتهم وبأجنحتها تمسحهم ويستغفر لهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وانعامه لان العلم حياة القلوب من الجهل ومصابيح الابصار من الظلم يبلغ العبد بالعلم منازل الاخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة، والتفكير فيه يعدن الصيام ومدارسته تعدل القيام، به توصل الارحام وبه يعرف الحلال والحرام، هو امام والعمل تابعه ويلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء ...» اورده ابن عبد البر في كتاب **جامع بيان العلم** باسناده وقال هو حديث حسن جداً وفي اسناده ضعف[1]. والاحاديث الشريفة الدالة على فضل العلم والتعلم كثيرة وكلها مصابيح تضيء للمسلمين معالم الطريق ، واما الناحية التطبيقية للسنة الشريفة فتظهر لنا في فعله عليه السلام بعد غزوة بدر الكبرى اذ جعل الفداء من الاسر لكل اسير من اسرى مشركي قريش ان يعلم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة اذا كان الاسير يحسن القراءة والكتابة وعاجزاً عن تقديم الفدية المطلوبة من المال .

وجدت هذه البذرة الطيبة ارضاً صالحة خصبة فاثمرت واينعت وآتت اكلها حضارة رائعة افاضت على العالمين خيراً كثيراً . واذا ذهبنا نستقصي ما قاله عظماء المسلمين وعلماؤهم في فضل العلم طال بنا المطال وشط بنا المزار، فقد روي عن الشافعي انه قال عن شرف العلم ان كل من نسب اليه ولو في شيء حقير فرح ومن رفع عنه حزن[2] . وقال الاحنف : كل عز لم يوطد بعلم

---

(١) حاجي خليفة ، مصطفى بن عبدالله ٠ **كتاب كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون** تاليف حاجي خليفة تحقيق محمد شرف الدين يالتقاياد رفعة بيلكه الكليس ٠ استانبول ، وكالة المعارف ، ١٩٤١ ــ ١٩٤٣ ٠ ٢ جـ ١ حـ ص ١٨ ــ ١٩ ٠

(٢) **نفس المصدر** حـ ١ ص ١٩

فالى الذل مصيره [1] .

هذا الحب الشديد للعلم والحض عليه انتج ثمرات كثيرة لعل اهمها حب الكتب والوله بها . والواقع ان كثيراً من المسلمين احبوا الكتب حباً ملك عليهم البابهم ومشاعرهم وانساهم الاهل والولد ، وهم كثيراً ما يتغنون بالكتاب وفضله ومميزاته فتشعر عندما تقرأ اقوالهم انهم يتكلمون عن اشياء عزيزة عليهم اثيرة لديهم يعز عليهم فراقها وتجري ماء الجفون حزناً لفقدها فقد ذكر ول ديورانت في كتابه قصة الحضارة :«ولم يبلغ الشغف باقتناء الكتب في بلد آخر من بلاد العالم ــ اللهم الا في بلاد الصين في عهد منج هوانج ــ ما بلغه في بلاد الاسلام في القرون الثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر [2] .

واما فضيلة الكتب فقد قالوا ان الكتاب هو الجليس الذي لا ينافق ولا يمل ولا يعاتبك اذا جفوته ولا يفشي سرك [3] . وبعد فان افضل ما نظر فيه خواص الملوك وسلكوا اليه افضل السلوك ، بعد نظرهم في امر الامة وقيامهم فيما استودعوه بالحجة هو النظر في العلوم والاقبال على الكتب التي صدرت عن شرائف المفهوم . فاما فضيلة العلم فظاهرة ظهور الشمس عرية عن الشك واللبس [4] وقد تغنى الشعراء بالكتب ومحبتها فقد قال احدهم :

نعم الانيس اذا خلــوت كتاب   تلهو به ان ملك الاحبـــاب
لا مفشياً ســراً اذا استودعته   وتفاد منه حكمة وصواب

وقال الآخر :

---

(١) **نفس المصدر**
(٢) ديورانت ، ول ، **قصة الحضارة تأليف** ول ديورانت تعريب أحمد بدران • القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ ــ ٢٣ ج ١٣ ح ، ص ١٧١
(٣) ابن الطقطقي ، فخر الدين محمد بن علي بن طباطبا • **الفخري في الاداب السلطانية والامم الاسلامية** • القاهرة ، ١٩٢٣ م • ص ٤
(٤) نفس المصدر ص ٣

ولكل صاحب لـــذة متنـــــزه أبداً ونزهة عالم في كتبـــه [1]

وكلنا يذكر قول المتنبي المشهور :

اعز مكان في الدنا سرج سابح وخير جليس في الانام كتاب .

ولعل اشهر من احب الكتب ودافع عنها ومدحها واطنب ونفقت سوقها عنده الاديب الكبير الجاحظ. فقد احبها حباً لا يعدله حب قيس ليلاه وتغزل بها اكثر من تغزل ابن زيدون بولادة وكتبه تنضح بهذا الحب « لا اعلم ما جاء في حداثة سنه ، ولا قرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع به السير العجيبة والعلوم الغريبة ، ومن آثار العلوم الصحيحة والتجــارب الحكيمةوالاخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة ما يجمعه كتاب ، ومن لك بزائر ان شئت كانت زيارة غبأ ، وان شئت لزمك لزوم الظل، وكان منك كما كان بعضك [2]

(ن والقلم وما يسطرون) ولذلك قالوا القلم احد اللسانين كما قالوا قلة العيال احد اليسارين . وقالوا القلم ابقى اثراً واللسان اكثر هذراً . وقال عبد الرحمن بن كيسان: استعمال القلم اجدر ان يحض الذهن على تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح القلم. وقالوا اللسان مقصور على القريب الحاضر والقلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الكائن مثله للقائم الراهن. والكتاب يقرأ بكل مكان ويدرس في كل زمان واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه الى غيره [3]

غير ان الجاحظ يأتي بالعجب العجاب في كتابه الحيوان في مدحه الكتب

---

(١) ابن عبد ربه • **المصدر المذكور آنفا** ٤ ح ص ٢٠١

(٢) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر • (مؤلف مفترض) **المحاسن والاضداد** • القاهرة ، ١٩٣٢ م• ص ٤

(٣) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر • **البيان والتبيين** تاليف الجاحظ تحقيق حسن السندوبي • الطبعة الرابعة • القاهرة ، مطبعة الإستقامة، ١٩٥٦ م• ٣ ج • ١ ح • ص ١٠٣

واظهار محاسنها ومميزاتها ، فقد قال مادحاً الكتب مظهراً محاسنها مدافعاً عنها راداً على من عابها « ... ونعم الذخر والعقدة هو ، ونعم الجليس والعدة ونعم العشرة والنزهة ونعم المشتغل والحرفة ونعم الانيس لساعة الوحدة ونعم المعرفة ببلاد الغربة ونعم القرين والدخيل ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء ملىء علماً وظرف حشي ظرفاً واناء شحن مزاحاً وجداً ، ان شئت كان أبين من سحبان وائل ، وان شئت كان اعيى من باقل، وان شئت ضحكت من نوادره وان شئت عجبت من غرائب فرائده ، وان شئت الهتك طرائفه وان شئت اشجتك مواعظه ، ومن لك بواعظ مله وبزاجر معز وبناسك فاتك وبناطق اخرس وببارد حار ... ومن لك بطبيب اعرابي ومن لك برومي هندي وبفارسي يوناني ، وبقديم مولد وبميت ممتنع ، ومن لك بشيء يجمع لك الاول والآخر والناقص والوافر ، والخفي والظاهر والشاهد والغائب والرفيع والوضيع والغث والسمين والشكل وخلافه والجنس وضده ، وبعد فمتى رأيت بستاناً يحمل في ردن وروضة تقلب في حجر وناطقاً ينطق عن الموتى ويترجم عن الاحياء ؟ ومن لك بمؤنس لا ينام الا بنومك ولا ينطق الا بما تهوى ، آمن من الارض واكتم للسر من صاحب السر واحفظ للوديعة من ارباب الوديعة واحفظ لما استحفظ من الآدميين ومن الاعراب المستعربين ... وقال ذو الرمة لعيسى بن عمر : اكتب شعري فالكتاب احب الي من الحفظ لان الاعرابي ينسى الكلمة قد سهر في طلبها ليلته فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام .

وعبت الكتاب ولا اعلم جاراً أبر ولا خليطاً انصف ولا رفيقاً اطوع ولا معلماً اخضع ولا صاحباً اظهر كفاية ولا اقل جناية ولا اقل املالاً وابراماً ولا أحفل أخلاقاً ولا اقل إخلافاً واجراماً ولا اقل غيبة ولا ابعد عن عفيهة ، ولا اكثر اعجوبة وتصرفاً ولا اقل تصلفاً وتكلفاً ولا ابعد من مراء ولا اترك لشغب ولا ازهد في جدال ولا اكف عن قتال، ولا اعلم قريناً احسن موافاة ولا اعجل مكافاة ولا احضر معونة ولا اخف مؤونة ولا شجرة اطول عمراً

ولا اجمع امراً ولا اطيب ثمرة ولا اقرب مجتنى ولا اسرع ادراكا ولا اوجد في كل ابان من كتاب . ولا اعلم نتاجـاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه وامكان وجوده يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن آثار العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة ومن الاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتنازحة والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمع لك الكتاب [1] .

ويقول في موضع آخر : والكتاب هو الجليس الذي لا يطريك والصديق الذي لا يغريك والرفيق الذي لا يملك والمستميح الذي لا يشتريك والجار الذي لا يستطيبك والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالملق ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق ولا يحتال لك بالكذب . والكتاب هو الذي ان نظرت فيه اطال متاعك وشحذ طباعك وبسط لسانك وجود بنانك وفخم الفاظك ونجح نفسك وعمر صدرك ومنحك تعظيم العوام وصداقة الملوك وعرفت به في شهر ما لا تعرفه من افواه الرجال في دهر ، مع السلامة من العزم ومن كد الطلب ومن الوقوف بباب المكتسب بالتعليم ومن الجلوس بين يدي من انت افضل منه خلقاً واكرم منه عرقاً ومع السلامة من مجالسة البغضاء ومقارنة الأغبياء . والكتاب هو الذي يطيعك بالليل كطاعته بالنهار ويطيعك في السفر كطاعته في الحضر ولا يعتل بنوم ولا يعتريه كلال السهر . وهو المعلم الذي ان افتقرت اليه لم يخفزك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك العائدة وان عزلت لم يدع طاعتك وان هبت ريح اعاديك لم ينقلب عليك ، ومتى كنت منه متعلقاً بسبب او معتصماً بادنى حبل كان لك فيه غنى عن غيره ، ولم يضطرك وحشة الوحدة الى جليس السوء ، ولو لم يكن من فضله عليك واحسانه اليك الا منعه لك من الجلوس على بابك والنظر الى المارة بك مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ومن عادة الحرص ومن ملابسة صغار الناس وحضور الفاظهم الساقطة

---

(١) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر . **كتاب الحيوان** تأليف الجاحظ تحقيق فوزي عطوي . دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٦٨ م . حـ١ . ص ٣٣ـ٣٥

ومعانيهم الفاسدة واخلاقهم الرديئة وجهالاتهم المذمومة لكان في ذلك السلامة ثم الغنيمة واحراز الاصل مع استفادة الفرع ولو لم يكن في ذلك الا انه يشغلك عن سخف المنى وعن اعتياد الراحة وعن اللعب وكل ما اشبه اللعب، لقد كان على صاحبه اسبغ النعمة واعظم المنة [1] .

لا نعتقد ان كاتباً وصف الكتاب بابلغ من هذا الوصف ولا دافع عنه باحر من هذا الدفاع ولا بين محاسنه ومزاياه بمثل هذه القوة

وكانت الكتب تقرن احياناً بالسلاح وتوازن بها فقد قال المهلب لبنيه يا بني : اذا وقفتم في الاسواق فلا تقضوا الا على من يبيع السلاح او يبيع الكتب[2] .

كذلك اعتبر المسلمون الكتب اكثر جلباً للهيبة والعظمة من ابهة الامارة والولاية . قال الجاحظ : دخلت على محمد بن اسحق امير بغداد في ايام ولايته وهو جالس في الديوان والناس مثول بين يديه كأن على رؤوسهم الطير ، ثم دخلت اليه بعد مدة وهو معزول ، وهو جالس في خزانة كتبه ، وحواليه الكتب والدفاتر والمحابر والمساطر ، فما رأيته اهيب منه في تلك الحال [3] .

وقد وجد كثير من الادباء من فضل صحبة الكتب على صحبة الامراء والحكام؛ فقد ذكر ابن الطقطقي في كتابه **الفخري** ان احد الخلفاء ارسل في طلب بعض العلماء ليسامره فلما جاء الخادم اليه وجده جالساً وحواليه كتب وهو يطالع فيها . فقال له : ان امير المؤمنين يستدعيك ، قال : قل له عندي قوم من الحكماء احادثهم فاذا فرغت منهم حضرت . فلما عاد الخادم الى الخليفة واخبره بذلك قال له ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده قال والله يا امير المؤمنين ما كان عنده احد قال : احضره الساعة كيف كان. فلما حضر ذلك العالم قال له الخليفة : من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟ قال : يا امير المؤمنين :

---

(١) **نفس المصدر** · ص٤١ـ٤٢
(٢) **ابن الطقطقي · المصدر المذكور آنفا** ص ٣
(٣) **نفس المصدر** · ص ٤

لنا جلساء ما نمــل حديثهـــم امينون مأمونون غيباً ومشهداً
يفيدوننامن علمهمعلم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤدداً
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فلست مفنداً

فعلم الخليفة انه يشير بذلك الى الكتب ولم ينكر عليه تأخره [١] .

ورغم اننا نجهل اسم الحكيم المشار اليه واسم الخليفة مما يضعف هذه الرواية ، الا انها تدل دلالة عميقة على نظرة المسلمين للكتب وحبهم اياها واحترامهم لها .

كذلك ادرك المسلمون قوة الكتب وخطرها وخطر المواضيع التي تبحثها، فقد ادركوا اهمية التاريخ والآداب السلطانية بالنسبة للحكام والولاة والخلفاء، ورغب الوزراء والحجاب المتسلطون على الخلفاء المستضعفين ان يمنعوهم من الاطلاع على مثل هذه المواضيع الحساسة الشائكة ورغبوا لهم ان يطلعوا على القصص والنوادر التي تشغل الوقت وتنيم الذهن ولا تثير في الانسان حاسة التفكير او التأمل والتدبر فقد طلب المكتفي من وزيره كتباً يلهو بها ويقطع بمطالعتها زمانه فتقدم الوزير الىالنواب بتحصيل ذلك وعرضه عليه قبل حمله الى الخليفة ، فحصلوا شيئاً من كتب التاريخ وفيها شيء مما جرى في الايام السالفة من وقائع الملوك واخبار الوزراء ومعرفة التحيل في استخراج الاموال. فلما رآه الوزير قال لنوابه : والله انكم اشد الناس عداوة لي انا قلت لكم حصلوا له كتباً يلهو بها ويشتغل بها عني وعن غيري، فقد حصلتم له ما يعرفه مصارع الوزراء، ويوجده الطريق الى استخراج المال ويعرفه خراب البلاد من عمارتها ؛ ردوها وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه واشعار تطربه [٢] .

هذا هو موقف المسلمين من المعرفة عامة والكتب خاصة فلا عجب ان هم اعتنوا بها واحلوها اعلى منزلة عندهم. تقول اولغا بنتو في مجلة الثقافة

---

(١) نفس المصدر . ›

(٢) نفس المصدر . ص ٥

الاسلامية : « ان كل ماله علاقة بالكتب تطور بشكل عظيم ملحوظ ، فقد نسخت الكتب وزخرفت وزينت وجلدت بشكل انيق جداً . وقد احيطت باعظم ضروب العناية والرعاية ونشرت بين الناس ؛ وان جميع ذلك كان هدف واهتمامات الثقافة الاسلامية [1] »

لقد اعتبر فراق الكتب من الحوادث المهمة التي تحدث للانسان ؛ بل ان بعضهم فارق كتبه بعين دامعة وقلب واجف وكأنه يفارق عزيزاً عليه اثيراً لديه؛ فقد ذكر ياقوت الحموي في كتابه الموسوم **ارشاد الاريب الى معرفة الاديب** والذي يسمى عادة باسم **معجم الأدباء** في ترجمة الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن حمدون انه كان من محبي الكتب واقتنائها وانه بالغ في تحصيلها وشرائها وحصل من اصولها المتقنة وامهاتها الثمينة ما لم يحصل لكثير من الناس، ثم تقاعد به الدهر وافتقر بعد غنى وبطل عن العمل فيذكر ياقوت انه رآه يخرجها ويبيعها وعيناه تذرفان بالدموع كالمفارق لاهله الاعزاء والمفجوع باحبائه الاوداء . فقلت له (والكلام لياقوت) هون عليك — ادام الله ايامك — فان الدهر ذو دول وقد يسعف الزمان ويباعد وترجع دولة العز وتعاود فتستخلف ما هو احسن منها واجود . فقال : حسبك يابني . هذه نتيجة خمسين سنة من العمر انفقتها في تحصيلها ، وهب ان المال تيسر والاجل يتأخر — وهيهات — فحينئذ لا احصل من جمعها بعد ذلك الا على الفراق الذي ليس بعده تلاق ... ثم ادركته منيته ولم ينل امنيته [2] . وتوفي الحسن هذا سنة ٦٠٨ هـ .

ان هذا الحب العظيم للكتب كان نتيجة للتدوين والنقل والتأليف الذي تم منذ ظهور الاسلام حتى القرن الثاني للهجرة، وهو، في ذات الوقت، كان احد الدوافع الاساسية للتأليف والنقل والتدوين فهو علة ومعلول كما يمكن ان نرى.

---

(١) بينتو ، اولغا . « المكتبات العربيـــة في العصر العباسي » في : **النقافة الاسلامية** ، المجلد الثالث (١٩٢٩) . ص ٢١٢

(٢) ياقوت الحموي ، أبو عبدالله شهاب الـدين بن عبدالله الرومي . **معجم الأدباء** تأليف ياقوت الحموي تحقيق احمد فريد الرفاعـي . القاهرة ، عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ م . ج ٢٠ . ج ٩ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

والواقع ان قصة التدوين في الاسلام شيقة تستحق وقفة عندها لانها الاساس العلمي الذي استند اليه نظام التأليف في الاسلام . فمن المعلوم ان المسلمين الاوائل كانوا يعتمدون على الذاكرة في استظهار وحفظ آيات الله البينات ، ولكن وجد في عهد الرسول الكريم بعض الصحابة الذين سجلوا اقساماً كثيرة متفرقة من الكتاب العزيز على سعف النخيل او رقاق الحجارة او اللحاء العريضة او ما شابهها من المواد ، وقد توفي الرسول والامر على ما ذكر ، مع العلم ان عدداً كبيراً من الصحابة كان يحفظ القرآن الكريم غيباً وعلى رأسهم شيخ القراء زيد بن ثابت . فلما استمر القتل في الصحابة وخاصة القراء منهم اثناء حروب الردة زمن ابي بكر رضي الله عنه خاف على القرآن من الضياع فاستشار الصحابة في جمع القرآن الكريم في طرس واحد فوافقوه عليه وشكلوا لجنة لهذا الغرض يرأسها زيد بن ثابت فكتبوا القرآن في الرق لطول بقائه او لانه الموجود عندهم حينئذ [1] . ولما اتى الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان ورأى اختلاف الامصار في قراءة القرآن امر باستنساخ نسخ رسمية للقرآن الكريم وتوزيعها على الامصار حتى لا يحدث اختلاف في القراءات بين المسلمين فنسخت خمسة مصاحف ارسلت الى الكوفة والبصرة ودمشق ومكة والمدينة وابقى عثمان لنفسه مصفحاً عرف بالمصحف الامام ، ومنذ ذلك الزمن حفظ النص الاصلي للقرآن الكريم بشكل لا مثيل له في تاريخ الانسانية جمعاء ، وذلك مصداقاً لقوله جل شأنه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » . وكان الفضل الاعظم لعثمان في نسخ صحف القرآن وجمعها في المصحف وتوزيعها على الامصار . وغبر الناس يقرأون في مصحف عثمان نيفاً واربعين سنة الى ايام عبد الملك بن مروان ثم كثر التصحيف في تلاوة القرآن ففزع الحجاج الى كتابه وسالهم ان يضعوا لهـذه الحروف المتشابهة علامـات مميزة فوضعوا النقط افراداً وازواجاً وخالفوا بـين اماكنها ، فاصبح النـاس لا يكتبون الا

---

(١) القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي . **صبح الاعشى في صناعة الانشاء** . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ ـ ١٩١٩ م . ١٤ ج . ج ٢ . ص ٤٧٥ .

منقوطاً ثم احدثوا الاعجام . وقد بدأت مهمة نسخ المصاحف منـــذ ذلك الزمن المبكر ؛ يقول ابو بكر عبدالله بن ابي داود السجستاني في كتابه **كتاب المصاحف**: حدثنا عبدالله حدثنا محمد بن اسماعيل الاحمس وعلي بن ابي الخصيب قالا حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن ابي حكيمة العبدي قال كنت اكتب المصاحف بالكوفة فيمر علينا علي رضي الله عنه فيقوم فينظر فيعجبه خطنا ويقول هكذا نوروا ما نور الله [1] . وقد روى نفس المؤلف ان عبد الرحمن ابن عوف استكتب رجلاً من اهل الحيرة مصحفاً فاعطاه سبعين درهماً [2] .

ولقد كتب الرسول الكريم رسائله الى الملوك والرؤساء يدعوهم الى الاسلام على ادم كعهد الخيبريين [3] وككتاب النبي للنجاشي ، وكتبت المصاحف على جلود الظباء .

وقد بدأ المسلمون منذ عصورهم الاولى يتأنقون في كتابة المصاحف وتجميلها وفي ندب الخطاطين حسني الخط لنسخها ، وكذلك بدأوا يستعملون القرآن الكريم عنصراً زخرفياً تزيينياً في المساجد والجوامع فيذكر صاحب الفهرست ان اول من كتب المصاحف في الصدر الاول ويوصف بحسن الخط خالد بن ابي الهياج رأيت مصحفاً بخطه وكان سعد نصبه لكتب المصاحف والشعر والاخبار للوليد بن عبد الملك وهو الذي كتب الكتاب الذي في قبلة مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالذهب من «والشمس وضحاها» الى آخر القرآن. ويقال بان عمر بن عبد العزيز قال اريد ان تكتب لي مصحفاً على هذا المثال فكتب له مصحفاً تنوق فيه فاقبل عمر يقبله ويستحسنه واستكثر ثمنه فرده عليه [4] .

---

(١) أبو بكر عبدالله بن أبي داود السجستاني . **كتاب المصاحف** تأليف أبي عبدالله تحقيق أرثر جفري . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٦ م . ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) **نفس المصدر ص ١٣٣** .

(٣) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية**. طبعة ثانية مزيدة. القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م . ج٢ ج١ ص ١٧٦ . نقلا عن كتاب البيروني **تحقيق ما للهند من مقولة** .

(٤) ابن النديم **الفهرست** . ص ٩ ـ ١٠ .

بعد تدوين القرآن في المصاحف وبعد توزع المسلمين في الامصار قل اعتمادهم على الذاكرة وازداد اعتمادهم على الكلمة المكتوبة ، واحتكوا بالامم الاخرى ورأوا ما عندهم من حضارات وبدأت عملية التمازج الحضاري وجد عند المسلمين من الامور ما جعل الاعتماد على الذاكرة امراً مستحيلاً فبدأ التدوين والنقل والتأليف. وهناك كثير من الكتاب ، القدامى والمحدثين ، يصفون العصر الاموي عامة بالجدب والقحل من النواحي العلمية ولا سيما اذا ووزن بالعصر العباسي ، ويذكرون ان النقل والتأليف لم يبدأا الا في العصر العباسي ؛ فيذكر حاجي خليفة ان علوم الاوائل (يقصد العلوم العقلية من فلسفة وطب ورياضيات وهندسة وغيرها) كانت مهجورة في عصر الاموية ، ولما ظهر آل العباس كان اول من عني منهم بالعلوم الخليفة الثاني ابو جعفر المنصور وكان رحمه الله تعالى مع براعته في الفقه مقدماً في علم الفلسفة وخاصة في النجوم محباً لاهلها [1] .

ولكن الصورة ليست على هذه الدرجة من القتامة ، وليس العصر الاموي كما ذكر حاجي خليفة وغيره بل وجد فيه مؤلفون ووجدت فيه كتب ومكتبات ووجد فيها معربون ونقلة ووجدت فيه حركة علمية هامة . ذلك ان من المستحيل ان تكون العلوم قد نبتت من لا شيء في العصر العباسي فهذا شيء يخالف طبيعة الاشياء ، صحيح ان اوائل المسلمين كانوا يكرهون تسجيل شيء من العلوم ، ولكن هذه الكراهية كانت منصبة على الحديث الشريف بشكل خاص وذلك لئلا يختلط بكتاب الله تعالى ؛ ولكن الحاجة العملية الى الحديث الشريف باعتباره الاصل الثاني للتشريع الاسلامي ، وامتداد الامبراطورية الاسلامية وتعقد الحياة الاسلامية وتنوعها ، كل ذلك عوامل ساعدت على التغلب على ذلك الكره وجعلت علوم الحديث تنشط بشكل ملحوظ وكلما كثرت المواد المساعدة على التدوين والتسجيل ورخص ثمنها كثر التدوين وسهلت عمليته وازدادت الكلمة المكتوبة انتشاراً ، فقد كان القوم يكتبون زمن

---

(١) حاجي خليفة . **كتاب كشف الظنون** ... جـ١ ص٣٤ .

الامويين على القراطيس اي الطوامير المصنوعة بمصر من لب البردى . ولقد كان اختراع الورق او الكاغد كما يسميه العرب عاملاً حاسماً في نشر المعرفة وغزارة المؤلفات فيه انتهى عهد فجر المكتبات الاسلامية وبدأ عهد ازدهار الكتب والمكتبات في الاسلام .

هذا وان فقدان المواد المكتوبة العائدة للعهد الاموي وبداية العصر العباسي اي حتى اختراع الورق يعود في بعض اسبابه — على الاقل — الى الشروط المناخية التي تسود في سورية والعراق وبلاد فارس والتي لا تساعد على حفظ اوراق البردى وان اقدم اوراق البردى التي اكتشفت في مصر هي حسابات ورسائل شخصية ووثائق . يذكر بيكر ان اقدم مخطوط عربي مكتوب على اوراق البردى هو بردية ذات سبع وعشرين صفحة يعود تاريخها الى سنة ٢٢٨ هـ = ٨٨٤م [١] . ومن المهم ان نلاحظ ان هذا الكتاب ليس بشكل ملف وانما بشكل الكتب المعروفة ذات الصفحتين المتقابلتين [٢] . وهناك كثير من الادلة والشواهد التي تثبت وجود كتب ومكتبات في العصر الاموي وتثبت ان النقل والتدوين والتأليف بدأت في هذا العصر

فمن جهة النقل من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية فقد تم ذلك الامر تحت اشراف خالد بن يزيد بن معاوية الذي عجز عن تحصيل الخلافة والارتقاء الى عرشها فانتقل الى العلم وابتدأ ينقل الكتب من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية. ذلك انه اوجد ما يمكن ان نسميه اول مكتبة علمية خاصة في الاسلام . يذكر صاحب الفهرست ان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلاً في نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة فامر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية ، وامرهم

---

(١) ماكينسن ، ر. س. « الكتب والمكتبات العربية في العهد الاموي » في : المجلة الامريكية للغات السامية وادابها . المجلد ٥٢ (تموز ١٩٣٦) ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٢) نفس المصدر .

بنقل الكتب في الصنعة من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي وهذا اول نقل كان في الاسلام من لغة الى لغة ، ثم نقل الديوان [1] . وقد استخدم خالد احد علماء مدرسة الاسكندرية « اصطفين » في نقل بعض الكتب اليونانية الطبية الى العربية . ويرى المستشرق نالينو الايطالي انه ربما كان اول كتاب نقل من اليونانية الى العربية كتاب احكام النجوم المنسوب الى هرمس الحكيم [2] .

بل لعلنا لا نبالغ ان عمل خالد في نقله الكتب من اليونانية الى العربية تعاصر مع عمل آخر في النقل امر به مروان ابن الحكم مؤسس الفرع المرواني من السلالة الاموية ، ذلك ان ابن جلجل يذكر في كتابه **طبقات الاطباء والحكماء** عند كلامه عن ماسرجويه الطبيب انه : الطبيب البصري الذي عاش في الدولة الاموية وتوفي ايام مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ) ترجم كتاب **اهرن بن اعين القس** الى العربية [3] ، وكان اهرن من الاطباء الذين عاشوا في الاسكندرية في عصر هرقل (٦١٠ — ٦٤١ م) في صدر الاسلام ووضع كتاباً باللغة اليونانية ثم نقله الى السريانية الى ان قام بنقله الى العربية ماسرجويه المذكور . وطبعاً تم نقل الكتاب الى العربية اما في زمان مروان ابن الحكم أو قبل ذلك بفترة وجيزة طالما ان الناقل توفي في زمن مروان بن الحكم. ويذكر ابن جلجل في نفس الترجمة ان الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١هـ) وجد (الكتاب) في خزائن الكتب (الاموية) وانه استخار الله في اخراجه الى المسلمين وبثه في ايديهم فامر باخراجه ووضعه في مصلاه فاستخار الله في اخراجه الى المسلمين للانتفاع به فلما تم له ذلك اربعون صباحاً اخرجه الى الناس وبثه في ايديهم [4]

---

(١) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٣٣٨ .

(٢) كرد علي ، محمد . **خطط الشام** . دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٢٦ م . جـ ٦ حـ ٤ . ص ٢٤ .

(٣) ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حيان الاندلسي . **طبقات الاطباء والحكماء** . تأليف ابن جلجل . تحقيق فؤاد سيد . القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٥ م . ص ٦١ .

(٤) **نفس المصدر** .

هذا النص صريح في الاشارة الى وجود خزائن كتب لدى الخلفاء الامويين قبل عمر بن عبد العزيز . توضع فيها الكتب المعربة والمؤلفة والى ان بعض الخلفاء كان يطلع عليها ويرى من واجبه نشر الكتب المفيدة واذاعتها بين المسلمين .

وقد استمر النقل زمن الخلفاء الامويين وصدر الخلافة العباسية . فيعد المؤرخون من النقلة زمن هشام بن عبدالملك جبلة بن سالم كاتبه وكان ينقل من العربي الى الفارسي ، ونقل بعضهم شيئاً من تواريخ الامم عن الفارسية لهشام بن عبد الملك [1] . ولم يلبث مركز النقل الرئيسي ان انتقل الى بغداد بعد سقوط الامويين وانتقال مركز الخلافة الاسلامية من دمشق الى بغداد ولا سيما زمن المنصور والرشيد والمأمون .

كذلك لا ننسى ان الدواوين نقلت من اليونانية الى العربية في سورية زمن عبد الملك بن مروان ومن الفارسية الى العربية في العراق وما وراءه على يد الحجاج والي عبد الملك ومن القبطية الى العربية في مصر على يد عبد العزيز بن عبد الملك والي مصر آنذاك. وهذا طبعاً ساعد على اغناء اللغة العربية بالمصطلحات وقوى من الرغبة في التأليف وحفظ الكتب ودفع حركة تأسيس وإيجاد المكتبات دفعة الى الامام وساعد على ازدهارها .

واما التدوين والتأليف فقد وجد مؤلفون كثيرون في هذا العصر وان لم تصلنا آثارهم وذلك لاسباب شتى . فلنلاحظ اولاً ان المسلمين بدأوا التدوين والتأليف اول ما بدأوا في العلوم الدينية والعلوم المساعدة لها ، وان الرغبة في جعل المسلمين يعبدون ربهم عبادة جيدة صحيحة دفعت كثيراً منهم الى التدريس والتصدر لتعليم الآخرين.ومن ثم نشأت رغبة في نقل هذه المعارف للآخرين واذاعتها بين الناس حتى يعم نفعها جميع المسلمين ان امكن . هذا وان اول بعثة علمية ارسلت من الحجاز الى الشام من اجل التفقه في الدين كانت في

---

(١) كرد علي ، محمد . **خطط الشام** . ج ٤ . ص ٢٧ .

امارة يزيد بن ابي سفيان على بلاد الشام زمن عمر بن الخطاب . كتب يزيد الى عمر : ان اهل الشام قد كثروا وربلوا وملأوا المدائن واحتاجوا الى من يعلمهم القرآن ويفقههم فاعني يا امير المؤمنين برجال يعلمونهم . فارسل اليه معاذاً وعبادة وابا الدرداء فصار الاول والثاني الى فلسطين وصار الثالث الى دمشق [1] . ولا شك ان مثل هذا الامر تم في اصقاع اخرى من بلاد الاسلام .

هذا وان التدوين قد تم قبل ذلك زمن عمر بن الخطاب عندما انشىء ديوان الجند وديوان الخراج . ورغم ان هذه الدواوين ليست مكتبات وانما هي سجلات للاستعمال الرسمي الا انها اثرت في عقلية الفاتحين وعلمتهم ضرورة التدوين وفائدته . وقد كانت العادة ان تسجل السجلات في الدواوين صحفاً مدرجة فلما انقضت ايام بني امية وقام عبدالله بن محمد ابوالعباس السفاح استوزر خالد بن برمك بعد ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل الدفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى ان تصرف جعفر بن يحيي بن خالد ابن برمك في الامور ايام الرشيد فاتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعده الى اليوم [2] .

هذا وان اول من امر بتدوين القصص والاخبار والتواريخ هو معاوية ابن ابي سفيان ، ذلك ان معاوية قال بعد ان خلص الامر له « اردت ان عندنا من يحدثنا عما مضى من الزمن هل يشبه ما نحن فيه اليوم » فقيل له ان بحضرموت رجلاً معمراً اسمه امد بن ابد الحضرمي فاتى به ؛ وورد عليه من اليمن ايضاً عبيد بن شرية من المعمرين . وكان آية باهرة في معرفة تاريخ اليمن وملوك العرب والعجم يرويها مشفوعة بالقصائد الرنانة فامر معاوية كتابه ان يدونوا ما يتحدث به عبيد بن شرية في كل مجلس سمر فيه معاوية ، وكان يعجب مما يلقيه عليه عبيد ويستزيده من ايراد الشعر لان الشعر كما قال معاوية ديوان

---

(١) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . حـ ١ . ص ١٧٠ .
(٢) المقريزي . **الخطط المقريزية** . حـ ١ . ص ١٦٣ .

العرب والدليل على احاديثها وافعالها والحاكم بينهم في الجاهلية ، فكان بدء تدوين التاريخ على يد معاوية [1] .

وقد بدأ التأليف منذ عهد الصحابة الكرام والتابعين رغم ان حاجي خليفة يذكر في كتابه : **كشف الظنون** ما يلي : واختلفوا في اول من صنف في الاسلام فقيل الامام عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج البصري المتوفي سنة ١٥٥ هـ اول من صنف بالحجـــاز وقيل ابو نصر سعيد بن ابي عروبة المتوفى سنة ١٥٦ هـ اول من صنف بالعراق وقيـــل ربيع ابن صبيح سنة ١٦٠ هـ [2] . يروى ان زيد بن ثابت الف كتاباً في علم الفرائض وذكر موسى بن عقبة ان مُرَيْباً مولى عبدالله بن عباس امتلك حمل جمل كتباً من اقوال ابن عباس كان قد سجلها ، كذلك يذكر البخاري ان عبدالله بن عمر كان يكتب الحديث ، وذكر مسلم في صحيحه كتاباً الف في عهد ابن عباس في قضاء امير المؤمنين علي . وذكر ابن النديم انه رأى في مدينة الحديثة قرب الانبار في العراق خزانة للكتب فيها بخطوط الامامين الحسن والحسين وامانات وعهوداً بخط امير المؤمنين عليه السلام وبخط غيره من كتاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن خطوط العلماء في النحو واللغة مثل ابي عمرو بن العلاء وابي عمرو الشيباني والاصمعي وابن الاعرابي وسيبويه والفراء والكسائي ومن خطوط اصحاب الحديث مثل سفيان بن عينية وسفيان الثوري والاوزاعي وغيرهم [3] .

ولعل اهم ناحية في التأليف في عصور الاسلام الاولى هو تسجيل جميع الحوادث التي لها علاقة بالرسول الكريم وبالحديث الشريف ، ذلك ان الرغبة في ضبط الحديث وضبط رواته ، باعتبار ان الحديث الشريف هو المصدر الثاني من مصادر التشريع في الاسلام ، قادت المحدثين الى العناية بالسير والتراجم ، ورغبتهم في اظهار الاحكام الشرعية والاحاديث المرعية ادت بهم

---

(١) كرد علي ، محمد . **المصدر المذكور آنفا** حـ ١ ص ١٧١ ــ ١٧٢
(٢) حاجي خليفة . **المصدر المذكور آنفا** حـ ١ ص ٣٤
(٣) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** ص ٦١

الى تسجيل سيرة الرسول ومغازيه . لقد نشأ علم التاريخ وتوطد في مدارس الحديث وعلى ايدى المحدثين، ذلك ان الاحاديث الشريفة ، كما هو معلوم، لا تنقد موضوعياً اي لا نستطيع ان نقطع بصحة حديث او عدم صحته من مضمونه وانما الاعتماد على الرواة ومقدار حظهم من الصدق ، ولذلك قاد المحدثين هذا الاتجاه الى دراسة رجال الحديث دراسة موضوعية وبالتالي الى دراسة حياة رواة الحديث لنعرف مبلغ حظهم من الصدق والامانة، وهذه هي مهمة التاريخ. ورغم ان اقدم سيرة للرسول هي سيرة ابن اسحق بروايةّ ابن هشام تعود الى اوائل العصر العباسي الا انه لا شك في ان ابن اسحق استقى معلوماته من كتب اخرى ومصادر اخرى سبقته وهي تبحث في نفس الموضوع ، ولعل اهم محدث وعالم اهتم بتدوين سيرة الرسول واحاديثه هو عروة بن الزبير المتوفى سنة ٧١٢ م . وهو اول من استخدم الاحاديث الشريفة في تدوين سيرة الرسول ، ورغم ان اخاه عبدالله بن الزبير ادعى الخلافة وعاش حياة عاصفة الا ان عروة لم يشارك في شيء من هذا وانما عاش حياة هادئة وهو شخص كفء واهل لتدوين سيرة الرسول ذلك ان خالته ام المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وهو نفسه تتلمذ على يديها وقد جعل مقره المدينة المنورة ولم يغادرها الا عندما ذهب الى الشام بدعوة من الخلفاء الامويين . يذكر حاجي خليفة انه (اي عروة) الف كتاباً في مغازي الرسول وهو معتبر اول من الف في هذا النوع من التأليف [1] . ويعتبر عروة من علماء المدينة الثقات السبعة وقد احرق كتبه كلها في ساعة من ساعات احساسه بالذنب لجمعه كتباً اخرى سوى القرآن الكريم وكان ذلك عام الحرة سنة ٦٣ هـ . يقول ابنه هشام بن عروة : حرق ابي يوم الحرة كتب فقه كانت له قال فكان يقول بعد ذلك لان تكون عندي احب الي من ان يكون عندي مثل اهلي ومالي [2] . يدل هذا النص صراحة على ان التدوين والتأليف ابتدأ قبل ذلك الزمن بسنوات كثيرة حتى كانت لعروة

---

(١) حاجي خليفة . **المصدر المذكور آنفا** . حـ ٢ ص ١٧٤٧

(٢) كرد علي ، محمد . **المصدر المذكور آنفا** حـ ١ ص ١٧٦

مثل هذه الكتب في الفقه . هذا وان الطبري في كتابه الكبير **تاريخ الامم والملوك** يورد مقتطفات متناثرة من اقوال وكتابات عروة بن الزبير هذا في شكل اجوبة على اسئلة وجهها له عبد الملك بن مروان . وقد ذكر فاكا في الموسوعة الاسلامية مادة عروة « انه جمع مكتبة مهمة تحوي كثيراً من المواضيع التاريخية والفقهية » . وطبعاً يجب ان نكون حذرين عند استعمال كلمة كتب هنا ، فليس المقصود هنا بالكتب الكتب الفخمة التي تبحث الموضوع من جميع جوانبه وبشيء من التفصيل كما هي الحال في ايامنا مثلاً ، ولكن يبدو لنا ان قسماً كبيراً من الكتب الوارد ذكرها اما رسائل صغيرة تبحث في موضوع معين او امالي مختصرة او محاضرات او ملاحظات على موضوع معين ، مع العلم انه لا بد وان يكون بعضها كتباً حقيقية بالمعنى المفهوم من كلمة كتب .

وقد اورث حبه للكتب وعنايته بالحديث والمغازي والفقه الى تلميذه محمد بن مسلم ... بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ هـ . ذلك ان الزهري معروف ومشهور بانه من الفقهاء والمحدثين والمؤرخين وهو معتبر من اوائل المؤرخين الذين الفوا في مغازي رسول الله . وقد كان محباً للكتب جماعة لها وكان اذا جلس جعلها حوله والتهى بها عما عداها من امور الدنيا . يقول ابن خلكان « وكان (الزهري) اذا جلس في بيته وضع كتبه حوله فيشتغل بها عن كل شيء من امور الدنيا فقالت له امرأته يوماً « والله لهذه الكتب اشد علي من ثلاث ضرائر » [1] . وقال تلميذه معمر بأن خزائن الخلفاء تحوي صفوفاً من الدفاتر كلها املاء وكتابات استاذه الزهري . كذلك هناك رسالتان تبادلهما الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز وسالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب يطلب في الاولى الخليفة عمر من سالم ان يكتب سيرة لعمر بن الخطاب جد الخليفة لامه وجد سالم لابيه ونجد في الثانية جواب سالم على طلب الخليفة وفيها يعد الخليفة

(١) ابن خلكان ، ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد . **وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان** . تأليف ابن خلكان تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م . جـ ٦ . جـ ٣ . ص ٣١٧ .

بانجاز هذا المشروع .ولا ندري أتم المشروع ام لا ؟ نلاحظ من كتابات الزهري وعروة ومن الرسالتين السابقتين اتساع مجال الكتابة التاريخية والتأليف التاريخي.

كذلك يرد ذكر عدد من الحكام والكتاب على انهم من مؤلفي الكتب في مختلف المواضيع ، ولكن لسوء الحظ لم تردنا كتاباتهم ولم تصلنا كتبهم ، فقد ذكر ياقوت في معجمه **الارشاد** ان علاقة بن كرسم الكلابي كان في ايام يزيد بن معاوية وله علم بالأنساب... وله كتاب في الامثال في نحو خمسين ورقة ، وينقل عن محمد بن اسحق بن النديم صاحب **الفهرست** قوله رأيت هذا الكتاب[1]. ويذكر ابن النديم نفسه ان اول من الف في المثالب كتاباً زياد ابن ابيه فانه لما ظفر عليه وعلى نسبه عمل ذلك ودفعه الى ولده وقال استظهروا به على العرب فانهم يكفون عنكم[2] . وقد ذكر جوزيف هل في كتابه **الحضارة العربية** ان خالد بن يزيد بن معاوية الذي شغف بدراسة الكيمياء وتعلمها على يد راهب قد الف ثلاثة كتب في الموضوع تناول في الاول منها ذكر استاذه وتعاليمه[3] .

وقد بدأ تدوين الحديث الشريف في هذا العهد ، ذلك ان عمر بن عبد العزيز امر عاصم بن عمر الانصاري ، وكان ثقة كثير الحديث عالماً ، ان يجلس في مسجد دمشق فيحدث الناس بالمغازي ومناقب الصحابة وقال ان بني مروان كانوا يكرهون هذا وينهون عنه فاجلس فحدث الناس بذلك[4]

ولقد عني العرب في هذا الطور من حياتهم بالانساب ولذلك من المعقول جداً ومن الممكن جداً ان اغلب الاسر العربية الشريفة حفظت شجرات انسابها في مكتباتها الخاصة ولا سيما اذا تذكرنا ان العصر عصر عصبية قبلية وعصر موالي

---

(١) ياقوت الحموي · **معجم الادباء** · حـ ١٢ · ص ١٩٠

(٢) ابن النديم · **المصدر المذكور آنفا** ص ١٣١

(٣) هل ، ى **الحضارة العربية** · تعريب ابراهيم احمد العدوى · القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ م · ص ٧٤ ·

(٤) كرد علي ، محمد · **المصدر المذكور آنفا** حـ ١ · ص ١٧٢

وسادة وعصر تنابذ وتفاخر ، ولا شك ان مكتبات الخلفاء حفلت بعدد كبير من الكتب من هذا النوع .

والشعر العربي ولا سيما الجاهلي منه مما يتصل بموضوع الانساب والتفاخر بها ويتصل بها بسبب ، ذلك ان الشعر العربي الجاهلي راجت سوقه آنذاك اعظم رواج ونفقت اسبابه وازدهر قوله والتفاخر به فقد كان القوم يجتمعون بالمربد (قرب البصرة) ويتناشدون الاشعار ويتفاخرون ويتساجلون ويتهاجون بجميع انواع الشعر قديمه وحديثه ، وقد برز عدد من الشعراء في ذلك العصر اشهرهم الثلاثة المعروفون جرير والاخطل والفرزدق ونقائضهم ،ولذا فان من المرجح ان هذه الاشعار كانت تجمع وتسجل وتحفظ في المكتبات الخاصة بالافراد ،ولا شك ان المكتبات الخلافية كان فيها عدد كبير من امثال هذه المجموعات الشعرية .
وقد انتج عصر بني امية او عصرنا هذا الذي ندرسه ثلاثة من الكتاب الذين كان لهم اثر كبير فيمن اتى بعدهم . فالامام مالك الذي امضى شطراً كبيراً من عمره في هذا العصر اسس المذهب المالكي المعروف ، ورغم ان كتابه **الموطأ** يعود في تأليفه وخصائصه وفترته الزمنية ، الى العصر التالي ، الا ان المؤلف استقى مادته من مؤلفات سابقة على زمنه وعلى كتابه كما هو واضح من الكتاب نفسه ومن اشاراته ، وهذا دليل قوي على وجود مؤلفين سابقين على زمان الإمام مالك وعلى ان التأليف الاصيل قد بدأ في هذا العصر ، وعلى ان عصرنا هذا حفل بعدد كبير من المؤلفين والكتب والمكتبات . هذا وان دراسة موطأ مالك لتكشف عن مدى التطور الذي بلغه التأليف ولا سيما في الحديث والفقه وتدل على ان الكتاب نفسه ثمرة تطور اخذ سمته قبل عصر المؤلف بزمن طويل .

كذلك زهى عصرنا هذا بعبد الحميد الكاتب الذي كان كاتباً لمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية وقتل سنة ١٣٢ هـ على يد العباسيين . قيل عن عبد الحميد هذا انه فتق اكمام البلاغة ووطد ومهد الطريق امام الكتاب من بعده حتى قيل انه ما من كاتب الا ولعبد الحميد عليه دين . ويذكر ابن خلكان ان

مجموع رسائله مقدار الف ورقة [1] . وطبعاً لم يصلنا منها شيء . وتدل الحوادث المفردة والجمل المبتورة المنقولة عنه على بلاغة جيدة وايجاز معجز فقد قال « القلم شجرة ثمرتها الألفاظ والفكر بحر لؤلؤه الحكمة [2] . كذلك قيل ان احد الولاة اهدى الخليفة مروان بن محمد عبداً أسود ، فاستحقر الخليفة الهدية واستقبح اللون واستقل العدد فقال لعبد الحميد اكتب اليه وبخه على ذلك واوجز فكتب اليه يقول : اما بعد فلو وجدت لوناً شراً من السواد وعدداً اقل من الواحد لارسلته الينا والسلام »

واما عبدالله بن المقفع الفارسي الاصل فقد نشأ في هذا العصر وتتلمذ على يد عبد الحميد وهو الذي نقل الى العربية كتاب كليلة ودمنة والف كثيراً من الكتب كالادب الصغير والادب الكبير . وقد تأثر ابن المقفع بعبد الحميد الكاتب وبالعصر الذي عاش فيه ودرس آراءه في السياسة والاستبداد في فصل منحول اضافة الى كتاب **كليلة ودمنة** مما جعل الخليفة العباسي المنصور — مع اشياء اخر — ينقم عليه ويعمل على تصفيته .

واذا اردنا ان نجمل مميزات هذا العصر قلنا انه قد وضعت فيه جميع البذور الاولى للحضارة الاسلامية والكتاب الاسلامي والمكتبات الاسلامية . فقد دون فيه القرآن الكريم ووزع على الامصار ، وبدأ فيه جمع الحديث الشريف على يد عمر بن عبد العزيز وبدأ النقل من اليونانية والفارسية والقبطية الى العربية كما فعل خالد بن يزيد وعمر بن عبد العزيز ، وبدأت الدراسات الاسلامية الفقهية المستندة الى الحديث الشريف في الظهور ، وجمعت فيه الانساب والاشعار وظهرت المكتبات الخاصة ، وافتتح عهد تدوين وتسجيل الحوادث التاريخية وكتابة التاريخ ولا سيما المغازي والسيرة النبوية وغزرت الكتب ، بل لقد تأسست فيه اول مكتبة اكادمية على يد خالد بن يزيد بن معاوية في المركز الذي اوجده من اجل النقل والتعريب . ومما يجدر ذكره ان

---

(١) ابن خلكان . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٣٩٥
(٢) **نفس المصدر** . ج ٢ . ص ٣٩٦

خالداً هذا كان مهتماً بالفلك على ما يبدو لانه زود مكتبته بمواد فلكية اخرى غير الكتب فقد روى ابن السنبادي انه رأى في مكتبة الخلفاء الفاطميين في القاهرة في القرن الخامس الهجري (حوالي ١٠٤٤ م) كرة ارضية مصنوعة من النحاس صنع بطليموس الحكيم الفلكي المشهور ، وقد نقش عليها انها كانت في حوزة الامير خالد بن يزيد بن معاوية [١] . ويغلب على ظننا انه وضعها في مكتبته الوارد ذكرها آنفاً .

كذلك اوجد عبد الحكم الجمحي في مكة نادياً ادبياً اجتماعياً والحق به مكتبة وجعل فيه دفاتر من كل علم وذلك في النصف الاول من القرن الاول للهجرة [٢] . وبدأت دراسة الفقه الاسلامي دراسة منظمة ويمكننا ان نرى بذور بروز المذاهب الاسلامية الفقهية من هذا العهد ، وكثر التأليف في الانساب والمثالب واوجدت الدواوين ونقلت الى اللغة العربية وظهرت المجموعات الشعرية التي تذكر المفاخر والاهاجي وغيرها ، واخيراً وليس آخراً كثرت المكتبات الخاصة التي يمتلكها الافراد كثرة هائلة كعروة بن الزبير الذي احرق كتبه يوم الحرة كما ذكرنا وكالزهري وكابي عمرو بن العلاء التي كانت كتبه التي كتبها عن العرب الفصحاء قد ملأت بيتاً له الى قريب السقف ثم انه تقرأ اي تنسك فاخرجها كلها (اي احرقها واتلفها) ، ثم ندم بعد ذلك وعاد الى ما كان فيه من طلب العلم والرواية فلم يكن عنده الا ما حفظه بقلبه[٣]

من هذا نرى ان هذا الدور هو دور الحضانة في الحضارة الاسلامية وهو تمهيد لازم وضروري لدراسة تاريخ المكتبات والكتب في الاسلام الذي نأمل ان ننفذ الى صميمه في الفصل القادم ان شاء الله تعالى .

---

(١) ماكينسن ، ر . س . « الكتب والمكتبات العربية في العهد الاموي » في : **المجلة الامريكية للغات السامية وآدابها** . المجلد ٥٢ (تموز ١٩٣٦) . ص ٥٣

(٢) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . ج ١ . ص ١٧٦

(٣) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** ج ٣ . ص ١٣٦

الفصل الثالث

ضحى المكتبات الاسلامية

يعتبر كثير من المؤرخين سقوط الامويين واستلام العباسيين الحكم في العالم الاسلامي حداً فاصلاً بين عهدين لكل منهما مميزاته الخاصة به والتي قد تتناقض مع الآخر ، وان انتقال الخلافة من بيت امية الى بيت العباس يسجل نهاية عهد قديم وبداية عهد جديد . هذا القول وان كان صحيحاً إلى حد ما من وجهة النظر السياسية ، فانه لا يعني شيئاً كثيراً من وجهة نظرنا نحن وجهة النظر الحضارية التطورية . فالحضارة لا تصنع بهذا الشكل وليس في تاريخها عام حاسم او فاصل او يوم معين ، ولا يمكن القول ان الحضارة الفلانية ولدت في يوم كذا ، وان الحضارة الاخرى انهارت في تاريخ محدد ، لان نشوء الحضارات وازدهارها وانهيارها ان هو الا نتيجة تطور بطيء يحتاج إلى فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر . ولذلك فان هذا العصر استمرار لسابقه نضجت فيه الامور بشكل اكثر وظهرت فيه بوادر الحضارة الاسلامية وعناصرها بشكل اوضح بكثير ، وبدأت البذور الاولى والغراس الصغيرة التي غرست في العهد السابق بالظهور والايناع . ومع ذلك فإن هناك حادثتين مهمتين اثرتا في هذا العصر واختلفتا عن مثيلاتها في العصر السابق ، ونعني بذلك انتقال العاصمة الى بغداد واشتراك الموالي، ممثلين بالفرس، في الحكم ، ذلك ان انتقال العاصمة الى بغداد جعل التأثيرات الشرقية وخاصة الفارسية والهندية اوضح مما كانت سابقاً ، وادى ذلك الى اهمال الشام ، ولو لفترة

محدودة ، والى تقهقر احواله واختلال اموره . كذلك تميز هذا العهد بالصراع المكشوف العلني بين الفرس والعرب ، وهذا لا يعني ان مثل هذا الصراع لم يكن موجوداً زمن الامويين ، ولكن اختلف الوضع الآن عنه في العهد السابق . ذلك ان الموالي – وخاصة الفرس – كانت لهم اليد الطولى في اسقاط الامويين واحلال العباسيين محلهم ، وقد وعدهم العباسيون باعطائهم حقوقهم الموعودة ولكن الامر لم يستقر على حال بين الفرس والعرب فقد ظل الفرس يحاولون السيطرة على اجهزة الدولة ممثلين بالوزراء والقواد والكتاب كابي مسلم الخراساني وابي سلمة الخلال وآل برمك وآل سهل ، والعرب ، ممثلين بالخلفاء العباسيين يمنعوهم من بسط نفوذهم وسيطرتهم حتى انتهى الامر بضعف الطرفين وظهور عنصر ثالث استبد بالامور دونهما بعد وفاة المعتصم الا وهو العنصر التركي .

فالخلاف بين هذا العصر والعصر الذي سبقه يكمن في غلبة التأثيرات الشرقية والفارسية على انظمة الحكم والادارة ، وفي انتقال المركز الحضاري شرقاً الى بغداد وما وراءها وفي اهمال الشام وانتقال زعامة الحركة الثقافية منه الى غيره .

ذلك ان حركة النقل من اللغات الاجنبية – اليونانية والفارسية والهندية والقبطية والسريانية – قد استمرت وتسارعت واولتها الدولة عناية اكبر حتى ان قسماً من الخلفاء العباسيين اهتموا بالموضوع هم انفسهم وبلغ الامر ذروته زمن المأمون ، كذلك نشطت حركة التدوين والتأليف نشاطاً هائلاً وحفل العالم الاسلامي بالعلماء والبحاثة والمؤلفين الذين يكتبون ويؤلفون في جميع المواضيع ، وكثرت المكتبات بشكل هائل وتنوعت اغراضها ووظائفها وزخر العالم الاسلامي بهواة جمع الكتب ومحبيها حتى اصبحنا نرى علماء بلغت كتبهم من الوفرة والكثرة ارقاماً خيالية ، ومما ساعد على هذا التطور اختراع الورق الذي يعد من اكبر النعم التي اسداها المسلمون الى العالم ، واستدعى هذا بالتالي ظهور الوراقين وفتحهم الدكاكين الكثيرة وازدهار

تجارة الكتب ووجود طبقة من الكتاب هم النساخ الذين اصبحت مهنتهم نسخ المخطوطات واعدادها للبيع .

هذا وقد تابع الخليفة الثاني المنصور العباسي (١٣٦ — ٢٥٨ ﻫ) عملية نقل التراث الاجنبي وخاصة الهيليني والفارسي الى اللغة العربية ، فقد رأينا سابقاً كيف ان ابن المقفع نقل له كتاب كليلة ودمنة من اللغة الفهلوية، وكيف كان ذلك النقل ، مع اشياء اخرى ، سبباً في نقمة الخليفة عليه ومصرعه . كذلك احتضن المنصور العلم اليوناني وخاصة الطب ، اذ ان الخليفة كان ممعوداً وكان له اهتمام بالطب فاستدعى لمعالجته من جند يسابور جورجيوس بن جبرائيل الذي كانت له خبرة بصناعة الطب وقد عالج الخليفة وشفاه من مرضه واختص به ونقل للمنصور كتباً كثيرة من كتب اليونانيين الى العربي [١] .

اما العهد الذهبي للنقل من سائر اللغات الى اللغة العربية فهو عصر الرشيد وابنه المأمون ، ذلك ان النقل اصبح في زمانهما عملاً رسمياً تتولاه الدولة وتنفق عليه من مؤازنتها وتحشد له اعظم النقلة والعلماء والمفكرين وتؤسس له المؤسسات العلمية ويُرتحل في طلب الكتب العلمية والفلسفية والطبية ويراسل الملوك والحكام من اجلها . وقد اسس الخليفة هرون الرشيد مؤسسة كبرى للقيام بهذا العمل الجليل وهي مؤسسة كان عملها اول الامر مركزاً للنقل والملازمة كما يقول صاحب الفهرست ثم تطورت زمن المأمون واصبحت مؤسسة علمية من الطراز الممتاز همها ترقية البحث والتجرد للدراسات العليا ، ويمكننا ان نقول ان هذه المؤسسة المسماة باسم بيت الحكمة قد اصبحت زمن المأمون اكادمية بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة تحوي اماكن للدرس واماكن لخزن الكتب واماكن للنقل واماكن للتأليف الى جانب المرصد الفلكي والنشاط الفلكي الذي مارسته .

ورغم ان بيت الحكمة يقرن بالمأمون كمؤسس لهذه الاكادمية العظيمة الا

---

(١) ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس احمد . **عيون الانباء في طبقات الاطباء** . بيروت ،دار الفكر ،١٩٥٦م. ﺣ ٣ ﺣ ٢ . ص٣٧

انه يبدو لنا من ابن النديم انها وجدت زمن الرشيد والبرامكة فقد ذكر ابن النديم عند كلامه على علان الشعوبي : وهو علان الشعوبي اصله من الفرس وكان راوية عارفاً بالانساب والمثالب والمناظرات منقطعاً الى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة [1] . والواقع ان هذا تطور طبيعي وتدرج منطقي ومعقول بدأت الامور تعطي ثمارها الحقيقية بعد عهد البذر والتعهد زمن الامويين واوائل العباسيين . ولا ننسى ان الرشيد والمأمون كانا مثقفين ومهتمين بنقل التراث اليوناني والفارسي والهندي والسرياني الى العربية . وكان المأمون خصوصاً ذا نظر فلسفي ومعتنقاً مذهب الاعتزال الذي يمجد التفكير الحر ويدعو اليه ، وكان المأمون يجد لذة في البحث والدرس والمناظرة والجدل العلمي والتأليف والنقل فكان يجمع العلماء ويجعلهم يتناظرون بين يديه ، وبعد ان تنتهي المناظرات التي يشترك فيها المأمون نفسه في احيان كثيرة يفيض عليهم من بره وخيراته .

يذكر ابن الطقطقي اثناء كلامه عن المأمون : وله (للمأمون) اختراعات كثيرة في مملكته منها انه اول من محض منهم (يقصد الخلفاء العباسيين) عن علوم الحكمة وحصل كتبها وامر بنقلها الى العربية وشهرها وحل اقليدس ونظر في علوم الاوائل وتكلم في الطب وقرب اهل الحكمة [2] . ورغم اننا نقر ابن الطقطقي على رأيه في المأمون الا اننا لا نقره على قوله ان المأمون اول الخلفاء العباسيين الذين محضوا عن علوم الحكمة وحصلوا عليها فقد سبقه في ذلك المنصور والرشيد.وهناك نصوص تدل على طول باع المأمون بالعلم وفهمه وذكائه وغوصه على دقائق المعاني . يذكر الجاحظ ان سهل بن هارون قال يوماً وهو عند المأمون : من اصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين ان يرغبوا فيه ، وقد يرغب عن بعض العلم كما يرغب عن بعض الحلال . قال المأمون : قد يسمي بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم فان كنت اردت هذا فوجهه الذي ذكرنا.

---

(١) ابن النديم . **كتاب الفهرست** . ص ١٥٣ ــ ١٥٤
(٢) ابن الطقطقي . **الفخري في الآداب السلطانية** ... ص ١٧٨

ولو قلت : ان العلم لا يدرك غوره ولا يسبر قعره ولا تبلغ غايته ولا تستقصى اصنافه ولا يضبط آخره فالامر على ما قلت . فاذا كان الأمر كذلك فابدأوا بالاهم فالاهم ، وابدأوا بالفرض قبل النفل فاذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً [١] . كذلك كان المأمون نقادة ذواقة لما يقرأ ، ذلك انه اطلع على كتب الجاحظ في الامامة فابدى له رأيه فيها بقوله « قد كان بعض من يرتضى عقله ويصدق خبره خبرنا عن هذه الكتب باحكام الصنعة وكثرة الفائدة فقلنا له قد تربى الصفة على العيان ، فلما رأيتها رأيت العيان قد اربى على الصفة ، فلما فليتها اربى الفلى على العيان كما اربى العيان على الصفة . وهذا كتاب لا يحتاج الى حضور صاحبه ولا يفتقر الى المحتجين عنه قد جمع استقصاء المعاني واستيفاء جميع الحقوق مع اللفظ الجزل والمخرج السهل فهو سوقي ملوكي وعامي خاص [٢] .

ولعل احسن وصف للمأمون والحركة التي نشأت في عهده وغذاها بماله ونفوذه وجهده وعلمه وجاهه هو قول القاضي صاعد الاندلسي في كتابه **طبقات الامم** حيث يقول « ثم لما افضت الخلافة فيهم الى الخليفة السابع منهم (يقصد بني العباس) ، عبدالله المأمون بن الرشيد بن محمد المهدي بن ابي جعفر المنصور تمم ما بدأ به جده المنصور فاقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم واتحفهم بالهدايا الخطيرة وسالهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطوطاليس وابقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستجاد لها مهرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها فترجمت له على غاية ما امكن ثم حض الناس على قراءتها ورغبهم في تعلمها فنفقت سوق العلم في زمانه وقامت دولة الحكمة في عصره وتنافس اولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من اعطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها فكان

---

(١) الجاحظ **البيان والتبيين** جـ ٣ ٠ ص ٣٢٨ ٠
(٢) **نفس المصدر** ٠ جـ ٣ ٠ ص ٣٢٩

يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنازل الرفيعة والمراتب السنية وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين واهل اللغة والاخبار والمعرفة بالشعر والنسب فاتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في زمانه كثيراً من اجزاء الفلسفة وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا اصول الادب حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية ايام اكتمالها وزمان اجتماع شملها [1] .

قلنا ان الرشيد هو الذي اسس بيت الحكمة وهو الذي بدأ تلك الحركة العلمية من حشد للكتب اليونانية والفارسية في المكتبة الى تعريب لها ونقل من لغاتها الاصلية الى اللغة العربية ، بل لعله هو الذي بدأ تلك الحملات العسكرية ذات الهدف العلمي بقصد جلب نفائس المخطوطات اليونانية الى بغداد لتعريبها . ذلك ان الرشيد كان يقوم بنفسه بغزو بلاد الروم كل سنة وكان يطلق على هذه الغزوات اسم الصوائف ، واذا تأملنا الباعث على هذه الغزوات الصيفية اتضح لنا انها كانت غزوات علمية بمعنى ادق ، لان الرشيد وان كان يقصد منها القضاء على قوة الروم واخضاع شوكتهم –كان يهتم الى جانب ذلك كل الاهتمام بالحصول على مزيد من الكتب والمخطوطات في مختلف انواع العلوم : في الطب والفلك والرياضيات والفلسفة ؛ واما طريقة حصوله على تلك الكتب فكان يتم بان يتجه بغزواته الى المدن المشهورة بأنها معاقل للثقـافة اليونانية في اسيا الصغرى كعمورية وانقرة وغيرهما . وكانت خزائن هذه المدن مليئة بالمخطوطات النادرة والكتب النفيسة التي كان سكان تلك المدن قد جهلوا قيمتها ولم يعودوا يعرفون من امرها الا انها مخلفات قديمة [2] . وكان الرشيد يحرز النصر دائماً في هذه الصوائف ويجعل من بين شروط الصلح

---

(١) صاعد الاندلسي **كتاب طبقات الامم** ص ٤٧

(٢) الرقوقي ،محمد عاطف والتوانسي ،ابو الفتوح محمد · **الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي** · القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ م· ص ٧٨

الحصول على الكتب التي كان يريدها ، ولم يكن الرومان يبدون كبير معارضة للرشيد في الحصول على هذه الكتب [١] .

وقد عهد الرشيد بتعريب هذه الكتب التي وجدها في انقرة وعمورية الى يوحنا بن ماسويه وكان شيخ النقلة في عصره . يقول ان ابن ابي اصيبعة : كان يوحنا بن ماسويه مسيحي المذهب سريانياً قلده الرشيد ترجمة الكتب القديمة مما وجد بانقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين سباها المسلمون ووضعه اميناً على الترجمة [٢] .

وفي رأي محمد عاطف الرقوقي وابي الفتوح محمد التوانسي انه هو الذي نصح هارون الرشيد بانشاء دار كبيرة للكتب وهي تلك الدار التي اتسعت واشتهرت فيما بعد واصبحت تدعى دار الحكمة [٣] .

ويمكننا ان نعد من النقلة الذين خدموا الرشيد ومن بعده ابنه المأمون الحجاج بن يوسف بن مطر ، اذ انه نقل كتاب اقليدس **أصول الهندسة** مرتين الاولى زمن هرون الرشيد ويعرف هذا النقل بالهاروني نسبة لهارون والثانية زمن المأمون ويعرف هذا النقل بالمأموني [٤] .

كذلك عهد الرشيد بالقيام بشؤون خزانة كتب الحكمة الى شخص يتقن الفارسية هو الفضل بن نوبخت ابو سهل وهو فارسي الاصل يذكر القفطي عنه انه مذكور مشهور من ائمة المتكلمين ... وكان في زمن هارون الرشيد وولاه القيام بخزانة كتب الحكمة وكان ينقل من الفارسي الى العربي ما يجده من كتب الحكمة الفارسية ومعوله في علمه وكتبه على كتب الفرس [٥] .

يبدو لنا من النصين السابقين انه وجد زمن هرون الرشيد مشرفان على بيت

---

(١) **نفس المصدر** .
(٢) ابن ابي اصيبعة . **المصدر المذكور آنفا** . حـ ٢ . ص ١٢٤
(٣) البرقوقي .. **المصدر المذكور آنفا** . ص ٧٩
(٤) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٣٧١
(٥) القفطي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٥٥

الحكمة ولا ندري هل تعاقب احدهما بعد الآخر ؟ هل كانا متعاصرين ؟ واذا كانا متعاصرين فمن منهما صاحب السلطة ؛ يبدو لنا ان خزانة بيت الحكمة كانت مقسمة الى اقسام كبرى بحسب اللغات فهذا قسم الكتب الفارسية وهذا قسم الكتب اليونانية وهذا القسم قسم الكتب السريانية ... الخ . وكل قسم تحت رئاسة شخص مشرف عليه ومسؤول عنه ، والجميع يعودون في امورهم الى شخص اعلى مسؤول عنهم وهممسؤولون امامه. هذا في رأينا يفسر ورود اسماء عدد من الاشخاص يوصفون بأنهم اصحاب بيت الحكمة .

تعهد المأمون هذا المعهد العلمي برعايته واهتمامه ، وقد ذكرنا سابقاً علمه وفضله واهتمامه بالتراث اليوناني خاصة ، ويعلل صاحب الفهرست حب المأمون للفلسفة اليونانية والعلم اليوناني واهتمامه به بحلم يذكر ان المأمون رآه وكان ذلك من اوكد الاسباب التي جعلته يهتم بكتب الفلسفة ويأمر بنقلها الى العربية . يقول ابن النديم في فصل عنوانه : ذكر السبب الذي من اجله كثرت كتب الفلسفة وغيرها من العلوم القديمة في هذه البلاد « احد الاسباب في ذلك ان المأمون رأى في منام كأن رجلاً ابيض اللون مشرباً بحمرة واسع الجبهة مقرون الحاجب اجلح الرأس اشهل العينين حسن الشمائل جالس على سرير قال المأمون وكأني بين يديه قد ملئت له هيبة فقلت من انت قال انا ارسطو طاليس فسررت به وقلت ايها الحكيم اسألك قال سل قلت ما الحسن ؟ قال ما حسن في العقل . قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن في الشرع قلت ثم ماذا ؟ قال ما حسن عند الجمهور قلت ثم ماذا ؟ قال ثم لا ثم ؛ وفي رواية اخرى قلت زدني قال من نصحك في الذهب فليكن عندك كالذهب وعليك بالتوحيد . فكان هذا المنام من اوكد الاسباب في اخراج الكتب » [1]

وفي رأينا ان هذا الحلم ، ان صح ، هو نتيجة لاهتمام المأمون بالفلسفة اليونانية خاصة والعلوم والمعرفة عامةلاسبباً لهذا الاهتمام ؛ فالمأمون المعتزلي الحر

---

(١) ابن النديم · **المصدر المذكور آنفا** · ص ٣٣٩

التفكير يرغب في الاطلاع على كتب الفلاسفة ليزداد ثقافة وتعمقاً في النظر وقد كان سيتابع اهتمامه ولو لم ير هذا الحلم .

وقد انبع المأمون سياسة والده في توجيه الغزوات نحو المدن التي تحوي خزائن عظيمة للمخطوطات وذلك من اجل الحصول على تلك الثروة العلمية التي لا تقدر بثمن ، ولكنه زاد عليه زيادة كبرى وذلك في مراسلته ملوك الروم في القسطنطينية وصقلية وقبرص وطلبه منهم انفاذ ما عندهم من مخطوطات يونانية وارساله البعوث المختلفة الى بلاد الروم في سبيل الحصول على مثل هذه الكتب .

يحكى ابن ابي اصيبعة ان المأمون كانت بينه وبين ملك الروم مراسلات وقد استظهر عليه المأمون فكتب الى ملك الروم يسأله الاذن في انفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة ببلاد الروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع ، فاخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلم صاحب بيت الحكمة وغيرهم فاخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه امرهم بنقله فنقل، وقد قيل ان يوحنا بن ماسويه ممن نفذ الى بلاد الروم [1] . وقد اعتبر بعض المؤرخين المتأخرين ان من اهم اسباب ضعف المسلمين وتشتت كلمتهم وتخليهم عن دينهم نقل التراث اليوناني العقلي الفلسفي الى اللغة العربية وذيوعه بين المسلمين وان عملية النقل هذه كانت مؤامرة قام بها الزنادقة من آل برمك وغيرهم بقصد تحطيم الاسلام وتمزيق وحدته من الداخل بعد ان عجزوا عن حربه علناً . يذكرالسيوطي نقلاً عن الشيخ نصر المقدسي في كتابه **الحجة في تارك المحجة** ما يلي « ان بني العباس قامت دولتهم على الفرس ، وكانت الرئاسة فيهم وفي قلوب اكثر الرؤساء منهـــم الكفر والبغض للعرب ودولة الاسلام ، فاحدثوا في الاسلام الحوادث التي تؤذن بهلاك الاسلام ، ولولا ان الله تبارك وتعالى وعد نبيه صلى الله عليه وسلم ان ملته واهلها هم الظاهرون

---

(١) ابن ابي اصيبعة . **طبقات الاطباء** . حـ ٢ . ص ١٤٣

ليوم القيامة لابطلوا الاسلام ولكنهم قد ثلموه وعوروا اركانه ، والله ينجز وعده ان شاء الله » ثم يقول « فاول الحوادث التي احدثوها اخراج كتب اليونانية الى ارض الاسلام فترجمت بالعربية وشاعت في ايدي المسلمين. وسبب خروجها من ارض الروم الى بلاد الاسلام يحيي بن خالد بن برمك ، وذلك ان كتب اليونانية كانت ببلد الروم وكان ملك الروم خاف على الروم ان نظروا في كتب اليونانية ان يتركوا دين النصرانية ويرجعوا الى دين اليونانية وتتشتت كلمتهم وتتفرق جماعتهم ، فجمع الكتب في موضع وبنى عليه بناء مطمئناً بالحجر والجص حتى لا يوصل اليها . فلما افضت رياسة بني العباس الى يحيي بن خالد وكان زنديقاً ، بلغه خبر الكتب التي في البناء ببلد الروم فصانع ملك الروم الذي كان في وقته بالهدايا ولا يلتمس حاجة . فلما كثر عليه جمع الملك بطارقته وقال لهم ان هذا الرجل خادم العربي اكثر علي من هداياه ولا يطلب مني حاجة وما اراه الا يلتمس حاجة واخاف ان تكون حاجته تشق علي . فلما جاءه رسول يحيي قال له : قــل لصاحبك ان كانت له حاجة فليذكرها. فلما اخبر الرسول يحيي رده اليه وقال له : حاجتي الكتب التي تحت البناء يرسلها الي اخرج منها بعض ما احتاج اليه واردها اليه . فلما قرأ الرومي كتابه استطار فرحاً وجمع البطارقة والاساقفة والرهبان وقال لهم : قد كنت ذكرت لكم عن خادم العربي انه لا يخلو من حاجة وقد افصح بحاجته وهي اخف الحوائج علي ؛ وقد رأيت رأياً فاسمعوه فان رضيتموه امضيته ، وان رأيتم خلافه تشاورنا في ذلك حتى تتفق كلمتنا . فقالوا : ما هو ؟ قال حاجته الكتب اليونانية يستخرج منها ما احب ويردها . قالوا فما رأيك ؟ قال قد علمت انه ما بنى عليها من كان قبلنا الا انه خاف ان وقعت في ايدي النصارى وقرأوها كانت سبباً لهلاك دينهم وتبديد جماعتهم ، وانا ارى ان ابعث بها اليه واساله الا يردها يبتلون بها ونسلم نحن من شرها، فاني لا آمن ان يكون بعدي من يجترىء على اخراجها الى الناس فيقعوا فيما خيف عليهم . فقالوا ... نعم

الرأي رأيت ايها الملك فامضه »[1]

وطبعاً هذا تعليل ساذج وغير معقول لاسباب ضعف المسلمين وتخلفهم فالاسباب تكمن في مضاعفات اهم من هذه بكثير واعظم خطراً بما لا يقاس ، والعلم قوة ولا سيما اذا احسن استخدامه والاستفادة منه . ومما يجعلنا نشك في النص السابق ان الشيء نفسه قيل عن خزانة كتب اخرى ارسل المأمون في طلبها وهي خزانة الكتب الموجودة في صقلية المشهورة بكتبها الفلسفية والعلمية الغزيرة ، ويبدو ان الحاكم تردد في ارسالها وكان بين الضن بها والحرص عليها ، والخوف من قوة المأمون ومن هيبة الخلافة العباسية ، ومن اجل ذلك جمع كبار رجالات الدولة وادلى اليهم بطلب المأمون فاشار عليه المطران الاكبر بقوله « ارسلها اليه فوالله ما دخلت هذه العلوم في امة من الامم الا افسدتها » فاذعن الحاكم لمشورته وعمل بها[2] .

وقد حصل الشيء نفسه عندما طلب المأمون من صاحب جزيرة قبرص ان يرسل له الكتب اليونانية الموجودة لديه وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليهاحد.فجمع صاحب الجزيرة بطانته وذوي الرأي عنده واستشارهم في جمل الخزانة الى المأمون فكلهم اشاروا بعدم الموافقة الا مطراناً واحداً فانه قال : الرأي ان تعجل بانفاذها اليه فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية الا افسدتها واوقعت بين علمائها فارسلها اليه واغتبط بها المأمون[3] .

ويظهر ان المأمون ارسل اكثر من بعثة الى القسطنطينية وبلاد الروم واكثر من مرة وذلك من اجل الحصول على الكتب ، وذلك واضح من اخبار حنين

---

(١) العقاد ، عباس محمود · **التفكير فريضة اسلامية** · القاهـرة ، دار القلم ، ص ٤٠ ـ ٤٢

(٢) الرفاعي ، احمد فريد · **عصر المأمون** · الطبعة الرابعة · القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م · ص ٣٧٥ ـ ٣٧٦

(٣) شلبي ، احمد · **تاريخ التربية الاسلامية** · بيروت ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ١٩٥٤ م· نقلا عن كتاب ابن نباته المصري **سرح العيون** ص ١٦٦ ، ص ١٦١

بن اسحق ، ذلك ان حنيناً ورد بغداد وهو شاب متحمس لطاب العلم والنقل وكان يتقن اليونانية والسريانية ولكنه كان ضعيفاً بالعربية ، ولذلك نهض من بغداد الى ارض فارس وكان الخليل بن احمد الفراهيدي النحوي بارض فارس فلزمه حنين حتى برع في لسان العرب وادخل كتاب العين بغداد[1] . ولا ندري هل فعل حنين هذا قبيل التحاقه بخدمة المأمون ام اثناءها؟ومهما يكن من امر فقد التحق حنين بخدمة المأمون وانقطع للعمل في بيت الحكمة وتولى النقل فيها وارسله المأمون للبحث عن الكتب النادرة في بلاد الروم ، ونحن نعلم انه كانت هناك مكتبة عظيمة في القسطنطينية اسست سنة ٣٣٦ م وعني بعض الاباطرة بتوسيعها وتغذيتها حتى بلغ عدد كتبها قرابة مائة الف مجلد ، واحرق بعضهم قسماً من كتبها ذات الصبغة الدينية انتصاراً لمذهبه الديني وتعصباً لمذهب آخر ، ولكنها جددت بعد ذلك ووسع نطاقها وكانت زاخرة بالكتب في عصر المأمون[2] .ويذكر حنين انه سافر الى بلاد كثيرة ووصل الى اقصى بلاد الروم لطلب الكتب التي قصد نقلها . قال محمد بن اسحق النديم في كتابه الفهرست « سمعت اسحق بن شهرام يحدث في مجلس عام ان ببلد الروم هيكلاً قديم البناء عليه باب لم ير قط اعظم منه بمصراعين من حديد كان اليونانيون في القديم عند عبادتهم الكواكب والاصنام يعظمونه ويدعون فيه . قال فسألت ملك الروم ان يفتحه لي فامتنع من ذلك لانه اغلق منذ وقت تنصرت الروم فلم ازل اراسله واسأله شفاها عند حضوري مجلسه فتقدم بفتحه فاذا ذلك البيت من المرمر والصخور العظام الواناً وعليه من الكتابات والنقوش ما لم اسمع بمثله كثرة وحسناً ، وفي هذا الهيكل من الكتب القديمة ما يحمل على عدة جمال (وكثر ذلك حتى قال الف جمل) بعض ذلك قد اخلق وبعضه على حاله وبعضه قد اكلته الارضة »[3] .

---

(١) ابن ابي اصيبعة . **المصدر المذكور آنفا** . ح ٢ . ص ١٤٦ ـ ١٤٧

(٢) امين ، احمد . **ضحى الاسلام** . ح ٢ . ص ٦٣

(٣) ابن ابي اصيبعة . **المصدر المذكور آنفا** . ح ٢ . ص ١٤٣ ـ ١٤٤

كذلك ارسل يوحنا بن البطريق للبحث عن كتب الأوائل واحضارها ليصار الى نقلها الى العربية.يذكر عنه ابن جلجل انه كان اميناً على الترجمة... وترجم كثيراً من كتب الاوائل وهو ترجم كتاب ارسطوطاليس الى الاسكندر المعروف بسر الاسرار وهو كتاب السياسة في تدبير الرياسة . ذكر يوحنا انه مشى في طلبه وقصد الهياكل في البحث عنه حتى وصل الى هيكل عين الشمس الذي كان بناه هرمس الاكبر لنفسه يمجد الله تعالى فيه ، قال فظفرت فيه براهب متنسك ذي علم بارع وفهم ثاقب فتلطفت به واعملت الحيلة عليه حتى اباح لي مصاحف الهيكل المودعة فيه فوجدت في جملتها المطلوب الذي امرني امير المؤمنين بطلبه مكتوباً بالذهب فرجعت الى الحضرة المنصورة ظافراً بالمراد [١] .

وقد اجتمع لدى المأمون في بيت الحكمة هذا عدد من العلماء والبحاثة قل ان يجتمعوا في مكان آخر ، فقد ورد ذكر حنين بن اسحق ويوحنا بن البطريق وابن ماسويه ، وهناك عدد كبير من النقلة نجد ثبتاً باسمائهم في كتاب الفهرست لابن النديم كابن النوبخت وغيره ، كما نجد عدداً كبيراً من العلماء والفضلاء والرؤساء والوجهاء كانوا يداومون العمل في هذه الاكادمية مثل ابناء شاكر والخوارزمي وعلان الشعوبي وسلم وسهل بن هرون وسعيد ابن هرون وغيرهم .

وقد عهد المأمون الى حنين بن اسحق بمراقبة النقل من اليونانية الى العربية وقد كان النقل يتم سابقاً من اليونانية الى السريانية ومنها الى العربية ، فلما اتى حنين جعل النقل يتم مباشرة من اليونانية الى العربية . وقد نقلت في هذا العهد كتب علمية وطبيةوفلكية كثيرة ككتب جالينوس وابقراط وبطليموس وغيرهم. كذلك نقلت بعض الكتب الفلسفية والسياسية من اليونانية الى العربية ككتب ارسطو وغيره، وقد كانت طريقة التقرب سابقاً تقوم على ان توضع كلمة عربيةمقابل

---

(١) ابن جلجل · **طبقات الاطباء** · ص ٦٧

الكلمة الاجنبية ، وهذه طريقة بدائية في التعريب لا تستقيم مع ما يجب التصرف به اثناء التعريب من تقديم وتأخير حسب قواعد اللغة المنقول لها ، ولقد شعر حنين بهذا النقص وجعل النقل والتعريب حسب المعاني اي ان يقرأ الناقل الجملة المراد نقلها وبعد ان يفهم معناها يحاول صياغتها باللغة العربية حسب قواعدها مورداً المعنى الحقيقي للجملة الاصلية بلغة عربية سليمة غير متقيد بمواقع الكلمات في الجملة . وقد اعجب المأمون كل الاعجاب بحنين هذا وغمره بفضله وعطفه حتى انه كان يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلاً بمثل [١] . ويبدو ان الامر اعجب حنيناً وسره الحصول على ذهب اكثر بهذه الطريقة فلجأ الى كتابة منقولاته على ورق غليظ وباعد بين الاسطر . يقول ابن ابي اصيبعة : « وجدت من هذه الكتب كتباً كثيرة ، وكثيراً منها اقتنيته وهي مكتوبة مولد الكوفي بخـط الازرق كاتب حنين وهي حروف كبار بخط غليظ في اسطر متفرقة وورقها كل ورقة منها بغلظ ما يكون من هذه الاوراق المصنوعة يومئذ ثلاث ورقات او اربع وذلك في تقطيع مثل الثلث البغدادي ، وكان قصد حنين بذلك تعظيم حجم الكتاب وتكثير وزنه لاجل ما يقابل به من وزنه دراهم وكان ذلك الورق يستعمله بالقصد ولا جرم ان لغلظه بقي هذه السنين المتطاولة من الزمان [٢] . وقد بقي قسم كبير من هذه الكتب الى زمن ابن ابي اصيبعة (القرن السابع هـ) الذي رآها وحدثنا عنها . ويبدو كذلك انه كان للمأمون علامة خاصة توضع على غلاف الكتاب كما تفعل معظم الجامعات والمكتبات الكبرى في ايامنا هذه . يقول ابن ابي اصيبعة وكان كاتب حنين رجلاً يعرف بالازرق وقد رأيت اشياء كثيرة من كتب جالينوس وغيره بخطه وبعضها عليه تنكيت بخط حنين بن اسحق باليوناني وعلى تلك الكتب علامة المأمون [١] .

---

(١) ابن ابي اصيبعة · **طبقات الاطباء** · حـ ٢ · ص ١٤٣

(٢) **نفس المصدر** · حـ ٢ · ص ١٦٠

(٣) ابن ابي اصيبعة · **المصدر المذكور آنفا** · حـ ٢ · ص ١٤٤

ويبدو لنا من جملة النصوص التي بين ايدينا ولا سيما نص ابن نباتة عند كلامه على سهل بن هرون : وجعله (أي المأمون) كاتباً على خزائن الحكمة وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص ... [1] ان بيت الحكمة هذا كان اكادمية علمية بالمعنى الصحيح ولا سيما اذا تذكرنا ان اولاد شاكر المعروفين باهتماماتهم الفلكية والرياضية كانوا يعماون فيه ، وهي مقسمة الى اقسام متعددة منها قسم للنقل ، وهذا بدوره مقسوم الى اقسام لليونانية والفارسية والهندية والسريانية... ومكان للتأليف ومكان للبحث الفلكي والعلمي والرصد... الخ وقد وضع الجميع تحت اشراف عالم او عالمين ، وهذا ما يفسر ورود اسم كاتبين او اكثر على انهما صاحبا بيت الحكمة .

ولا بد لنا ان نشيد بالجهود العلمية التي بذلتها هذه المؤسسة ، ذلك ان النقل والتعريب كان آنذاك صعباً كل الصعوبة لان النقلة كانوا يطرقون موضوعاً جديداً كل الجدة عليهم ولا سيما اذا تذكرنا المصطلحات العلمية الكثيرة التي كان يجب عليهم ايجاد بديل لها باللغة العربية ، وقد تمكنوا في اغلب الاحيان من ايجاد البديل المناسب ونقولهم هذه بشكل عام جيدة ، وقسم كبير من التراث اليوناني لم تعرفه اوربا الا عن طريق النقول العربية .

واما ناحية الابتكار فقد اوجد الخوارزمي في بيت الحكمة هذه علم الجبر والمقابلة ، وكذلك قاس ابناء شاكر للمأمون محيط الارض وذلك عن طريق قياس دائرة نصف النهار في صحراء سنجار وكان تقديرهم لها قريباً من الطول الحقيقي لها .

وقد تولى منصب ادارة هذه الاكادمية عدد من العلماء اشهرهم سهل بن هرون الذي يذكر عنه صاحب الفهرست انه كان متحققاً بخدمة المأمون وصاحب خزانة الحكمة له . ومن رأي المرحوم محمد كرد علي ان سهل بن هرون تولى

---

(٢) امين ، أحمد . **ضحى الاسلام** . جـ ٢ . ص ٦٥
سرح العيون ص ١٣٢

خزانة المأمون الخاصة وتولى خزانة الحكمة له اي انه كان له منصبان : الاشراف على خزانة المأمون اي خزانة كتبه الخاصة والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة او بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد وفي ذلك ما يشير بان المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره ولا يمنعه منه انصرافه الى المصالح العامة فقط [١] .

ويذكر عنه ابن النديم انه كان حكيماً فصيحاً شاعراً فارسي الاصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب وله في ذلك كتب كثيرة ، وكان ابو عثمان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته ويحكي عنه في كتبه [٢] . ويصفه ابن النديم انه كان بخيلاً وعمل رسائل في البخل وعمل للحسن بن سهل رسالة يمدح فيها البخيل ويرغبه فيه ويستميحه في خلال ذلك فاجابه الحسن على ظهر رسالته وصلت رسالتك ووقفنا على نصيحتك وقد جعلنا المكافأة عنها القبول منك والتصديق لك والسلام ، ولم يصله عنها بشيء [٣] .

ويرد اسم سعيد بن هرون الكاتب كشريك لسهل بن هرون في بيت الحكمة ، ولا ندري هل بينهما قرابة؟ أم هو مجرد تشابه في الاسماء؟ ولا ندري ايضاً طبيعة الشركة بين الاثنين ، ومن منهما له اليد العليا ؟ وان كان يبدو من المعقول لنا ان يكون سهل صاحب اليد العليا وان سعيداً كان مساعده ويصفه ابن النديم بقوله « كان بليغاً فصيحاً مترسلاً » ، ويحكي عنه الجاحظ [٤] .

ويذكر ابن النديم شخصاً آخر هو سلم على اعتبـار انه صاحب بيت الحكمة مـع سهل بن هرون وله نقول من الفارسي الى العربي [٥] . وسلم

---

(١) كرد علي ، محمد . **امراء البيان** . الطبقة الثالثة . بـيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ م . ص ١٥٢

(٢) ابن النديم . **الفهرست** ص ١٧٤

(٣) **نفس المصدر**

(٤) **نفس المصدر**

(٥) **نفس المصدر**

هذا هو احد الافراد الذين ارسلوا الى بلاد الروم للحصول على المخطوطات ويبدو انه قد عهد الى سلم هذا برئاسة قسم الكتب الفارسية وفي نفس الوقت الاشراف على النقل من الفارسية الى العربية ، وكلا العملين مهم في ذاته .

واما علان الشعوبي فيصفه ابن النديم انه ذو اصل فارسي وكان راوية، عارفاً بالانساب والمثالب والمناظرات منقطعاً الى البرامكة وينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة [1] . ولكن هل من المعقول ان شخصاً من وزن علان راوية ونسابة وعالماً بالمناظرات والمثالب كان مجرد ناسخ في بيت الحكمة؟ يبدو لنا من اخباره الاخرى انه كان مشرفاً على النسخ كله في بيت الحكمة وهو المسؤول عن تزويد المكتبة بالكتب الجديدة وما يلزمها من اوراق ومحابر ونحوه اي انه كان ناشر بيت الحكمة بالتعبير الحديث ، ذلك ان ياقوت الحموي يذكر في معجمه أن علاناً هذا كان وراقاً وله دكان يبيع فيه الكتب وينسخ ويذكر ستة كتب من تآليفه هي كتاب **الميدان في المثالب** يحتوي على جميع مثالب العرب ، وكتاب **فضائل كنانة** وكتاب **النمر بن قاسط** وكتاب **نسب تغلب بن وائل** وكتاب **فضائل ربيعة** وكتاب **المنافرة** [2] .

ويبدو ان المأمون ومن اتى بعده حاولوا ان يجمعوا في هذه المكتبة القسم الاكبر من تراث الاسلام حتى عهدهم مع عناية خاصة بالمواد التي لها صلة باصلهم ، فقد ذكر ابن النديم انه كان يوجد في خزانة المأمون كتاب بخط عبد المطلب بن هاشم في جلد ادم فيه ذكر حق عبد المطلب بن هاشم من اهل مكة على فلان بن فلان الحميري من اهل وزل عليه الف درهم فضة كيلاً بالحديدة ومتى دعاه بها اجابه شهد الله والمكان [3] .

كذلك كانت تحوي تلك الاكاديمية فريقاً من المجلدين همهم تجليد الكتب وحفظها حتى لا تتأثر بكثرة الاستعمال وقد حفظ لنا ابن النديم اسم

---

(١) **نفس المصدر** ص ١٥٣ ــ ١٥٤
(٢) ياقوت الحموي ، **معجم الادباء** ، ج ١٢ ، ص ١٩١ ــ ١٩٢
(٣) ابن النديم **المصدر المذكور آنفا** ص ٧ ــ ٨

احد مجلدي خزانة الحكمة فيذكر ابن ابي الحريش وكان يجلد في خزانة الحكمة للمأمون [1] .

ولا ندري كم كان ينفق المأمون على مكتبته هذه شهرياً او سنوياً ، ولا بد انه مبلغ ضخم جداً بالنسبة للعمل الذي قامت به تلك المكتبة وبالنسبة للمهمة التي اخذت تنفيذها على عاتقها ، وكذلك بالنسبة للاشخاص الذين كانوا يعملون فيها ، ذلك ان اغلبهم بحاثة وعلماء من الطراز الاول ونعتقد ان رواتبهم كانت اعلى رواتب يمكن ان يتقاضاها امثالهم . ونستطيع بشيء من الموازنة ان نصل الى رقم تقريبي لرواتب الموظفين فيها ، ذلك ان ابن ابي اصيبعة يذكر نقلاً عن السجستاني ان بني شاكر وهم محمد واحمد والحسن كانوا يرزقون جماعة من النقلة منهم حنين بن اسحق وحبيش بن الحسن وثابت بن قرة وغيرهم في الشهر نحو ٥٠٠ دينار للنقل والملازمة [2] . واما محمد بن عبد الملك الزيات الذي كان وزيراً ايام الواثق فقد كان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر الفي دينار [3] . وقد ذكرنا سابقاً عطاء المأمون لحنين بن اسحق عما ينقله من اليونانية الى العربية وكيف ان ذلك العطاء كان زنة ما ينقله مثلاً بمثل . فاذا كان الامر كذلك واذا كانت رواتب الموظفين الذين ينسخون وينقلون لدى وزير من وزراء الدولة يبلغ الفي دينار في الشهر ، فكم يجب ان تكون رواتب موظفي ومستخدمي بيت الحكمة ؟ اعتقد ان الجواب هو لا أقل من عشرين الف دينار في الشهر وربما اكثر وذلك باستثناء النفقات الاخرى كثمن الحبر والورق واجور التجليد وثمن الكتب الجاهزة واثاث المكتبة وغيرها .

ومما له دلالته الاسم الذي اطلق على هذه الاكادمية فهي قد سميت ببيت الحكمة او خزانة الحكمة ولم تسمّ باسم خزانة الكتب ، وذلك للاشارة الى

---

(١) **نفس المصدر** ص ١٤

(٢) ابن أبي اصيبعة · **المصدر المذكور آنفا** · ح ٢ · ص ١٤٣

(٣) **نفس المصدر** · ح ٢ · ص ١٧٦

طبيعة الكتب التي كانت تجمع فيها والتي كانت تعرب هناك اذ ان الحكمة كانت مرادفة للفلسفة وخاصة الفلسفة اليونانية، ويقصد بالفلسفة المعنى العام الفضفاض للكلمة فقد كانت كلمة فلسفة تشمل ، عدا مباحث الفلسفة المعروفة، الطب والفلك وعلم الهيئة والطبيعة والرياضيات والمنطق... وهذا يدل على الاتجاه العقلي لمؤسس هذه الاكادمية وعلى التيار الثقافي الذي كان غالباً آنذاك. واما كلمة خزانة او بيت فهي تدل على المكان الذي يوضع فيه الشيء او يخزن . وهناك ناحية اخرى مهمة في بيت الحكمة هذه وهي مشابهتها التامة لمكتبة الاسكندرية الشهيرة ، هذا وان موازنة بسيطة بينهما تكشف عن وجوه التشابه هذه . فالناحية الاولى التي يتشابه به المعهدان هو اهتمامهما الفائق بالتراث الفلسفي والعلمي اليوناني ، فكما اهتمت خزانة الحكمة بجمع التراث الهيليني ونقله الى العربية اهتمت قبلها مكتبة الاسكندرية بنفس التراث وجمعته وصبغته بالصبغة الشرقية ، وكما ارسل المأمون البعوث الى مختلف البلاد للحصول على الكتب وراسل الملوك بل وحارب ابوه من قبله من اجل الحصول على المخطوطات ، فقد فعل الشيء نفسه البطالمة الذين اسسوا مكتبة الاسكندرية وغذوها مدى العصور ، ومثلما جمع المأمون في مكتبته اعظم المفكرين والعلماء والاطباء والنقلة في عصره فقد جمع البطالمة في مكتبتهم اعاظم العلماء آنذاك ، وقد اغدق المأمون العطاء على العلماء والبحاثة والنقلة مثلما فعل مؤسس مكتبة الاسكندرية . ولقد كانت كلتا المكتبتين مركزاً للبحث والدرس والتأليف والنسخ والنقل ومرصداً واكادمية كبرى من اجل الدراسات العليا الاكادمية المحضة ... ولا نستطيع ان نقول ان هذا التشابه قد حدث بمحض الصدفة والغالب انه تشابه مقصود وهدف له مؤسسو بيت الحكمة وخططوا له حتى أتى الامر على هذه الصورة .

هذا وقد استمرت خزانة الحكمة في العمل وتأدية رسالتها بعد المأمون ولكنها فقدت شيئاً كثيراً من اهميتها مع توالي الزمن وقد كانت لا تزال موجودة في اواسط القرن الرابع للهجرة عندما الف ابن النديم كتابه **الفهرست**

اذ انه استعمل مواداً كانت موجودة في بيت الحكمة كما يذكر هو نفسه ذلك اثناء حديثه عن القلم الحميري . يذكر ابن النديم في الكلام على القلم الحميري ما نصه « ورأيت ان جزءاً من خزائن المأمون ترجمته ما امر بنسخه امير المؤمنين عبدالله المأمون اكرمه الله من التراجم وكان في جملته القلم الحميري فاثبت مثاله على ما كان في النسخة [١] . ولذلك نستطيع ان نقول انها كانت موجودة حتى اواخر القرن الرابع الهجري اذ ان ابن النديم الف كتاب **الفهرست** سنة ٣٧٧ هـ . ويتساءل الاستاذ احمد امين هل بيت الحكمة هذه هي نفس دار العلم التي يرد ذكرها في رسالة الغفران على لسان الجارية توفيق السوداء ؟[٢] لا نعتقد ذلك . فدار العلم التي يرد ذكرها في رسالة الغفران لابي العلاء المعري هي المكتبة التي انشأها سابور بن اردشير وزير البويهيين في بغداد في اواخر القرن الرابع الهجري (سنة ٣٨٣ هـ) وزارها ابو العلاء في اواسط القرن الخامس وتحدث عنها كثيراً . واما بيت الحكمة فيغلب على الظن انه استمر موجوداً طوال العهد العباسي وانه دمر فيما دمر عندما احتل المغول بغداد سنة ٦٥٦ هـ . يؤخذ هذا من نص للقلقشندي في **صبح الاعشى** عند كلامه على خزائن الكتب الشهيرة في الاسلام « فقد كان للخلفاء والملوك في القديم مزيد اهتمام وكمال اعتناء حتى حصلوا منها على العدد الضخم وحصلوا على الخزائن الجليلة ويقال ان اعظم خزائن الكتب في الاسلام ثلاث خزائن : احداها خزانة الخلفاء العباسيين فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك الى ان دهمت التتر بغداد وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب وذهبت معالمها واعفيت آثارها...[٣]

وواضح أن القلقشندي يعني بخزانة الخلفاء العباسيين بيت الحكمة هذه . وقد استمرت حركة النقل بعد المأمون نشيطة مدى قرن آخر من الزمان ،

---

(١) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٨

(٢) امين ، احمد . **ضحى الاسلام** . ج ٢ ص ٦٥

(٣) القلقشندي . **صبح الاعشى** ... ج ١ . ص ٤٦٦

والواقع نستطيع أن نقسم عهد النقل في الاسلام إلى ثلاث مراحل : الدور الاول دور ما قبل الرشيد والمأمون والدور الثاني دور الرشيد والمـأمون والبرامكة ، والدور الثالث دور ما بعد المأمون. وقد اشتهر في هذا العهد امراء بحبهم الكتب وجمعهم اياها وتأسيسهم المكتبات الضخمة وانفاقهم على النقل كمحمد بن عبد الملك الزيات الذي نقلت باسمه عدة كتب والتف حوله فريق من أكابر الاطباء والفلاسفة مثل يوحنا بن ماسويه وجبرائيل بن بختيشوع وبختيشوع ابنه وداؤد بن سرابيون واليسع واسرائيل بن زكريا بن الطيفوري وحبيش بن حسن [1] . وقد ذكرنا سابقاً أبناء شاكر محمد واحمد والحسن وانقطاعهم للعمـل في بيت الحكمة ، ويظهر انهم بعد وفاة المأمون بدأوا يعملون لحسابهم الخاص وجمعوا حولهم النقلة والبحاثة وخاصة حنين بن اسحق الذي عاد يلازم بني موسى (وهم أنفسهم أبناء شاكر) بن شاكر ورغبوا في النقل من اللسان اليوناني إلى العربي وغرموا على ذلك الجمل العظيمة[2] وقد دخل في خدمتهم أيضاً حبيش بن الحسن وثابت بن قره وغيرهما. وأولاد موسى هؤلاء كانوا مهندسين وفلكيين ولهم استنباطات لم يسبقهم اليها أحد وبرهنوا للمأمون أن محيط الأرض ٢٤٠٠٠ ميل برهاناً محسوساً فضلاً عن مهارتهم بالرصد وغيره [3] .

وقد سار التأليف الأصيل في هذا العهد جنباً إلى جنب مع النقل والتعريب ، فقد زخر العصر بالعلماء الاعلام الذين الفوا في مختلف العلوم ، ذلك ان الامام مالك ألف كتابه **الموطأ** في مطالع هذا العصر كما سبق ان أشرنا ؛ وفي الواقع لقد شاهد هذا العصر ازدهار الدراسات الاسلامية ونشوء المذاهب الفقهية وتدوين الحديث الشريف وبداية التأليف في التاريخ ، وفيه الف الامام الشافعي

---

(١) ابن ابي اصيبعة · **المصدر المذكور آنفا** · جـ ٢ · ص ١٧٦ ـ ١٧٧
(٢) القفطي · **المصدر المذكور آنفا** ص ١٧٣
(٣) زيدان ، جرجي · **تاريخ التمدن الاسلامي** · الطبعة الرابعة · القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩٢٢ · جـ ٥ · حـ ٣ · ص ١٤٨

كتبه الفقهية والف الجاحظ كتبه في الادب والتي قيل فيها كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والادب ثانياً ، وفيه نشطت الدراسات اللغوية والادبية فقد شجع المأمون خاصة التأليف كما شجع التعريب وأجاز عليهما ، وقد مر معنا سابقاً موقفه من الجاحظ وتقديره له ولكتبه ، كذلك أمر المأمون الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع عن العرب ... وصير له الوراقين وألزمه الامناء والمنفقين فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب **الحدود** وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ، وبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ يملي كتاب **المعاني** وكان وراقيه سلمه بن عاصم وأبو نصر بن الجهم [1] . لذا يمكن القول أن العصر كان عصر ازدهار كبير جداً في النقل والتأليف معاً .

ومما ساعد كل المساعدة على ازدهار الحركة العلمية وانتشار التأليف والنقل على مقياس لم يعهد من قبل اختراع الورق وانتشار استعماله في القسم الشرقي من الامبراطورية الاسلامية ابتداءً من عصر الرشيد والمأمون ومن أتى بعدهما ثم اتساع نطاق استعماله غرباً حتى وصل إلى أوربا . والواقع أن الورق واستعماله واتساع نطاق هذا الاستعمال من توابع العمران واتساع نطاق الدولة كما يقول ابن خلدون . يقول ابن خلدون في : فصل في صناعة الورق « كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة ، وقد ذهب ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد أن كان منه في الملة الاسلامية بحر زاخر في العراق والاندلس اذ هو كله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة ونفاق اسواق ذلك لديهما فكثرت التآليف العلمية والدواوين وحرص الناس على تناقلهما في الآفاق والامصار فانتسخت وجلدت وجاءت صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصليح والتجليد وسائر الامور الكتبية والدواوين واختصت بالامصار العظيمة العمران [2] » . هذا وينسب

---

(١) ياقوت الحموي **معجم الادباء** . ج ٢٠ . ص ١٢

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن . **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في**

فضل ادخال الورق او الكاغد في الدواوين ووضعه في الاستعمال إلى الرشيد ووزيريه العظيمين جعفر والفضل البرمكيين . يقول المقريزي : وكانت كتابة الدواوين في صدر الاسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة فلما انقضت أيام بني أمية وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح استوزر خالد بن برمك بعد أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل الدفاتر في الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج إلى أن تصرف جعفر بن يحي بن خالد بن برمك في الامور أيام الرشيد فاتخذ الكاغد وتداوله الناس بعده إلى اليوم (١) . ويوافق على هذا الأمر القلقشندي في كتابه **صبح الاعشى** حيث يذكر أن الورق كثر زمن الرشيد وفشا عمله بين الناس فأمر الا يكتب الناس الا في الكاغد لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة فتقبل التزوير بخلاف الورق فانه متى محي فسد وان كشط ظهر كشطه وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الاقطار وتعاطاها من قرب ومن بعد واستمر الناس على ذلك إلى الآن (٢) . ويتفق ابن خلدون مع المؤلفين السابقين في أن الورق ظهر وفشا استعماله زمن الرشيد ولكنه يذكر أن الفضل بن يحي هو الذي أشار بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه ، واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت (٣) . والواقع أن صناعة الورق كانت معروفة منذ القديم في بلاد الصين والشرق الاقصى وكانت تصنع عجينة من الحرير والكتان وغيرهما من المواد . ولما فتح المسلمون سمرقند سنة ٧١٢م وجدوا فيها الكاغد ورغم أنهم لم ينتبهوا أول الأمر لأهميته واعتبروه شيئاً غير ذي غناء ، الا أنهم بعد فترة تعلموا صناعته ونشروها في القسم الشرقي من الامبراطورية وانتشرت صناعته بعد ذلك ، فقد تأسس

ايام العرب والعجم والبربر ... القاهرة ، دار الطباعة الخديوية ، ١٢٨٤م . ج ٧ . ج ١ . ص ٣٥٢

(١) المقريزي . **الخطط المقريزية** . ج ١ . ص ١٦٣

(٢) القلقشندي . **صبح الاعشى في صناعة الانشاء** . ج ٢ . ص ٤٧٥

(٣) ابن خلدون ، عبد الرحمن . **كتاب العبر** ... ج ١ . ص ٣٥٢

أول مصنع لصنع الورق في بغداد قبل نهاية القرن الثامن سنة ٧٩٤ م . وقد تمركز انتاج الكاغد في بغداد في محلة اسمها دار القز وهي محلة كبيرة في بغداد في طرف الصحراء ويعمل فيها الكاغد [١] . وقد أسس أول مصنع لصنع الورق في مصر من عجينة الكتان سنة ٨٠٠ م وقد اشتهرت الاندلس خاصة بصنع الورق وكان مركزه مدينة شاطبة التي كانت تصدره إلى اوربا وأول مصنع للورق أسس في الاندلس سنة ٩٥٠ وفي شمالي افريقيا حوالي القرن الحادي عشر . وكانت معامل اسبانيا خاصة تنتج جميع أنواع الورق بما فيها الأبيض والملون[٢] . وقد تعلمت أوربا صناعة الورق من المسلمين عن طريق الاندلس وعن طريق احتكاك الاوربيين بالمسلمين في بلاد الشام وغيرها زمن الحروب الصليبية ، فنجد أن أول مصنع لانتاج الورق أسس في صقلية سنة ١١٠٢ م وفي ايطاليا سنة ١١٥٤ م وفي المانيا ١٢٢٨ م وفي انجلترا سنة ١٣٠٩ م . لقد يسر هذا الاختراع تأليف الكتب في كل بلد انتقل اليه . واختراع الورق هذا من أجل النعم التي أسبغتها الحضارة الاسلامية على العالم اذ انها جعلت اختراع الطباعة ممكناً وساعد الورق على نشر العلم ومحو الجهل وعلى انارة معالم الطريق أمام الاجيال القادمة . هذا وان أقدم مخطوط عربي مصنوع من ورق موجود الآن هو مخطوط عنوانه **غريب الحديث** لمؤلفه أبي عبيد القاسم بن سلام (متوفي سنة ٨٣٧ م) وتاريخ المخطوط هو ذو القعدة سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) وهو في حوزة مكتبة جامعة ليدن ، ويوجد نسخة اخرى من نفس المخطوط وتعود إلى تاريخ متأخر اذ يعود تاريخها إلى سنة ٣١١ هـ وهي موجودة في مكتبة الجامع الازهر في القاهرة [٣] .

ويصف القلقشندي أنواع الورق المعروفة في عهده فيقول : الورق بفتح

---

(١) البستاني ، بطرس . **كتاب دائرة المعارف** . بيروت ، ١٨٧٦ – ١٩٠٠ م . ج ١١ . ج ٧ . ص ٥٤٣

(٢) حتي ، فيليب . **تاريخ العرب من اقدم العصور حتى الان** (انجليزي) . الطبعة السادسة . لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٦ م . ص ٣٤٧

(٣) **نفس المصدر** .

الراء ... ويسمى الكاغد ويقال للصحيفة أيضاً طرس ... وهو فارسي معرب .. وحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفاً صقيلاً متناسب الاطراف صبوراً على مرور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي وهو ورق ثخين مع ليونة ورقة حاشية وتناسب أجزاء وقطعه وافر جداً ولا يكتب فيه في الغالب الا المصاحف الشريفة وربما استعمله كتاب الانشاء في مكاتبات القافات ونحوها ... ودونه في المرتبة الشامي ... ودونهما في المرتبة الورق المصري... وقلما يصقل وجهاه معاً...ودون ذلك ورق أهل المغرب والفرنجة فهو رديء جداً سريع البلى قليل المكث ولذلك يكتبون المصاحف غالباً في الرق على العادة الاولى طلباً لطول البقاء [1] .

وقد استدعى اختراع الورق وانتشار استعماله ظهور طائفة من الناس يشتغلون بالورق والكتابة والكتب ، وهؤلاء هم الوراقون الذين لعبوا دوراً مهماً جداً في تاريخ الحضارة الاسلامية والثقافة الاسلامية ، ذلك ان الوراقين آنذاك كانوا هم الناشرين للكتب يقومون بنسخها وتجليدها وتصحيحها وبيعها وعرضها في الواجهات والاتجار بها ، وقد اشتغل بالوراقة علماء أجلاء وأصبحت الوراقة مهنة راقية وانتشرت دكاكين الوراقين في طول البلاد وعرضها وأصبح للمؤلفين الشهيرين وراقون يختصون بهم وأصبحت دكاكينهم أماكن ثقافية يرتادها الادباء وتعقد فيها المناظرات وتدور فيها المناقشات بحيث يمكن تشبيهها بيسر بالصالونات الادبية التي انتشرت في اوربا وخاصة فرنسا ابان القرن الثامن عشر . ويمر معنا لقب الوراق وقد أطلق على عدد من الشخصيات العلمية والادبية المهمة . والحقيقة أننا نجد ذكر الوراقين منذ عهد الرشيد أي منذ استعمال الورق في الدواوين والرسائل والكتب لأول مرة ، يدل على ذلك القصة التي يوردها ياقوت الحموي في معجمه حيث يقول : وحدث أبو مسحل عبد الوهاب قال كان اسماعيل بن صبيح الكاتب قد أقدم أبا عبيدة من البصرة في أيام الرشيد إلى بغداد وأحضر الاثرم وهو يومئذ وراق وجعله

(١) القلقشندي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧

في دار من دوره وأغلق عليه الباب ودفع اليه كتب أبي عبيدة وأمره بنسخها فكنت أنا وجماعة من أصحابنا نصير إلى الاثرم فيدفع الينا الكتاب والورق الأبيض من عنده ويسألنا نسخه وتعجيله ويوافقنا على الوقت الذي نرده اليه فكنا نفعل ذلك ، وكان الاثرم يقرأ على أبي عبيدة وكان أبو عبيدة من أضن الناس بكتبه ولو علم ما فعله الاثرم لمنعه من ذلك [1] .

وقد وجدت دكاكين الوراقين في الدولة العباسية منذ أوائل أيامها [2] . فقد سبق أن ذكرنا الاثرم الوراق وقصته في استنساخ كتب أبي عبيدة ، وكذلك مر معنا ذكر علان الشعوبي الوراق زمن المأمون وكيف كان له دكان يورق فيه . ومع كثرة الورق وانتشار استعماله فتحت دكاكين الوراقين في جميع مدن البلاد الاسلامية ، وأصبح هناك أسواق خاصة تعرف بالوراقين . فقد ذكر اليعقوبي في كتابة **البلدان** ان عدد حوانيت الوراقين في ربض وضاح مولى أمير المؤمنين من ضواحي بغداد بلغ أكثر من مائة دكان [3] ، وذلك في زمانه هو أواخر القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) . ونجد ذكر أسواق الكتب والوراقين في سورية ومصر وبقية ارجاء البلاد الاسلامية فقد ذكر انه كان في مصر في عهد الطولونيين والاخشيديين سوق عظيمة للوارقين تعرض فيها الكتب للبيع وأحيانا تدور في دكاكينها المناظرات [4] . ويذكر المقريزي سوق الوارقين الموجودة في القاهرة في أكثر من موضع وفي أكثر من مناسبة [5] . كذلك يذكر سوق الوراقين القديمة التي كانت سوقاً للوراقين ثم

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١٥ . ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(٢) حتي ، فيليب . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٤١٤ .

(٣) اليعقوبي ، أحمد بن أبي يعقوب بن واحج . **كتاب البلدان** تحقيق دي غويه . ليدن ، بريل ، ١٨٩٢ م . ص ٢٤٥ . جلد الكتاب مع كتاب ابن رستة الاعلاق النفيسة .

(٤) شلبي ، أحمد . **تاريخ التربية الإسلامية** . ص ٤١ . نقلا عن أخبار سيبويه المصري .

(٥) المقريزي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ١٩٥ .

أصبحت مكاناً لصبغ الجلود[1] . ويُذكَر طاق الحراني في بغداد مكاناً لبيع الكتب فقد ذكر ابن النديم ان المروزي جعفر بن احمد توفي بالاهواز وحملت كتبه إلى بغداد وبيعت في طاق الحراني سنة ٢٧٤ هـ [2] ويبدو ان سوق الوراقين الرئيسية في بغداد زمن ابن النديم (أواخر القرن الرابع هـ) كانت في الجانب الشرقي اذ انه يقول في اخبار احمد بن أبي طاهر أنه من أبناء خراسان وكان مؤدب كتاب عامياً ثم تخصص وجلس في سوق الوراقين في الجانب الشرقي [3] .

وأما الوراقة فقد كانت مهنة محترمة اشتغل بها علماء اجلة مؤلفون مرموقون منهم ابن النديم صاحب كتاب **الفهرست** الذي ألفه سنة ٣٧٧ هـ ويقول عنه ياقوت الحموي : كنيته أبو الفرج ... مصنف كتاب الفهرست الذي جود فيه واستوعب استيعابا يدل على اطلاعه على فنون من العلم وتحقيقه لجميع الكتب ولا أبعد أن يكون قد كان وراقاً يبيع الكتب [4] . وقد كانت واجبات الوراق كثيرة اذ كان الوراق ينتخب الورق وينسخ الكتاب او ينسخ تحت اشرافه ويصحح هذا النسخ حتى لا يقع فيه تحريف ويجلده ويبيعه . وقد اشتهرت الوراقة في عصر ابن النديم شهرة فائقة . والكتب التي نقلت في عصره يدل جودة خطها وتصحيحها والعناية بها على مبلغ رقي هذه الصناعة كذلك كان ياقوت الحموي وراقاً يبيع الكتب وينسخها ويتاجر بها . وقد اشتهر كثير من الوراقين باسم دلال الكتب فمثلاً سعد بن علي بن القاسم أبو المعالي الانصاري الحظيري الذي يصفه ياقوت بأنه كان أديباً فاضلاً شاعراً رقيق الشعر وله مصنفات ، كان معروفاً باسم الوراق دلال الكتب [5] . كذلك يصف ابن خلكان أبا الفتوح ناصر بن أبي الحسن المعروف بابن صورة بأنه

---

(١) **نفس المصدر** . ص ١٩٧ .
(٢) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . جـ ١٨ . ص ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٣) **نفس المصدر** . ص ٢٠٩ .
(٤) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . جـ ١٨ . ص ١٧ .
(٥) **نفس المصدر** . جـ ١١ . ص ١٩٤ ـ ١٩٥ .

كان سمساراً في الكتب في مصر [1] .

وعدا عن هذا فقد كان لمشاهير الادباء وراقون مختصون بهم فقد ذكر أن زكريا بن يحيي كان وراقاً للجاحظ ويذكر ياقوت نقلا عن ابن النديم ان ابن النديم رأى كتاب **النساء** وكتاب **النعل** للجاحظ مكتوبين بخط زكريا بن يحيي هذا [2] . ولقد كان علي بن احمد الدريدي وراق ابن دريد واليه صارت كتب ابن دريد بعد موته [3] . وقد كان للمبرد أكثر من وراق واحد فقد ذكر ابن النديم أنه « ومن وراقي المبرد ابن الزجاجي واسمه اسماعيل بن احمد والساسي واسمه ابراهيم بن محمد [4] .

وقد كان قسم منهم ادباء فضلاء وذوي مؤلفات ؛ وقد مر معنا ذكر ابن النديم وياقوت وغيرهما من الوراقين الادباء ، كذلك يرد ذكر الكرماني في الفهرست على أنه شخص مضطلع بعلم اللغة والنحو مليح الخط صحيح النقل يرغب الناس في خطه كان يورق بالاجرة وله من الكتب كتاب **ما أغفله الخليل في كتاب العين وما ذكر أنه مهمل وهو مستعمل وما هو مستعمل وقد اهمل** ، كتاب **الجامع في اللغة** ، كتاب **النحو** ولم يتمه ، كتاب **الموجز في النحو** [5] .

ومع ذلك وجد بين الوراقين أشخاص لم يكونوا على مستوى المهنة مما جعلهم يسيئون لها ويصمون الوراقين بعض الاحيان بالدس فيما يكتبونه وبتزوير الحقائق أو بنسب كتاب إلى غير مؤلفه او انتحال اسم مؤلف كبير رغبة في حسن رواج الكتاب ، فقد حدث صاحب الفهرست رواية عن أبي الفرج الاصفهاني ما يلي ... يقول سمعت حماد بن اسحق (اسحق الموصلي)

---

(١) ابن خلكان . **المصدر المذكورة آنفا** . ج ١ . ص ١٧٧ .
(٢) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ١٦ . ص ١٠٦ .
(٣) **نفس المصدر** . ج ١٢ . ص ٣٣٢ .
(٤) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٨٩ .
(٥) **نفس المصدر** . ص ١١٨ .

يقول ما ألف أبي هذا الكتاب قط يعني كتاب **الاغاني الكبير** ولا رآه والدليل على ذلك ان أكثر أشعاره المنسوبة انما جمعت لما ذكر معها من الاخبارو ما يحي فيها إلى وقتنا هذا ، وان أكثر نسبة المغنين خطأ ، والذي ألفه أبي من دواوين غنائهم يدل على بطلان هذا الكتاب ، وانما وضعه وراق كان لأبي بعد وفاته سوى الرخصة التي هي أول الكتاب فان أبي الفها الا ان أخباره كلها من روايتنا ... وأخبرني جحظة أنه يعرف الوراق الذي وضعه وكان يسمى سندى بن علي وحانوته في طاق الزبل وكان يورق لاسحق فاتفق هو وشريك له على وضعه وهذا الكتاب يعرف في القديم بكتاب الشركة وهو أحد عشر جزءاً ... فالجزء الاول من الكتاب الرخصة وهو تأليف اسحق لا شك فيه ولا خلف [1] . والقصة تشير إلى كتاب **الاغاني الكبير** الذي يقال ان اسحق بن ابراهيم الموصلي الفه .

وقد جرى مجرى الأمثال القول أن هذا الشيء تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين اذا أريد اظهار المبالغة في خبر من الأخبار كما يستدل من القصة التالية التي يوردها ابن خلكان فقد ذكر ان محمد بن القاسم أبا العيناء حضر يوماً مجلس بعض الوزراء فتفاوضوا حديث البرامكة وكرمهم وما كانوا عليه من الجود فقال الوزير لأبي العيناء — وكان قد بالغ في وصفهم وما كانوا عليه من البذل والافضال — قد أكثرت من ذكرهم ووصفك اياهم وانما هذا تصنيف الوراقين وكذب المؤلفين . فقال له أبو العيناء فلم لا يكذب الوراقون عليك أيها الوزير ؟ فسكت الوزير [2] . نعتقد ان النص السابق رغم كونه ينتقص من شأن الوراقين الا أنه في نفس الوقت دفاع عنهم وعن سمعتهم .

ولقد كانت دكاكين الوراقين مكاناً لالتقاء الادباء والعلماء والفضلاء ومنتدى يتذاكرون فيه الحوادث ويتناشدون الاشعار ويتجادلون ويتساجلون ويبحثون آخر الأنباء والأخبار الادبية . فأبو الفرج الاصفهاني مؤلف كتاب

---

(١) **نفس المصدر** . ص ٢٠٣ .
(٢) ابن خلكان . **المصدر المذكور آنفاً** . ج ٣ . ص ٤٦٦ .

الاغاني الشهير اعتاد التردد على سوق الوراقين في بغداد والجلوس عند وراق بعينه كما أن الشاعر أبا الحسين علي بن يوسف بن البقال اعتاد الجلوس عند أبي الفتح بن الجزار الوراق في نفس السوق وقد صدف ان سمع أبو الفرج الشاعر أبا الحسين علي بن يوسف ينشد أبيات ابراهيم ابن العباس الصولي التي يقول فيها

رأى خلتي من حيث يخفى مكانها فكانت قذى عينيه حتى تجلت

فلما بلغ اليه استحسنه وكرره ورآه أبو الفرج فقال لي (أي لأبي نصر الزجاج راوي الحديث) قم اليه فقل له قد أسرفت في استحسان هذا البيت وهو كذلك فأين موضع الصنعة فيه ؟ فقلت له ذلك فقال : قوله « قذى عينيه » فعدت اليه وعرفته ، فقال عد اليه فقل له : أخطأت . الصنعة في قوله « من حيث يخفي مكانها » ويعلق ياقوت راوي الخبر على ذلك فيقول : قال عبيد الله الفقير اليه مؤلف هذا الكتاب وقد أصاب كل واحد منهما حافة من الغرض فان الموضعين معاً غاية في الحسن وان كان ما ذهب اليه أبو الفرج أحسن [1] .

وطبعاً لم تكن أمثال هذه المناظرات والمساجلات قليلة بحال من الاحوال .

ويذكر ابن خلكان سمساراً للكتب في القاهرة في القرن السابع الهجري كانت داره ندوة أدبية ذلك هو أبو الفتوح ناصر بن أبي الحسن علي بن خلف الانصاري المعروف بابن صورة ويصفه بأنه كان سمساراً في الكتب في مصر وله في ذلك حظ كبير وكان يجلس في دهليز داره لذلك ويجتمع عنده في يوم الاحد والاربعاء أعيان الرؤساء والفضلاء ويعرض عليهم الكتب التي تباع ولا يزالون عنده إلى وقت انقضاء السوق [2] . وتوفي ابن صورة هذا سنة ٦٠٧ هـ .

هذا وقد حفل هذا العصر والعصور التي تلته بمئات العلماء والبحاثة الذين عشقوا الكتب وأحبوها حباً ملك عليهم البابهم ومشاعرهم وأنساهم ملذات الدنيا بل وحتى الأهل والولد . واذا ذكرنا عشاق الكتب وجب أن نذكر

---

(١) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . حـ ٥ . ص ١١٢ ـ ١١٣ .
(٢) ابن خلكان . **المصدر المذكور آنفا** . حـ ١ . ص ١٧٧ .

على رأس القائمة الجاحظ الذي توفي في أواسط القرن الثالث للهجرة فقد روى صاحب الفهرست ان الجاحظ لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائناً ما كان حتى أنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر [1] .

وقد ذكرنا وصفه للكتاب وما قاله به وما تغزل بمحاسنه واطرى فوائده . وقد ابى بعض متأخري المؤرخين الا ان يجعلوا موته بسبب الكتب وهو الذي عاش حياته بينها ومن أجلها ، ذلك ان المحب الحقيقي يعيش مع محبوبه ومن أجله ويموت بيده أو بسببه فقد ذكر أبو الفداء في تاريخه في حوادث سنة ٢٥٥ هـ ان الجاحظ مات بسبب وقوع مجلدات عليه وكان من عادته أن يضعها حوله كالجدار محيطة به وهو جالس بينها وكان عليلاً ومسناً فسقطت عليه فقتلته[2] .

كذلك يجب أن نذكر الفتح بن خاقان نديم المتوكل ذلك أنه كان يحضر لمجالسة المتوكل فاذا أراد القيام لحاجة اخرج كتابا من كمه أو خفه وقرأه في مجلس المتوكل اليه حتى في الخلاء ، وقد قتل الفتح بن خاقان مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ .

أما الشخص الثالث الذي يذكره ابن النديم فهو القاضي اسماعيل بن اسحق فيقول عنه نقلاً عن أبي هفان إنه لم يدخل عليه الا رآه ينظر في كتاب أو يقلب كتباً أو ينفضها [3] .

ولقد وجدت في هذا العصر أغلب أنواع المكتبات في الاسلام ففيه وجدت المكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع ، وفيه وجدت المكتبات الخلافية والمكتبات الخاصة والمكتبات العامة ومكتبات الاوقاف ومكتبات البحث والدرس أي ما اسميناه بالمكتبات الاكادمية ، ومكتبات المشافي وغيرها من أنواع المكتبات الاخرى وهذا ما سيكون موضوع حديثنا في الفصول القادمة ان شاء الله تعالى .

---

(١) ابن النديم · **المصدر المذكور آنفا** · ص ١٦٩ ·

(٢) أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل · **المختصر في أخبار البشر** · القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥ هـ · جـ ٤ · جـ ٢ · ص ٤٧ ·

(٣) ابن النديم · **المصدر المذكور آنفا** · ص ١٦٩ ·

الفصل الرابع

انواع المكتبات الإسلامية

سبق أن قلنا ان المكتبات في الاسلام نتاج لحضارة الاسلام وانعكاس لها وهي نفسها ، في ذات الوقت ، ساهمت مساهمة جلى في توسيع نطاق هذه الحضارة وتغذيتها وترقيتها ، ولذلك عندما أتسع افق المسلمين العقلي وازدهى تقدمهم الحضاري وتنوعت اهتماماتهم ، زاد بنفس النسبة عدد المكتبات وتنوعت أغراضها حتى شملت جميع الاغراض التي تؤسس المكتبات من أجلها ، لذلك نجد في دنيا الاسلام جميع أنواع المكتبات : المكتبات العامة المفتحة للجمهور على اختلاف أنواعه وأجناسه وثقافاته ، والمكتبات الخاصة التي يمتلكها أفراد معينون لخدمة أغراضهم الشخصية ، والمكتبات الملحقة بالمساجد والجوامع والربط والخانقاة ومكتبات الدولة التي ينشئها الخليفة أو الأمير أو حاكم الولاية، والمكتبات المخصصة للدراسات العليا، والمكتبات التابعة للمدارس والجامعات على اختلاف أنواعها ، والمكتبات الموجودة في المشافي والمارستانات وما شابه .

مكتبات المساجد والجوامع

لعل هذا النوع من المكتبات ، مع المكتبات الخاصة ، أول المكتبات نشوءاً في الاسلام ولا ندري بالضبط متى انشئت مكتبات المساجد ، ولكن يبدو ان العادة جرت من أقدم عصور الاسلام ان يودع الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وغيره من الكتب الدينية والنافعة كوقف لفائدة المطالعين والمصلين . ومن الواضح أن مكتبة المسجد ظهرت للوجود منذ اتخذ المسلمون المسجد مكاناً للدراسة ، ذلك لأنه لا دراسة بدون كتب ، وإذا

علمنا أن الدراسة على مختلف مراحلها وبأغلب فروعها كانت تتم في المسجد والجامع ، وذلك حتى زمن قريب من عهدنا الحاضر أمكننا أن ندرك أهمية المكتبة الملحقة بالمساجد ، وان أغلب المساجد وخاصة الهامة منها كانت ولا تزال تمتلك مكتبة خاصة ، وهذه المكتبة لا تحتوي كتباً دينية فقط وانما بالاضافة اليها كتباً فلسفية وعلمية [١] . وقد كانت تدرس في المساجد جميع أنواع العلوم باستثناء الطب [٢] . وقد ازدهرت بعض المساجد المهمة وأصبحت مركزاً عقلياً من أكبر مراكز التعليم والتدريس جذب اليه الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وكانت تعقد الحلقات في المساجد للدراسة والمناظرة كما كان يحدث في جامع بني أمية في دمشق وفي جوامع مكة والمدينة وفي الجامع الازهر في القاهرة وفي جامع المنصور في بغداد وفي جوامع قرطبة وطليطلة . ولقد كان للحلقات التي تعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها وجذبت اليها الطلاب المسلمين والنصارى على السواء حتى لقد كان يقصدها طلاب نصارى من جميع أنحاء اوربا بما فيها انجلترا واسكوتلاندا [٣] . وقد احتفظت طليطلة بمكانتها هذه بعد سقوطها بيد الاسبان سنة ١٠٨٥ م حيث وجد فيها هؤلاء مكتبة غنية عامرة حافلة بالكتب في أحد مساجدها ، وقد بلغت شهرة هذه المكتبة من حيث هي مركز للثقافة أقصى البلاد النصرانية في الشمال [٤] . وقد كانت هناك مجموعات ضخمة مهمة من الكتب في أغلب فروع المعرفة في كل من الحرم المكي والحرم المدني حيث غذاها كبراء المسلمين وسراتهم بالكتب مدى العصور . وكلنا يعرف الجامع الازهر أقدم جامعة في العالم لا تزال في الوجود ، يحتوي هذا الجامع — ولا يزال — مكتبة حوت ما لذ وطاب

---

(١) آرنولد ، سير توماس . (محرر) . **تراث الاسلام** (بالانجليزية) . اكسفورد ، مطبعة كليرن ، ١٩٣١ م . ص ٣٣٦ .

(٢) **نفس المصدر** .

(٣) **نفس المصدر** .

(٤) دي بور ، ت . ج . **تاريخ الفلسفة في الاسلام** . الطبعة الرابعة . تعريب محمد عبد الهادي ابو ريدة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ م . ص ٤١٧ .

من ثمرات العقول . والشيء نفسه صحيح بالنسبة لجامع الزيتونة في تونس .
ويبدو لنا ، أنه كان يوجد في بعض الجوامع الكبرى أكثر من خزانة واحدة للكتب ، فقد ذكر ياقوت أنه كان يوجد في أيامه في مدينة مرو الشاهنجان خزانتان في الجامع (وهو يقصد بالطبع المسجد الجامع في البلدة) احداهما يقال لها العزيزية وقفها رجل يقال له عزيز الدين أبو بكر عتيق الزنجاني أو عتيق ابن أبي بكر وكان فقاعياً للسلطان سنجر وكان في أول أمره يبيع الفاكهة والريحان بسوق مرو ثم صار شرابياً له وكان ذا مكانة منه وكان فيها اثنا عشر ألف مجلد ، والاخرى يقال لها الكمالية ولا أدري إلى من تنسب [1] .
وعندما يتكلم ياقوت نفسه عن زيد بن الحسن الكندي البغدادي يذكر أنه كانت له خزانة كتب جليلة في جامع بني امية [2] ، وقد توفي زيد هذا سنة ٥٩٧ هـ . ويبدو أن بعض العلماء اعتاد أن يوصي بكتبه كوقف في مسجد بلدته أو حيه فتفرد تلك الكتب في خزانة خاصة في المسجد وتسمى باسمه ، كما فعل علي بن طاهر السلمي الذي كان ثقة وكانت له حلقة في الجامع وقف عليها خزانة فيها كتبه[3] . ونحن نعلم ان الملوك والخلفاء والامراء والأغنياء والعلماء وحتى متوسطي الحال اعتادوا أن يوقفوا أشياء كثيرة على المساجد ابتغاء الاجر في اليوم الآخر ومن جملة هذه الأشياء الكتب ويرد اسم الكتب بين الأشياء التي يوقفها الناس على المساجد ، فقد أنزل الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي إلى جامع ابن طولون ٨١٤ مصحفاً [4] . وكذلك ترك في وصيته عدداً من الكتب للجامع الازهر [5] . ولما جدد بناء جامع الحاكم بأمر الله سنة ٧٠٣ هـ انتدب لعمارته الامير ركن الدين ... الذي أنهى العمل وعمل به خزانة

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم البلدان** . القاهرة ، مطبعة السعادة ١٩٠٦م . جـ٨ ص ٣٥ .

(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١١ . ص ١٧٤ .

(٣) **نفس المصدر** . ج ١٣ . ص ٢٥٨ .

(٤) المقريزي **الخطط المقريزية** . ج ٣ . ص ٢٢١ .

(٥) **نفس المصدر** . ج ٣ . ص ٢٣٠ .

كتب جليلة [1] . وقد استجد الخليفة المستنصر بالله العباسي في أوائل القرن السابع الهجري بناء مسجد يعرف بالقمرية بالجانب الغربي من بغداد على شاطىء دجلة المقابل للرباط البسطامي ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك ... وجعل في المسجد خزانة للكتب وحمل اليها كتب كثيرة [2] . وقد كان لأغلب هذه الخزائن ولا سيما الكبيرة منها قوام ومشرفون على شؤونها ، وهم ، في الاعم الاغلب ، من العلماء المشهود لهم بالفضل والصلاح والكفاية والعدل ، فقد ولى المستنصر بالله العباسي عبد العزيز بن دلف أمر خزانة الكتب في مدرسته المستنصرية وكان قبلاً خازناً لخزانة الكتب بمسجد الشريف الزيدي [3] . وقد كانت هذه المكتبات ، ولا تزال ، عرضة للسلب والنهب والحريق مما كان يودي بقسم كبير من محتوياتها ، ولكن قيض الله تعالى لها دائماً من يقيلها من عثرتها ويعوض عليها قسماً مما فاتها ، فقد أورد ابن العديم في كتابه **الانصاف والتحري** خبراً مفاده أن خزانة كتب الشرفية التي بجامع حلب نهبت في فتنة في بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشيعة وكان ذلك في زمن أبي العلاء ولم يبق في خزانة الكتب الا القليل ، وجدد الكتب فيها فيما بعد الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخرى بها [4] .

وقد وجدت مكتبات وخزائن في الربط والترب والخانقاه فيذكر ابن خلكان أثناء حديثه عن البهاء أسعد بن يحيى الشاعر أنه لم يقف له على ديوان ولم يدر هل دون شعره أم لا ثم وجد له في خزانة كتب التربة الاشرفية

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٣ . ص ٢٣٧ .

(٢) ابن الفوطي ، أبو الفضل عبد الرزاق . **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة** . تحقيق مصطفى جواد . بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٢ م . ص ٤ .

(٣) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٩ م . ص ٢٧٦ .

(٤) أبو العلاء المعري . **تعريف القدماء بأبي العلاء** . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٤ م. ص ٥٥٦ . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م .

بدمشق ديواناً في مجلد كبير [1] . كذلك يذكر ياقوت المكتبة الضميرية في خانقاه في مروبين المكتبات التي شاهدها هناك [2] .

المكتبات الخاصة :

انتشر هذا النوع من المكتبات في جميع أنحاء العالم الاسلامي وحرص الكبراء والوزراء والعظماء والأغنياء على اقتناء مجموعات ضخمة فخمة منها ، وهذه المكتبات ، وان كنا نسميها خاصة لأنها تخص أفراداً معينين انشأوها لفائدتهم ومصلحتهم ، وفي غالب الاحيان من أموالهم الخاصة ، الا انها في الغالب كانت نصف عامة ان جاز التعبير ، فبعضهم يبيحها للناس جميعاً كما فعل ابن المنجم ، وبعضهم يفتحها لأصدقائه او العلماء والبحاثة ومن يثق بهم ، والبعض الآخر حرم استعمالها الا على نفسه وحاشيته ؛ ويعتبر هذا النوع من المكتبات مع مكتبات المساجد ، أول أنواع المكتبات في الاسلام ظهوراً ، فقد رأينا كيف أسس خالد بن يزيد بن معاوية مكتبة — وهي خليط من مكتبات البحث والمكتبات الخاصة . وقد ذاع بين الناس جمع الكتب واقتناؤه وحبها والعناية بها ولا سيما بعد انتشار استعمال الورق ورخص ثمنه وهبوط أثمان الكتب نتيجة لرخص المواد التي يصنع منها ولرخص أجور النسخ والتجليد .

ولقد مر معنا سابقاً ذكر بعض محبي الكتب وهواة جمعها كالجاحظ والفتح بن خاقان الذي كان لا يفارق الكتاب يده ويقول عنه صاحب الفهرست إنه ... كان له خزانة جمعها علي بن يحيي المنجم له لم ير أعظم منها كثرة وحسناً وكان يحضر داره فصحاء الاعراب وعلماء الكوفين والبصريين [3] .

وبمناسبة ذكر علي بن يحيي المنجم نذكر أن هذا الشخص من محبي الكتب .

---

(١) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . ج ١ . ص ١٩٣ .
(٢) ياقوت الحموي . **معجم البلدان** . ج ٨ . ص ٣٦ .
(٣) ابن النديم . **المصدر المذكور آنفا** . ص ١٦٩ .

وعشاقها الأصائل وكان مهتماً بكتب الحكمة (الفلسفة اليونانية خاصة)
ثم اتصل بالفتح بن خاقان نديم المتوكل وعمل له خزانة حكمة ونقل اليها من
كتبه ومما استكتبه الفتح بن خاقان أكثر مما اشتملت عليه خزانة حكمة قط .
ولعلي هذا تصانيف ، وقد أسس بكركر من نواحي قفص قرب بغداد ،
حيث كان يمتلك ضيعة نفيسة وقصراً جليلاً ، خزانة كتب عظيمة يسميها
خزانة الحكمة ويقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون فيها صنوف
العلم ، والكتب مبذولة في ذلك لهم والضيافة مشتملة عليهم ، والنفقة في ذلك
من مال علي بن يحيي فقدم أبو معشر المنجم من خراسان يريد الحج وهو اذ ذاك
لا يحسن كبير شيء من النجوم فوصفت له الخزانة فمضى فرآها فهاله أمرها
فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها علم النجوم وأعرق فيه حتى ألحد ،
وكان ذلك آخر عهده بالحج والدين والاسلام أيضاً [1] .

وممن جمع خزانة كتب قيمة واشتهر بها واهتم بها كل الاهتمام الكندي
الفيلسوف ذلك ان فيلسوف العرب اهتم بجمع كتب الحكمة والفلسفة اليونانية
وعلوم الأوائل فأثار بعمله هذا حسد اخوة ثلاثة عرفوا بالتاريخ باسم أبناء
شاكر وأبناء موسى لأنهم محمد واحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر .
وقد مر معنا ذكرهم وهم قد عاصروا المأمون ومن أتى بعده من الخلفاء
حتى عهد المتوكل . وقد كان الاخوان محمد واحمد متقدمين زمن المتوكل
ويكيدان كل من ذكر بالتقدم في معرفة ، فاشخصا سند بن علي إلى مدينة
السلام وباعداه عن المتوكل ودبرا علي الكندي حتى ضربه المتوكل ووجههما
إلى داره فأخذا كتبه بأسرها وافرداها في خزانة سميت الكندية ومكن هذا لهما
استهتار المتوكل بالآلات المتحركة وتقدم اليهما في حفر النهر المعروف
بالجعفري ... وقد غلطا في حفره وغضب المتوكل عليهما ووكل أمرهما إلى
سند ... فتوسلا اليه أن يذكرهما بخير عند المتوكل ... فقال لهما والله انكما
لتعلمان ما بيني وبين الكندي من العداوة والمباعدة ولكن الحق أولى أن يتبع ،

(١) ياقوت الحموي . معجم الادباء . ج ١٥ . ص ١٥٧ .

ه اليه من أخذ كتبه ؟ والله لاذكرتكما بصالحة حتى محمد بن موسى في حمل الكتب اليه وأخذ حظه ادي بتسلمها عن آخرها [1] .

بن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعة التي زهت ـ المؤرخ الشهير ابن مسكويه ، ذلك ان ابن العميد لم يكن عالماً وبحاثة ممتازاً وذا ذكاء وقاد فقط ، وانما أضاف إلى هذا حباً شديداً للكتب ، فقد جمع مكتبة حوت كل علم وكل نوع من أنواع المعارف والآداب يحمل على مائة وقر [2] . وقد ظل طوال حياته يتعهدها بعنايته ويغذيها بعلمه وأدبه وبالكتب التي يشتريها أو يأمر باستنساخها ، وكان ضنيناً بكتبه حريصاً عليها تعدل عنده جميع المال ، بل ويفضلها على المال ، يدل على ذلك القصة التالية التي يوردها ابن مسكويه نفسه في تاريخه عن ابن العميد ومدى محبته لكتبه ولمكتبته ذلك ان الخراسانية (جند آل سامان) اغاروا على الرى مدينة ابن العميد ومقره فيصف الحادث ابن مسكويه بقوله « ... ورجع الخراسانية إلى معسكرهم ... فلما أصبحوا باكروا الحرب ودخلوا المدينة من ناحية اجران وفيها دار الاستاذ الرئيس (لقب ابن العميد الرسمي) .. فحاربهم فكسرهم .. ثم كثروا عليه ولم يول منهم ... وحامى عنه الاتراك الذين معه ... وأنكسر الاستاذ الرئيس ... ومعه السلار فرجعا إلى دار الامارة واشتغل الخراسانية بنهب داره واصطبلاته وخزائنه وكانت موفورة جامعة إلى أن أتى الليل وانصرفوا وكان اليّ خزانة كتبه فسلمت من بين خزائنه ولم يتعرض لها . فلما انصرف إلى منزله ليلاً لم يجد فيه ما يجلس عليه ولا كوزاً واحداً يشرب فيه ماءً فانفذ اليه ابن حمزة العلوي فرشاً وآلة . واشتغل قلبه بدفاتره ولم يكن شيء أعز عليه منها وكانت كثيرة فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم

---

(١) ابن أبي أصيبعة . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ١٨٠ .

(٢) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** . القاهرة ، مطبعة خلف ، ١٩٥٨ م . ج ٤ . ج ٢ . ص ٢٢٦ .

والاداب يحمل على مائة وقر وزيادة فلما رآني سألني عنها فقلت هي بحالها لم تمسها يد ، فسري عنه وقال أشهد انك ميمون النقيبة ، أما سائر الخزائن فيوجد عنها عوض وهذه الخزانة هي التي لا عوض عنها ، ورأيته قد أسفر وجهه وقال باكر بها في غد إلى الموضع الفلاني ففعلت وسلمت بأجمعها من بين جميع ماله [١] .

وأما تلميذه اسماعيل بن عباد المعروف باسم الصاحب ابن عباد لأنه كان يرافق ابن العميد ويصاحبه فقد كان أشد حباً للكتب من استاذه وأكثر جمعاً لها . وهو أول من لقب من الوزراء بالصاحب ، وكان محباً للآداب والعلوم واختص بعدد من الادباء والاطباء اختصوا بخدمته نجد منهم جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع الذي كان منقطعاً اليه وقد سأله الصاحب أن يعمل له كناشاً يختص بذكر الامراض التي تعرض من الرأس إلى القدم ولا يخلط بها غيرها فعمل اليه فحسن موقعه عنده ووصله بشيء قيمته الف دينار . وكان دائماً يقول « صنفت مائتي ورقة أخذت عنها الف دينار [٢] » ، ويذكر ابن أبي اصيبعة راوي هذا الخبر في مكان اخر ان جبرائيل سمى كناشه هذا الكافي بلقب الصاحب [٣] . كذلك ألف احمد بن فارس اللغوي كتابا سماه الصاحبي صنفه لخزانة الصاحب [٤] . ولا ندري بالضبط كم كان عدد كتب مكتبته ولكننا نعلم أن تلك المكتبة حوت حموله أربعمائة جمل من كتب العلم خاصة ، ذلك ان صاحب خراسان الملك نوح بن منصور الساماني قد أرسل إلى الصاحب بن عباد في السر يستدعيه إلى حضرته ويرغبه في خدمته وبذل البذول السنية فكان من جملة اعتذاره ان قال « كيف يحسن لي

---

(١) ابن مسكويه ، ابو علي أحمد بن محمد . **تجارب الامم وتعاقب الهمم** . القاهرة ، شركة التمدن الصناعية ، ١٩١٥ ج ٦ . ج ٦ . ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

(٢) ابن أبي اصيبعة . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٧٤ — ٧٥ .

(٣) **نفس المصدر** . ج ٢ . ص ٧٧ .

(٤) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٤ . ص ٨٤ .

مفارقه قوم بهم ارتفع قدري وشاع بين الانام ذكري ثم كيف لي بحمل أموالي مع كثرة اثقالي وعندي من كتب العلم خاصة ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر [1] » . ورغم أننا لا يمكن أن نأخذ هذا الرقم محمل الجد الا انه يعطينا فكرة عن محتويات هذه المكتبة . ويروى عن الصاحب أيضاً أنه كان يستصحب حمل ثلاثين جملاً من كتب الادب ليطالعها أثناء سفره وتنقلاته فلما وصل اليه كتاب **الاغاني** لم يكن بعد ذلك يستصحب سواه استغناءً به عنها [2] . وهناك نص آخر يمكننا من خلاله معرفة عدد كتب مكتبة الصاحب ذلك ان الصاحب بلغه ان سيف الدولة الحمداني أرسل ألف دينار إلى أبي الفرج الاصفهاني مكافأة له على أهدائه كتاب الاغاني فقال لقد قصر سيف الدولة وانه يستأهل اضعافها ووصف الكتاب فاطنب ثم قال « ولقد اشتملت خزانتي على مائتين وستة الاف مجلد ما منها ما هو سميري غيره ولا راقني منها سواه [3] . ومهما يكن من شأن فقد كانت مكتبة فخمة ضخمة بحق في عدد كتبها وفي المواضيع التي تحويها ، ونحن نعلم بعض المواضيع التي كانت تحويها من نص أورده ياقوت الحموي نقلاً عن أبي حيان التوحيدي ، ذلك ان أبا حيان ، الذي كان منصرفاً إلى الصاحب ثم انصرف عنه ، سلق الصاحب بلسانه السليط وتناوله بأسلوبه المتهكم تناولاً مقذعاً ولم يترك نقيصة الا الصقها فيه . يقول ابو حيان « فلم أر بعد ذلك الا الخير حتى عراه (أي الصاحب) نوك آخر فوضعني في الحبس سنة وجمع كتبي وأحرقها بالنار وفيها كتب الفراء والكسائي ومصاحف القرآن وأصول كثيرة في الفقه والكلام فلم يميزها من كتب الأوائل وأمر بطرح النار فيها من غير تثبت بل لفرط جهله وشدة نزقه فهلا طرح النار في خزانته وفيها كتب ابن الراوندي وكلام ابن أبي العرجاء في معارضته القرآن بزعمه ، وصالح بن عبد القدوس أبي سعيد

---

(١) نفس **المصدر** . ج ٦ . ص ٢٨٥ .

(٢) ابن خلكان . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٤٦٨ .

(٣) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ١٣ . ص ٩٧ .

الحصيري ، وكتب ارسطوطاليس وغير ذلك ، ولكن من شاء حمق نفسه [1] ».
ولما مات الصاحب وقف مكتبته على مدينة الري مدينته ، وقد صدف بعد فترة ان ورد السلطان محمود إلى مدينة الري بعد وفاة الصاحب فقيل له ان هذه الكتب كتب الروافض واهل البدع فاستخرج منها كل ما كان في علم الكلام وأمر بحرقه [2] ومع ذلك فقد ظلت المكتبة فخمة ضخمة ذلك ان ابا الحسن البيهقي زارها بعيد ذلك ، وهو يسميها بيت الكتب الذي بالري ، فوجد أن فهرست تلك الكتب عشر مجلدات [3] . ويقول ول ديورانت في **قصة الحضارة** « وكان عند بعض الامراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما في دور الكتب الاوربية مجتمعة [4] .

ومما يحكى عن الواقدي المؤرخ المشهور ومؤلف كتاب **المغازي** انه قال ما من أحد الا وكتبه أكثر من حفظه، وحفظي أكثر من كتبي ومع ذلك فان عدد كتبه هائل جداً ، فقد قال يعقوب بن شيبة « لما تحول الواقدي من الجانب الغربي (من بغداد) يقال انه حمل كتبه على عشرين ومائة وقر وقيل كان له ستمائة قمطر كتب [5] . وتوفي الواقدي سنة ٢٠٧ هـ .

وقد أسس جعفر بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بابن حمدان في بلده الموصل مكتبة يسميها ياقوت دار علم وقد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفاً على كل طالب علم لا يمنع أحد من دخولها، اذا جاءها غريب يطلب الادب وان كان معسراً أعطاه ورقاً وَوَرِقاً تفتح في كل يوم ويجلس فيها اذا عاد من ركوبه ويجتمع اليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره ومصنفاته مثل **الباهر** وغيره من مصنفاته الحسان ، ثم يملي من حفظه من الحكايات المستطابة وشيئاً من النوادر المؤلفة وطرفاً من الفقه وما

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٦ . ص ٢١٦ ــ ٢١٧ .
(٢) **نفس المصدر** . ج ٦ . ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .
(٣) **نفس المصدر** . ج ٦ . ص ٢٥٨ ــ ٢٥٩ .
(٤) ديورانت ، ول . **قصة الحضارة** . ج ١٣ . ص ١٧٠ .
(٥) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ١٨ . ص ٢٨١ .

يتعلق به [1] . وهذا مثل آخر على مكتبة خاصة فتحت أبوابها لجميع الناس فهي خاصة ـ عامة .

وخرج الاصمعي في سفر مع الرشيد إلى احدى المدن فلقي اسحق الموصلي هناك فسأله هل حمل معه شيئاً من كتبه ؟ فقال له حملت ما خف . فقال له : كم مقداره ؟ فقال ثمانية عشر صندوقاً . يقول الاصمعي فعجبت وقلت : اذا كان هذا ما خف فكم يكون ما ثقل ؟ فقال اضعاف ذلك [2] . وروي عن أحد علماء اصبهان الاغنياء انه أنفق في شراء كتبه ٣٠٠ ألف درهم [3] . ولما أراد البرقاني العالم البغدادي المتوفى سنة ٤٢٥ هـ أن ينتقل احتاج إلى ستين من الاعدال وإلى صندوقين ليحمل فيها كتبه عند انتقاله [4] . وفي سنة ٣٥٧ هـ صودر حبشي بن معز الدولة لأنه حاول عصيان أخيه أمير بغداد فصودر وكان من جملة ما أخذ منه خمسة عشر ألف مجلد سوى الاجزاء وما ليس بمجلد [5] .

وقد استمر حب الكتب والاهتمام بجمع الكتب وايجاد المكتبات الخاصة والعامة واستعمالها والتباهي بها مستمراً حتى أواخر الدولة العباسية بل وما بعدها . فقد انشأ الوزير مؤيد الدين العلقمي وزير المستعصم آخر الخلفاء العباسيين سنة ٦٤٤ هـ دار كتب اشتملت على عشرة الآلاف مجلد من نفائس الكتب وذلك في داره فقال أحد الشعراء مادحاً الوزير من أجل ذلك (وهو العدل موفق الدين القاسم بن أبي الحديد) :

رأيت الخزانـة قـد زينت ... بكتب لهـا المنظر الهائـل
عقول الشيوخ فيهـا الفـت ... ومحصولـه ذاك والحاصـل

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٧ . ص ١٩٣ .
(٢) **نفس المصدر** . ج ٦ . ص ٨ .
(٣) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** . ج ٢ . ص ٢٢٢ .
(٤) ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** . ج ١ . ص ٢٤٧ .
(٥) ابن الاثير ، أبو الحسن عزالدين علي . **الكامل في التاريخ** . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٣ هـ . ج ٧ . ص ٢٦ ـ ٢٧ .

ولما مثلت بها قائماً | وأعجبني الفضل والفاضل
تمثلت أسماءها منكم | على النقل ما كذب الناقل
بها **مجمع البحر** لكنه | من الجود ليس له ساحل
ومنها **التهذيب** من فضلكم | **ومغن** ولكنه نائل
ومنها **الوسيط** بمآثر | شجية وفيها **النهاية والكامل**
وان كان أعوزها **شامل** | فقد زانها جودك الشامل
وان كان قد فاتها فائت | أبو الفضل في علمه كامل [١]

بل ان ابن الفوطي نفسه راوي هذه القصة والذي أصبح فيما بعد خازناً ومشرفاً على مكتبة لمدرسة المستنصرية ومكتبة الرصد في مراغة الف لنفسه مكتبة خاصة تعتبر من المكتبات الثمينة في تلك الأيام ، وكان منزله ومكتبته ملتقى طلاب العلم من أهل بغداد وغيرهم [٢] .

لا نستطيع استقصاء أخبار أغلب من حوى مكتبة خاصة ذات أهمية لأن ذلك يفوق الحصر وليس له كبير أهمية ، واذا انتقلنا غرباً إلى سورية ومصر نجد أيضاً اهتماماً زائداً بالمكتبات الخاصة ، ولكن ليس على نفس المقياس . يصف مؤلف فوات الوفيات الوزير جمال الدين القفطي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ والذي كان وزيراً في حلب بأنه كان صدراً محتشماً كامل السؤدد جمع من الكتب ما لا يوصف وقصد بها من الآفاق وكان لا يحب من الدنيا سواها ، ولم يكن له دار ولا زوجة وأوصى بكتبه للناصر صاحب حلب وكانت تساوي خمسين الف دينار وله حكايات غريبة في غرامه بالكتب [٣] . كذلك كان للصاحب أمين الدولة وزير الملك الصالح اسماعيل الايوبي في دمشق

---

(١) ابن الفوطي . **الحوادث الجامعة** ... ص ٢٠٨ .
(٢) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . ص ٣٠٠ .
(٣) الكتبي ، محمد بن شاكر بن أحمد . **فوات الوفيات** ... تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد . القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م . جـ ٢ . ص ١٩٣ .

المتوفى سنة ٦٣٨ هـ نفس فاضلة وهمة عالية في جمع الكتب وتحصيلها ، واقتنى كتباً كثيرة فاخرة في سائر العلوم وكان النساخ أبداً يكتبون له حتى أنه أراد مرة نسخة من تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر وهو بالخط الدقيق ثمانون مجلداً فقال : هذا الكتاب الزمن يقصر أن يكتبه ناسخ واحد ففرقه على عشرة نساخ كل واحد منهم ثمانية مجلدات فكتبوه في نحو سنتين وصار الكتاب بكماله عنده وهذا من علو همته [1]

كذلك وجد في مصر مكتبات خاصة جمعها بعض الوزراء والاطباء والافراد ، فقد أوجد يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله الفاطمي خزانة لنفسه وكان محباً للعلوم يجمع حوله العلماء والادباء ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون الحديث والفقه والأدب وحتى الطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها [2] .

وقد كان للأمير مبشر بن فاتك همة عالية في تحصيل العلوم وتحصيل الكتب وكان محباً للعلم وأهله وكانت له خزانة كتب فكان في أكثر أوقاته اذا نزل من الركوب لا يفارقها وليس له دأب الا المطالعة والكتابة ، ويرى ان ذلك أهم ما عنده وكانت عنده زوجة كبيرة القدر أيضاً من أرباب الدولة ، فلما توفي رحمه الله نهضت هي وجواريها إلى خزانة كتبه وفي قلبها من الكتب وأنه كان يشتغل بها عنها فجعلت تندبه وفي أثناء ذلك ترمي الكتب في بركة ماء كبيرة في وسط الدار هي وجواريها ثم رفعت الكتب بعد ذلك من الماء وقد غرق أكثرها . نهذا سبب ان كتب المبشر بن فاتك يوجد كثير منها وهو بهذه الحال [3] .

وقد اشتهر الاطباء خاصة في مصر وسورية بحب الكتب وجمعها . فقد ذكر ابن أبي اصيبعة عدداً من الاطباء الذين أولعوا بالكتب وجمعها ، ولعل

(١) ابن أبي أصيبعة . **طبقات الاطباء** . ج ٣ . ص ٣٨٦
(٢) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** ... ج ١ . ص ٢٨ .
(٣) ابن أبي أصيبعة . **طبقات الاطباء** . ج ٣ . ص ١٦٣ .

من أهمهم موفق الدين بن المطران وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب حتى أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية ما يناهز عشرة الاف مجلد خارجاً عما استنسخه ، وكانت له عناية بالغة في استنساخ الكتب وتحريرها ، وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له ابداً ولهم منه الجامكية والجراية وكان من جملتهم جمال الدين المعروف بابن الجمالة وكان خطه منسوباً [1]. وابن المطران هذا كان من أطباء دمشق ومعاصراً لصلاح الدين وتوفي في زمانه.

ويذكر ياقوت الحموي أنه لقي في القاهرة عضد الدين أبا الفوارس مرهف بن اسامة بن مرشد .. بن منقذ من امراء شيزر في سورية وقد تحدث اليه ووصفه بأنه شيخ ظريف واسع الخلق شائع الكرم جماعة للكتب ، ويقول : وحضرت داره واشترى مني كتباً وحدثني ان عنده من الكتب ما لا يعلم مقداره ، الا انه ذكر لي أنه باع منها أربعة الآف مجلد في نكبة لحقته فلم يؤثر فيها [2].

أما الاندلس فقد تغالى القوم في اقتناء الكتب وفي تجليدها وزخرفتها وبلغت المكتبات في تلك البقعة الاسلامية درجة عالية جداً من التقدم وذلك نتيجة طبيعية للحضارة التي أوجدها الاسلام هناك . والواقع ان حضارة الاسلام في اسبانيا نافست حضارة الاسلام في المشرق وبلغ من عظمة قرطبة وازدهارها وخاصة ابان العهد الاموي في الاندلس انها كانت أعظم مدينة في اوربا كلها وتأتي على قدم المساواة مع القسطنطينية وبغداد ابان عزهما ، وناهيك ببلدة بلغ عدد مساجدها ١٦٠٠ مسجد وحماماتها ٦٠٠ وفيها مائتا الف دار وثمانون الف قصر ، منها قصر دمشق شيده بنو امية حاكوا به قصورهم في بلاد الشام ، وقد بلغ عدد أرباض قرطبة (ضواحيها) تسعة ارباض كل ربض كالمدينة الكبيرة ، ودور قرطبة ثلاثون الف ذراع وفي ضواحيها ثلاثة الاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه ، وقد قدر بعض المؤرخين

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٣ . ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣ .

(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٥ . ص ٢٤٣ .

عدد سكان قرطبة في أيام مجدها وعزها بمليوني نسمة ، وكان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي [١] . هذا في ضاحية من ضواحيها فكيف ببقية الضواحي ؛ وقد كانت شوارعها مبلطة وترفع قماماتها وتنار شوارعها ليلاً بالمصابيح ويستضيء الناس بسروجها ثلاثة فراسخ لا ينقطع عنهم الضوء ؛ وهذا شيء لم يحدث في اوربا الا في أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر . وطبعاً لم تكن قرطبة وحدها بهذا الرقي الحضاري وانما هي نموذج لما كانت عليه بقية المدن الاندلسية، لذلك لا غرابة ان انتشرت المكتبات في جميع أنحاء البلاد وكثر عشاقها وكثر التأليف والمؤلفون ولا سيما انه وجد حكام شجعوا العلم وهم أنفسهم كانوا مثلاً عالياً في حب الكتب وجمعها والاهتمام بها كالحكم الثاني وغيره .

ويبدو ان دخول الورق إلى الاندلس قد تأخر بعض الوقت ، او ان العادة في كتابة المصاحف على الرقوق ظلت سائدة رغم توفر الورق ، يذكر المقدسي عند كلامه عن أهل الاندلس « وكل مصاحفهم ودفاترهم في رقوق ... وأهل الاندلس أحذق الناس في الوراقة وخطوطهم مدورة [٢] » . وقد كان من عادة علماء الاندلس وفضلائها أن يرحلوا إلى المشرق وأن يحضروا معهم كتب المشارقة وعلومهم ؛ فقد روى ابن بشكوال عن أبي حفص الزهراوي قوله : ساق سلمة بن سعيد شيخنا من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب ، وسافر من استجه إلى المشرق واتخذ مصر موئلاً واضطرب في المشرق سنين كثيرة جداً يجمع من الآفاق كتب العلم ، فكلما اجتمع من ذلك مقدار صالح نهض به إلى مصر ثم نزح بالجميع إلى الاندلس وكانت في كل فن من العلم ولم يتم له ذلك الا بمال كثير حمله إلى المشرق [٣]

---

(١) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . ج ١ . ص ٢٥٦ .
(٢) أمين ، أحمد . **ظهور الاسلام** . ج ٣ . ص ١٣ .
(٣) ابن بشكوال ، ابو القاسم خلف بن عبدالملك . **الصلة في تاريخ أئمة الاندلس** . تحقيق عزت العطار الحسيني . القاهرة ، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ، ١٩٥٥م . ج ٢ . ج ١ . ص ٢٢٠ .

وتوفي سلمة بن سعيد سنة ٤٠٦ هـ .

وممن كانت له في الاندلس همة عالية في جمع الكتب وجمع منها مقداراً عظيماً جداً القاضي ابو المطرف واسمه عبد الرحمن بن محمد بن عيسى ... ابن اصبغ ، كان حسن الخط جيد الضبط جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالاندلس مع سعة الرواية والحفظ والدراية ، وكان له ستة وراقين ينسخون دائماً وكان قد رتب لهم على ذلك راتباً معاوماً ، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه فان قدر على ابتياعه والا انتسخه منه ورده اليه [1] . ويقول ابن بشكوال أيضاً : اخبرني حفيده أبو سليمان أنه سمع عمه وغير واحد من سلفه يحكون ان أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جده دذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء وانه اجتمع فيها من الثمن أربعون الف دينار قاسمية . وأخبرنا أيضاً ان القاضي جده كان لا يعير كتاباً من أصوله البتة وكان اذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه للمستعير فان صرفه والا تركه عنده . وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده ، ومستمل بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه [2] . وتوفي القاضي أبو المطرف هذا سنة ٤٠٢ هـ .

كذلك جمع ابن حزم المؤلف المشهور مكتبة كبرى ولكنها احرقت او احرق بعضها بأمر ملك اشبيلية المعتضد ابن عباد .

وقد اشتهرت قرطبة بحبها للكتب كما اشتهرت اشبيلية بحبها للطرب واللهو وآلاتها ، يبدو ذلك واضحاً من نص أورده المقري عن مناظرة دارت بين ابن رشد (من قرطبة) وابن زهر (من اشبيلية) ، يقول المقري : فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدري ما تقول غير

---

(١) ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف . **الصلة** . ج ١ . ص ٢٩٨ .
(٢) **نفس المصدر** . ص ٢٩٩ .

انه اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها واذا مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية قال وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً [١] . بل لقد وجد بالاندلس نسوة عالمات اهتممن بجمع الكتب وبالادب ، فمن هؤلاء النسوة عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم : قرطبية لم يكن في جزائر الاندلس في زمانها من يعدلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفة وجزالة وحصافة ، وكانت تمدح ملوك زمانها وتخاطبهم فيما يعرض لها من حاجتها فتبلغ ببيانها حيث لا يبلغه كثير من أدباء وقتها ولا ترد شفاعتها وكانت حسنة الخط تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعنى بالعلم ولها خزانة علم كبيرة وحسنة ولها غنى وثروة تعينها على المروءة[٢] وتوفيت عائشة هذه سنة ٤٠٠ ﻫ .

وقد انتشرت عادة اقتناء الكتب في الاندلس وانشاء مكتبة كما ينشىء أحدنا الآن غرفة لاستقبال ضيوفه أو غيرها من الغرف ، رغم ان رب البيت قد يكون جاهلاً أو غير مهتم بالموضوع ، ولكن كي يقال بين الناس في الحي أو البلدة أن فلاناً من الناس عنده خزانة كتب جيدة عامرة تحوى كتباً نادرة ، يدل على ذلك القصة التالية التي يرويها المقري نقلاً عن الحضرمي « قال الحضرمي : أقمت مرة بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة أترقب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير مليح ففرحت به أشد الفرح فجعلت أزيد في ثمنه فيرجع إلي المنادي بالزيادة علي إلى أن بلغ فوق حده . فقلت له : يا هذا أرني من يزيد في هذا الكتاب حتى بلغه إلى ما لا يساوي — قال فأراني شخصاً عليه لباس رئاسة فدنوت منه وقلت له أعز الله سيدنا الفقيه ان كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك فقد بلغت الزيادة

---

(١) المقري أحمد بن محمد التلمساني . **نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب** ... تحقيق احسان عباس . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ م . ج ١ . ص ٤٦٣ .

(٢) ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف . **الصلة** . ج ٢ . ص ٦٥٤ .

بيننا فوق حده . فقال لي : لست بفقيه ولا أدري ما فيه ولكن أقمت خزانة كتب واحتفلت فيها لأتجمل بها بين أعيان البلد وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب فلما رأيته حسن الخط جيد التجليد استحسنته ولم ابال بما ازيد فيه والحمد لله على ما أنعم من الرزق فهو كثير . قال الحضرمي فاحرجني وحملني على أن قلت له نعم لا يكون الرزق كثيراً الا عند مثلك يعطى الجوز من لا أسنان له، وأنا الذي أعلم ما في هذا الكتاب وأطلب الانتفاع به يكون الرزق عندي قليلاً وتحول قلة ما بيدي بيني وبينه [1] .

والواقع أن الثقافة العربية الاسلامية والتربية والتعليم انتشرت في القرن العاشر والحادي عشر الميلاديين في اسبانيا المسلمة إلى درجة جعلت دوزي المؤرخ المشهور يقول بأن أغلب الناس في الاندلس أصبحوا قادرين على القراءة والكتابة ، بل يمكننا أن نقول ان كل فرد تقريباً يعرف القراءة والكتابة. وقد انتقلت الثقافة العربية إلى المستعربين الاسبان وهم الاسبان النصارى الذين أقاموا في البلاد الاسلامية وعاشوا تحت ظل الحكم الاسلامي ، فقد سرت اليهم العادات الاسلامية وتعلموا اللغة العربية وكتبوا بها بل واقتنوا مكتبات عربية . يبدو ذلك واضحاً من نص يروى عن الكاتب الاسباني النصراني المتعصب الفارو، ذلك أن هذا القس المهوس ببعض الاسلام كتب في القرن التاسع الميلادي يقول « ان اخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ . وأسفاه ، انني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل ، بل ان الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة الا العربية ، ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في نهم وشغف ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الاموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها ... [2] » .

---

(١) المقري . **نفح الطيب** ... ج ١ . ص ٤٦٣ .

(٢) جرونيباوم ، جوستاف . **حضارة الاسلام** . تعريب عبد العزيز جاويد . القاهرة ، ١٩٦٠م. ص ٨١ ـ ٨٢ .

المكتبات الاكادمية :

سبق أن ذكرنا خزانة الحكمة التي احتضنها المأمون في بغداد وقلنا انها نموذج للمكتبة المخصصة للبحث والدرس والمخصصة للدراسات العليا ، وقد ظهرت في بلاد الاسلام في القرن الثاني الهجري . وقد كان الواجب بحثها هنا ، ولكن حديثنا عن النقل والتعريب ألجأنا إلى الكلام عن تلك المؤسسة العلمية التي هي بيت الحكمة ، وسنصل هنا ما انقطع من بحث اكادمية علمية كبرى قامت في مكان آخر من دنيا الاسلام الا وهي دار الحكمة في القاهرة . أسس الفاطميون دولتهم في شمال افريقيا في تونس ثم توسعوا شرقاً وغرباً حتى تمكن الخليفة المعز لدين الله من احتلال مصر وضمها إلى امبراطوريته وذلك سنة ٣٥٧ هـ . وهو الذي أسس القاهرة والجامع الازهر وجعل القاهرة عاصمته واستمرت الخلافة الفاطمية قائمة حتى قضى عليها صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ.ولقد اهتمت هذه الدولة ولا سيما في عصر ازدهارها، بالآداب والعلوم وجميع فروع المعرفة . وترقت الحضارة في عهد ملوكهم الاوائل الذين حاولوا منافسة الخلفاء العباسيين وجعل القاهرة مركزاً سياسياً وثقافياً وحضارياً ينافس كلاً من بغداد وقرطبة بل ويبزهما ، ولذلك حاولوا جذب العلماء من كل مكان وأسسوا مراكز العلم والبحث والدرس وأغدقوا على العلماء العطايا والهدايا ، وكان من جملة مآثرهم دار الحكمة التي كانت مركزاً اكادمياً للبحث والدرس والمناظرات والجدل . وقد أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ وقد اختار هذا الاسم رمزاً للدعوة الشيعية لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة ، فهي بهذا الوصف مكتبة قيمة ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة وقاعة محاضرات وبعبارة اخرى: اكادمية كبرى . هذا وأن الغرض الاساسي من دار الحكمة هو تلقين أصول الدعوة الفاطمية الإسماعيلية الالحادية المغرقة في نظم ومراتب مدهشة كانت من أغرب وأروع النظم السرية التي عرفها التاريخ [1] . وقد تم ذلك في عهد

(١) عنان ، محمد عبدالله . **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية** . الطبعة الثانية . القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩م. ص ١٩٤ .

الحاكم بأمر الله كما سبق وذكرنا . وقد يبدو غريباً أن يتم ذلك في عهد الحاكم وهو الخليفة غير المتوازن ذو الذهن المضطرم الهائم ، ولكن ، كما يقول الاستاذ عنان : كان هـذا الذهن بطبيعـة ميوله وتكوينه واتجاهه إلى عوالم الخفاء والغيب حرياً باتخاذ هذه الخطوة ولا سيما اذا تذكرنا ظروف العصر واتساع نطاق الدولة الفاطمية والدعوة الفاطمية واضطرام الصراع المذهبي بين الخلافة الفاطمية وخصومها وخاصة العباسيين مما يجعل مـن الضروري قيام مثل هذا المعهد ليشرف بطريقة منظمة على عملية بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها [1] .

افتتحت هذه الاكادمية يوم السبت العاشر من جمادي الاخرة سنة ٣٩٥ هـ (٥ آذار ١٠٠٥ م) . وقد سبقها استعداد متواصل استمر فترة طويلة ، ذلك ان الحاكم أراد أن تبز مؤسسته كل ما سبقها من مؤسسات وخاصة العباسية منها . لذلك فقد أمر الحاكم باتخاذ بناء خاص بها فأفرد لها داراً كبيرة مجاورة للقصر الغربي يدخل اليها من باب البتانين تعرف بدار مختار الصقلبي ؛ كذلك أمر بفرشها ففرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور وأقيم قوام وخدم وفراشون وغيرهم وسموا بخدمتها ، كذلك نقل اليها أعداداً غفيرة من الكتب الموجودة في خزائن القصور الفاطمية وحمل لها عدداً كبيراً من الكتب الموجودة في خزائنه الخاصة من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك [2] . وقسمت المكتبة إلى أقسام : قسم للفقهاء وقسم آخر لقراء القرآن الكريم وقسم ثالث للمنجمين وقسم رابع لأصحاب النحو واللغة وقسم خاص للاطباء . وقد أباح الحاكم الدار لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضا التي لم يسمع بمثلها ، ذلك أنه أعطى رواتب لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيه وغيره [3] . وقد حضرها الناس

(١) نفس المصدر ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣ .
(٢) المقريزي ، الخطط المقريزية ، ج ٢ ، ص ٣٣٧
(٣) نفس المصدر .

على مختلف مستوياتهم الثقافية ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ومنهم من يحضر للنسخ ومنهم من يحضر للتعلم وجعل فيها ما يحتاج اليه الناس من الحبر والأقلام والورق والمحابر [1] . وقد رصد الحاكم للانفاق عليهـا وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموالا ضخمة ، وخصص قسماً من أملاكه الخاصة التي وقفها لدار الحكمة هذه . وقد خصص منذ البدء قاعة أو قاعات للمحاضرات والمناظرات ، ذلك أن من أهم أغراض الدار البحث والمناقشة للوصول إلى بث الدعوة الفاطمية عن طريق التعليم والاقناع . وقد اتخذت دار الحكمة في البداية طابعاً حراً فدعي اليها الأساتذة من المذهبين الشيعي والسني وقرئت فيها فضائل الصحابة ، ولكن بعد حين أبعد عنها هؤلاء وطوردوا وقتل بعضهم مثل اسامة بن محمد اللغوي والحسين بن سليمان الانطاكي النحوي اللذين كانا يجتمعان بدار العلم مع ثالث لهما هو عبد الغني بن سعيد الذي فر ولم يقتل [2] . وكان يشرف على سير الدراسة فيها داعي الدعاة الفاطمي وهو كبير الدعاة الفاطميين والمشرف على سير الدعاية وبث المذهب . وقد جمعت المحاضرات التي ألقاها داعي الدعاة المؤيد في الدين أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران في كتاب سمي باسم **المجالس المؤيدية** وهي مجموعـة المحاضرات التي كان يلقيهـا في دار الحكمة او العلم في القاهرة وهي ثمانمائة مجلس تناول فيها موضوعات اسماعيلية شتى ، دينية وأدبية وسياسية وتأويلية ، والجدير بالذكر أن هذه المحاضرات كان ينشئها داعي الدعاة على لسان الخليفة وينوب عنه في القائها [3] .

وقد كانت المناظرات والمحاضرات تتم أحياناً بين يدي الخليفة ، ذلك انه في سنة ٤٠٣ هـ . أحضر جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء ومنهم عبد الغني بن سعيد وجماعة من الاطباء إلى حضرة

---

(١) **نفس المصدر** .
(٢) عنان ، محمد عبدالله . **المصدر المذكور آنفا** . ص ١١٣ .
(٣) الحميدي ، حاتم بن ابراهيم . **المجالس المؤيدية** . ص ٣٨٧ .

الحاكم بأمر الله وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ثم خلع على الجميع ووصلهم [1] .

ولكن هذه الاكادمية كثرت فيها المشاجرات والخصام والصدام بين المذاهب وأصبحت مسرحاً لدس الدسائس ونشر الآراء الفاسدة والمذاهب الهدامة حتى اضطر الملك الافضل الوزير الفاطمي والمستبد بالامر إلى اغلاقها في أوائل القرن السادس وذلك بسبب ما يسميه المقريزي نوبة القصار ، ذلك ان شخصين أحدهما اسمه بركات والآخر حميد ابن مكي الاطفيحي القصار مع جماعة يعرفون بالبديعية كانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة ، وكانوا خصوماً للاسلام وللمذاهب الثلاثة المشهورة فتمكن بركات أن يستفسد عقول جماعة وأخرجهم عن الصواب فأمر الأفضل باغلاقها والقبض على المذكور فهرب ، وكان من جملة من استفسد عقله بركات استاذان من القصر فلما طلب بركات واستتر دقق الاستاذان الحيلة إلى أن أدخلاه عندهما ... ثم مرض بركات ومات وانكشف أمر الجماعة [2] . فلما توفي الافضل أمر الخليفة الآمر باحكام الله وزيره المأمون بن البطائحي باتخاذ دار العلم وفتحها على الاوضاع الشرعية ، ثم عاد حميد القصار المذكور آنفا إلى الظهور وسكن القاهرة من جديد وبدأ بالتردد إلى دار العلم وأفسد عقل استاذ وخياط وجماعة ، وادعى الربوبية فحضر الداعي بن عبد الحقيق إلى الوزير المأمون وعرفه بأن هذا تعرف بطرف من علم الكلام على مذهب أبي الحسن الاشعري ثم انسلخ عن الاسلام وسلك طريق الحلاج في التمويه واستهوى من ضعف عقله وقلت بصيرته ... وكان هذا القصار شيعي الدين وجرت له أمور في الايام الافضلية وتقي مرة واعتقل اخرى ثم هرب وبعد ذلك عاد وصار له أنصار كثيرون فرسم المأمون بالقبض عليه وعلى جميع أصحابه ... ثم صلب الجميع على الخشب وضربوا بالنشاب فماتوا

---

(١) المقريزي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٣٣٧ .
(٢) **نفس المصدر** . ج ٢ . ص ٣٣٨ .

لوقتهم وكان ذلك سنة ٥١٧ هـ وابتداء القصة سنة ٥١٣ هـ [١] .

والذي يبدو لنا من هذا النص ومن غيره أن السبب الرئيسي في اغلاق الدار هو الجدل والخصام الديني والسياسي الذي شق الفاطميين آنذاك والتنازع على السلطة بين أولاد المستنصر بالله . ذلك أن هذا الخليفة استبد بالأمور في أواخر أيامه بدر الجمالي وأصبح صاحب السلطة المطلقة وقد زوج ابنته من الخليفة المستنصر فرزق منها بولد أصبح الخليفة المستعلي فيما بعد ، رغم انه ليس الولد الاكبر للخليفة اذ كان للخليفة ولد أكبر منه اسمه نزار ، وكان ذلك بتدبير جده لامه بدر الجمالي وابنه من بعده الملك الافضل ، ولكن الابن البكر للمستنصر نزار لم يرض بذلك وانشق الفاطميون على أنفسهم فقسم يؤيدون المستعلي ونسله وقسم آخر يؤيد نزاراً ونسله وهؤلاء دعوا بالنزارية لان نزاراً هو الامام الحقيقي بنظرهم وهو المستحق الخلافة دون أخيه ؛ ولكن حالت دون توليه الخلافة قوة الوزير الملك الافضل ؛ يدل على ذلك نص آخر يورده المقريزي نقلاً عن ابن عبد الظاهر « قال ابن عبد الظاهر دار العلم كان الافضل ابن أمير الجيوش (بدر الجمالي) قد أبطلها وهي بجوار باب البتانين وهي متصلة بالقصر الصغير ... وكان لابطالها أمور سببها اجتماع الناس والخوض في المذاهب والخوف من الاجتماع على المذهب النزاري ، ولم يزل الخدم يتوصلون إلى الخليفة الآمر بأحكام الله حتى تحدث في ذلك مع الوزير المأمون فقال أين تكون هذه الدار ؟ فقال تكون بالدار التي كانت أولاً . فقال هذا لا يكون لأنه باب صار من جملة أبواب القصر وبرسم الحوائج . ولا يمكن الاجتماع ولا يؤمن من غريب يتحصل به ، فأشار كل من الاستاذين بشيء فأشار بعضهم أن تكون في بيت المال القديم فقال المأمون يا سبحان الله قد منعنا أن تكون متاخمة للقصر الكبير الذي هو سكن الخليفة نجعلها ملاصقة . فقال الثقة زمام القصور : في جواري موضع ليس ملاصقاً للقصر ولا مخالطاً له يجوز أن يعمر ويكون دار العلم فأجاب المأمون إلى ذلك وقال بشرط أن يكون

---

(١) نفس المصدر . ج ٢ . ص ٣٣٨ — ٣٤٠ .

متوليها رجلاً ديناً والداعي (يقصد نفسه) الناظر فيها ويقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن فاستخدم فيها أبو محمد حسن بن آدم فتولاها وشرط عليه ما تقدم ذكره واستخدم فيها مقرئون [١] .

ولقد اختلط أمر هذه الخزانة مع خزائن القصر التي أوجدها الخلفاء الفاطميون على كثير من الباحثين فكانوا اذا تحدثوا عن دار الحكمة ، أو دار العلم كما تسمى احيانا ، أدخلوا ضمنها الخزائن التي كانت موجودة في القصور مع العلم ان الخزانتين مختلفتان كما هو واضح من المقريزي ، ذلك أنه عندما يتكلم عن دار الحكمة يقول : « ذكر دار العلم التي هي دار الحكمة» [٢] . وفي مكان آخر يقول « وفتحت دار الحكمة في القاهرة وحمل اليها الكتب ودخل اليها الناس واشتد الطلب على الركابية [٣] ». ومما يدل على ان الخزانتين متميزتان هو ان المؤرخ ابا شامة مؤلف كتاب **الروضتين في أخبار الدولتين** يذكر ـ أثناء كلامه على ما باعه صلاح الدين الايوبي من مخلفات الفاطميين عندما الغى خلافتهم ـ خزانة الكتب « وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من الدار التي بالقاهرة في القصر [٤] » . كذلك يذكر صاحب كتاب **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** خزائن القصور الفاطمية أولاً ثم يذكر بعد ذلك دار العلم أثناء كلامه عن الحاكم وكيف انه أمر بعمارة دار العلم وفرشها ونقل اليها الكتب العظيمة وأسكنها من شيوخ السنة شيخين يعرف أحدهما بأبي بكر الانطاكي وخلع عليهما وقربهما ورسم لهما بحضور مجلسه وملازمته وجمع الفقهاء والمحدثين اليها وأمر أن

---

(١) المقريزي **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٣٤٠

(٢) **نفس المصدر** . ج ٢ . ص ٣٣٨

(٣) **نفس المصدر** . ج ٣ . ص ٢٤٩

(٤) ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي **كتاب الروضتين في اخبار الدولتين** . القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ هـ . ج ١ . ص ٢٠٠

يقرأ بها فضائل الصحابة ورفع عنهم الاعتراض على ذلك [1] .

ولقد كانت هذه المكتبة منظمة ومصنفة ومرتبة بشكل يسهل خدمة القراء فيها ، وقد عين مشرفاً عليها أول الامر القاضي عبد العزيز من أسرة النعمان الشهيرة التي خدمت الخلفاء الفاطميين ردحاً طويلاً من الزمن . وكذلك عهد بالاشراف اما على خزائن القصر أو على دار العلم للوزير أبي القاسم علي بن أحمد الجرجاني المتوفى سنة ١٠٤٤ م ، وقد اهتم الوزير بالمكتبة ورممها وأجرى بها الاصلاحات اللازمة وأمر بأن يعمل لها فهرس عام وعهد بهذه المهمة إلى القاضي أبي عبد الله القضاعي وابن خلف الوراق [2] .

ويظهر أن مصير هذه الاكادمية ارتبط مع مصير الدولة الفاطمية وبقية المكتبات التي كانت موجودة في القصور الفاطمية ، فقد صادرها جميعها صلاح الدين الايوبي وباعها بالمزاد العلني كما سيأتي ذكره مفصلاً .

ولا بد من التنبيه ان هناك رواية منسوبة لابن السنبادي يذكر فيها انه رأى في مكتبة الفواطم في القاهرة كرة نحاسيه تمثل الكرة الأرضية وهي صنع بطليموس الفلكي الحكيم وعليها نقش مفاده أن هذه الكرة كانت في حوزة خالد بن يزيد بن معاوية [3] . ولا ندري ، اذا صحت الرواية ، هل كانت هذه الكرة موجودة في دار الحكمة أم في خزائن القصر ؟ .

وهناك مكتبة اكادمية اخرى لا بد من ذكرها هي مكتبة مراغة التي أسسها المغول بعد سقوط بغداد في مدينة مراغة من مدن اذربيجان ، وعهدوا برئاستها إلى محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي . وقد أصبحت

---

(١) ابن تغري بردى . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ م . ج ٤ . ص ٢٢٢

(٢) القفطي . **اخبار الحكماء** ص ٤٤٠

(٣) ماكينسن ، ر . س . « الكتب والمكتبات العربية في العهد الاموي » من : **المجلة الامريكية للغات السامية وآدابها** . المجلد ٥٢ (تموز ١٩٣٦) . ص ٥٣

مراغة أيام المغول عاصمة المشرق وقد أنشأ بها المغول معهداً علمياً ومرصد للدراسات الفلكية وخزانة كتب عظيمة واستقدموا اليها أئمة العلوم الرياضية والفلكية والعقلية والطبية ، وقد نظمت الدراسة في هذا المعهد طبق نظام دقيق معين أشار له ابن الفوطي في كتابه **الحوادث الجامعة** ؛ وقد جمع المغول في هذه المكتبة كتباً كثيرة بلغت اربعمائة الف مجلد والغالب أن هذه الكتب هي مما انتهبه المغول من بغداد والشام والجزيرة كما يقول صاحب فوات الوفيات ، اذ اننا نو افقه على قوله هذا . يقول « ... وابتنى. (نصير الدين الطوسي) بمراغة قبة ومرصداً عظيماً واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الارجاء وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربعمائة الف مجلد وقرر بالرصد المنجمين والفلاسفة [1] .

وقد أوقف نصير الدين عليها الاوقاف الكثيرة حتى يضمن استمرارها من بعده ، وارتحل في انحاء البلاد ليجلب لها الكتب التي تجد ، ذلك ان ابن الفوطي يذكر في كتابه انه في سنة ٦٦٢ هـ وصل نصير الدين محمد الطوسي إلى بغداد لتصفح الاحوال والنظر في أمر الوقوف والبحث عن الاجناد والمماليك ثم انحدر إلى واسط والبصرة وجمع من العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد [2] . هذا وقد استمرت هذه الخزانة بالعمل فترة بعد وفاة مؤسسها وذلك بفضل الاوقاف السخية التي حبسها عليها نصير الدين وبفضل أولاده الذين دأبوا على السير على سنة والدهم ، ولكن يبدو انها انحطت بعد وفاة أولاده هؤلاء . ولقد كان من حسن حظ هذه الخزانة ان ولي الاشراف عليها ابن الفوطي أكثر من بضع عشرة سنة وكان نشيطاً مؤدباً حسن الخط جداً واتصل بكثير من العلماء والادباء وأرباب الفن وأهل الرياسة على تباين أجيالهم واختلاف بلادهم ومللهم وطالع كثيراً من الكتب في شتى الموضوعات فاتسعت ثقافته ونمت معرفته في جميع فروع المعرفة الدينية والأدبية والاجتماعية حتى انه الف

---

(١) الكتبي · **فوات الوفيات** ·· حـ ٢ ص ٣٠٧

(٢) ابن الفوطي · **الحوادث الجامعة** ·· ص ٣٥٠

المؤلفات الرائعة في التاريخ والانساب وغيرها من العلوم .

المكتبات الخلافية :

وهي مكتبات كان ينشئها الخلفاء والامراء والحكام من أجل أنفسهم ، وقد جعلوها حلقات للمناظرة والسمر والمحاضرات والقاء العلوم المختلفة ، وقد ازدهرت هذه المكتبات حيث ومتى وجد خليفة أو أمير أو حاكم متنور محب للعلوم والآداب راغب في الكتب وأهلها مقرب للعلماء ، وكان يباح دخول بعض هذه المكتبات للناس جميعا ، والبعض الآخر كان محرماً على الناس مقصوراً على استعمال الخليفة او الأمير وحاشيته . وقد انتشرت هذه المكتبات في ارجاء البلاد الاسلامية ، ذلك ان القرن الثالث الهجري شاهد انقسام الامبراطورية الاسلامية إلى دويلات واستمرت عملية التقسيم تزداد فيما بعد ، وكل انقسام جديد للامبراطورية يظهر للنور حكاماً جدداً وامراء مع بلاطاتهم وعواصمهم ، وكان كثير من هؤلاء المتغلبين يهتم بالعلوم والآداب لأن من سمة ذلك العصر أن يهتم الحاكم الصالح بالعلوم والآداب وأن يشجعها وأن يجمع حوله العلماء والادباء حتى يذيع اسمه ويشتهر انه ملك او حاكم صالح محب للعلوم والآداب مقرب لأهلهما منه ، وخاصة العلوم الشرعية ؛ وهذا قسم من الدعاية يقوم بها الحاكم لنفسه ليرفع من اسمه وأسهمه أمام شعبه وشعوب العالم الاسلامي الاخرى . والجدير بالذكر ان الانقسام السياسي الذي حصل في ديار الاسلام لم يرافقه — لحسن الحظ — ضعف حضاري بل بالعكس نجد الحضارة الاسلامية قد بلغت أوج عزها وعظمتها عندما كان المسلمون ضعفاء سياسياً ، سواء في الاندلس أو شمالي افريقيا أو في المشرق ، ذلك ان بذرة الحضارة كانت قد غرست أيام الوحدة والقوة والمنعة ، وأن التوجيه الاسلامي الصحيح قد وجه القوم — رغم كل شيء — نحو الحضارة والنور ، وان التفاعل الحضاري تم قبل فترة التمزق هذه ، ولذلك لم يمنع الانقسام السياسي الحضارة من الازدهار والتفتح ولم يمنع البذور الصالحة من النمو والارتقاء حتى أصبحت شجرة ذات أكمام

وذات أثمار ، ولا سيما وان التفتت السياسي لم يقم الحواجز بين أبناء البلاد الاسلامية فبقي التبادل الثقافي والتبادل الاقتصادي والارتحال حراً دون قيد أو شرط ، أضف إلى ذلك كثرة المراكز التي كانت تحتضن الحضارة كبخارى وشيراز والري وبغداد وحلب ودمشق والقاهرة وقرطبة ... ووجود حكام متنورين شجعوا فعلا الحركة الثقافية العلمية لوجه الله والثقافة والعلم ، كل ذلك جعل الحضارة الاسلامية تزدهر كل الازدهار وجعل مراكزها تنتشر في جميع البلاد الاسلامية وبالتالي كثرت المكتبات الخلافية او الاميرية التي هي مدار اهتمامنا الآن .

وسنسير في بحثنا على نسق جغرافي فنبدأ بشرقي البلاد الاسلامية وننتهي في غربها .

أوجد السامانيون في بلاد خراسان وما وراء النهر دولة قوية عرفت باسم الدولة السامانية ، وقد بلغت أوج عزها في القرن الرابع الهجري واهتم ملوكها بالعلوم والآداب وشجعوا عليهـــا ، واهتموا خاصة بالمذهب الاسماعيلي الذي هو مذهبهم وسعوا لنشره بالطرق السلمية وعن طريق الدعاية والتعليم ، وقد أسسوا مكتبة خلافية كبرى في مقر امارتهم بخارى حوت كتباً كثيرة من كل علم وفن ،وكانت المكتبة كبيرة جداً يصفها ابن سينا بأنها دار ذات بيوت كثيرة في كل بيت صناديق كتب منضدة بعضها فوق بعض ، في بيت كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد [1] . وكانت هذه المكتبة تحوي كتباً نادرة عديمة المثال . يقول ابن سينا « ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط وما رأيته قبل ولا رأيته أيضاً من بعد [2] » . وكانت هذه المكتبة محرمة على عامة الناس لا يدخلها انسان الا بأذن من السلطان نفسه ، وان لدخول ابن سينا الفيلسوف والطبيب المشهور إلى هذه المكتبة قصة من أروع القصص الدالة على عبقريته . ذلك

---

(١) القفطي . المصدر المذكور آنفا . ص ٤١٦

(٢) نفس المصدر .

ان والد فيلسوفنا الكبير كان مختصاً بخدمة آل سامان وكان داعية اسماعيلياً وبدأ بتثقيف ولده وتعليمه أصول الفلسفة والطب وهو بعد صغير السن ، وقد اشتهر في بلدته وهو لا يزال بعد رطب العود بالذكاء والفطنة والبراعة في الطب ؛ وصدف ان مرض سلطان بخارى آنذاك وهو نوح بن منصور وعجز الأطباء عن ابرائه واشفائه ، وكان اسم ابن سينا الفتى قد اشتهر بينهم بالتوفر على الدراسة والمطالعة فأجروا ذكره بين يديه وسألوه احضاره فأحضر وشاركهم مداواة السلطان وتطبيبه ، وبذل جهده في خدمته حتى تماثل للشفاء فسأله يوماً أن يسمح له بدخول دار الكتب السلطانية ومطالعة كتب الطب فيها فأذن له بذلك واطلع على نفائسها وكنوزها — فظفر أبو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها وحصل نخب فوائدها واطلع على أكثر علومها[1] . واتفق بعد ذلك بفترة ان احترقت تلك المكتبة ، فتفرد أبو علي (ابن سينا) بما حصله من علومها وكان يقال ان ابا علي توصل إلى احراقها لينفرد بمعرفة ما حصله فيها وينسبه إلى نفسه[2] . وطبعاً هذه تهمة مردودة وغير معقولة اذ لا يعقل أن يفعل ذلك شخص من طراز ابن سينا .

كذلك أسس عضد الدولة البويهي في شيراز مقر حكمه دار كتب فخمة طار صيتها في الآفاق وجمع فيها من الكتب ما ليس له نظير . يذكر المقدسي ان عضد الدولة بنى داراً في شيراز لم ير في شرق ولا غرب مثلها « ما دخلها عامي الا افتتن بها ولا عاقل الا استدل بها على نعمة الجنة وطيبها ، خرق فيها الأنهار ونصب عليها القباب وأحاطها بالبساتين والأشجار وحفر فيها الغياض وجمع فيها المرافق والعدد ، وسمعت رئيس الفراشين يقول : فيها ثلاثمائة وستون حجرة وداراً كان مجلسه كل يوم واحدة إلى الحول وهي سفل وعلو ، وخزانة الكتب حجرة على حدة عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنف إلى وقته من أنواع العلوم كلها الا حصله منها ،

---

(١) ابن خلكان . **المصدر المذكور آنفا** . ح ١ . ص ٤٢٠
(٢) **نفس المصدر** .

وهي ازج طويل في صفة كبيرة فيه خزائن من كل وجه ، وقد الصق إلى جميع حيطان الازج والخزائن بيوتاً طولها قامة إلى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب إلا يدخلها الا وجيه ، أوطفت في هذه الدار كلها سفلها وعلوها وقد فرشت فيها الالات فرأيت في كل مجلس ما يليق به من الفرش والستور [1] .

نستنتج من هذا النص ان المكتبة كانت منظمة تنظيماً جيداً جداً حتى بمقاييس هذه الأيام ، فالأثاث فيها موفور ومتناسب ، والكتب مصونه من الغبار وغيره وذلك لوجودها في خزائن خاصة بها ، والمكتبة بعهدة ثلاثة أشخاص يتسلسلون في العمل والمسؤولية ، وكذلك نلاحظ أن المكتبة مصنفة حسب المواضيع ، وأن هناك فهرستاً لكل خزانة الصق على باب الخزانة تسهيلاً للمطالع والمراجع ، كذلك نلاحظ ان دخول المكتبة محظور الا على الخاصة وغالباً ما يحتاجون إلى اذن خاص ، ذلك ان عضد الدولة جعل على باب الدار بوابين مهمتهم منع من لا يحمل اذناً بالدخول . ويذكر المقدسي أيضاً أن ذلك الازج قد فرش ببساط عباداني وعقد على بابه رواق ؛ ويذكر كذلك أنه طالع في هذه الدار بعض الكتب،ويعطي ملخصاً لأحد الكتب التي طالعها هنا : « وقرأت في كتاب بهذه الخزانة : أهل فارس أنجع الناس بطاعة السلطان وأصبرهم على الظلم وأثقلهم خراجاً وأذلهم نفوساً ؛ وفيه ... أهل فارس لم يعرفوا عدلاً قط .... [2]

وقد عاشت هذه المكتبة بعد وفاة مؤسسها فترة من الزمن ولكن سرى اليها الخلل والاضطراب والاهمال في عهد خلفائه ، يدل على ذلك القصة التالية التي

---

(١) المقدسي ، شمس الدين ابو عبد الله محمد • **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** • تحقيق مار جوليوث • ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ م ص ٤٤٩ •

(٢) **نفس المصدر** •

يرويها ابن البواب الذي كان قيماً ومشرفاً على خزانة الكتب التي مر ذكرها في عهد بهاء الدولة بن عضد الدولة « قال كنت أتصرف في خزانة الكتب لبهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز على اختياري وأرعاها له وأمرها مردود إلي فرأيت يوماً في جملة أجزاء منبوذة جزءاً مجلداً باسود قدر السكري ففتحته واذا هو جزء من ثلاثين جزءاً من القرآن بخط ابي علي بن مقلة، فأعجبني وأفردته فلم أزل أظفر بجزء بعد جزء مختلط في جملة الكتب إلى أن اجتمع تسعة وعشرون جزءاً وبقي جزء واحد استغرقت في تفتيش الخزانة عليه مدة طويلة فلم أظفر به فعلمت ان المصحف ناقص فافردته ودخلت إلى بهاء الدولة وقلت يا مولانا ههنا رجل يسأل حاجة قريبة لا كلفة فيها وهي مخاطبة أبي علي الموفق الوزير على معونته في منازعة بينه وبين خصم له ومعه هدية ظريفة تصلح لمولانا . قال : أي شيء هي ؟ قلت مصحف بخط أبي علي بن مقلة فقال هاته وأنا أتقدم بما يريد فأحضرت الاجزاء فأخذ منها واحداً وقال أذكر وكان في الخزانة ما يشبه هذا وقد ذهب عني فقلت هذا مصحفك وقصصت عليه القصة في طلبي له حتى جمعته ، الا انه ينقص جزء وقلت : هكذا يطرح مصحف بخط أبي علي ؟ فقال لي فتممه لي قلت السمع والطاعة ولكن على شريطة انك اذا أبصرت الجزء الناقص منها ولا تعرفه أن تعطيني خلعة ومائة دينار . قال : افعل . وأخذت المصحف من بين يديه وانصرفت إلى داري ، ودخلت الخزانة أقلب الكاغد العتيق وما يشابه كاغد المصحف وكان فيها أنواع الكاغد السمرقندي والصيني العتيق كل ظريف عجيب فأخذت من الكاغد ما وافقني وكتبت الجزء وذهبته وعتقت ذهبه وقلعت جلداً من جزء من الاجزاء فجلدته به وجلدت الذي قلعت منه الجلد وعتقته ، ونسي بهاء الدولة المصحف ومضى على ذلك نحو السنة ، فلما كان ذات يوم جرى ذكر أبي علي بن مقلة فقال له : ما كتبت ذلك ؟ قلت : بلى ؛ قال فأعطيته ، فأحضرت المصحف كاملاً فلم يزل يقلبه جزءاً جزءاً وهو لا يقف على الجزء الذي بخطي ثم قال لي : ايما هو الجزء الذي بخطك ؟ قلت له لا تعرفه

فيصغر في عينيك هذا مصحف كامل بخط علي بن مقلة ونكتم سرنا ؟ قال : افعل ؛ وتركه في ريقه عند رأسه ولم يعده إلى الخزانة وأقمت مطالباً بالخلعه والدنانير وهو يمطلني ويعدني ، فلما كان يوم قلت : يا مولانا في الخزانة بياض صيني مقطوع وصحيح فتعطيني المقطوع منه كله دون الصحيح بالخلعة والدنانير ؟ قال : مر وخذه فمضيت وأخذت جميع ما كان فيهـا من ذلك النوع فكتبت فيه سنين » [1] .

تدل هذه القصة على الاهمال الفظيع والفوضى التي وصلت اليها هذه المكتبة في عهد خلف المؤسس وعلى السرقات التي كانت تتم فيها وعلى التزوير الذي كان يحدث ، وكذلك تدل على اهمال الحاكم وجهله وسوء فهمه وعدم ثقافته ولا مبالاته . وقد ازداد الوضع سوءً في عهد خلفائه من بعده بحيث لم تمض فترة حتى اندثرت المكتبة وتفرقت أيدي سبأ .

وقد هدف عضد الدولة ، وهو الحاكم القوي النشيط ، أن يجمع حوله العلماء والأدباء وأن يجعلهم في خدمته ، فعهد بالأشراف على خزانته هذه إلى ابن مسكويه المؤرخ الشهير وهو الذي يسميه القفطي مسكويه الخازن ويصفه بأنه كان خازناً للملك عضد الدولة بن بويه مأموناً لديه أثيراً عنده [2] .

وقد اهتم خلفاء بغداد ، على ضعفهم وقلة مواردهم ، بالعلم والمدارس والمكتبات كل الاهتمام ، ويرد في هذا المضمار اسم ثلاثة منهم هم الخليفة الناصر والخليفة المستنصر والخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين في بغداد. فأما الخليفة الناصر فقد كان محباً للعلوم جماعاً للكتب اعتنى بالمكتبات وخاصة بمكتبة المدرسة النظامية فأعاد عمارتها ونقل اليها الوفاً من الكتب النفيسة ، كذلك بنى الخليفة رباطاً يعرف باسم الرباط الظاهري غربي بغداد على دجلة ونقل اليه كتباً كثيرة من أحسن الكتب [3] . وقد اهتم الخليفة أيضا بتغذية الخزائن الخليفية التي

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . حـ ١٥ . ص ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٢) القفطي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٣٣٩ .

(٣) ابن الاثير . **الكامل في التاريخ** . حـ ٩ . ص ٢٢٩

كانت موجودة سابقاً وزاد فيها واشترى لها كتباً كثيرة ونظمها أحسن تنظيم .
وقد اعتمد في مهمة اختيار الكتب من أجل مكتباته جميعها على مبشر بن احمد بن علي الرازي المتوفى سنة ٥٨٩ هـ ، ذلك ان مبشراً هذا كان عالماً متضلعاً في العلوم ومميزاً في أيام الناصر لدين الله أبي العباس احمد وقرب منه واعتمد في اختيار الكتب التي وقفها بالرباط الخاتوني السلجوقي وبالمدرسة النظامية وبداره المسناة [1] .

وأما الخليفة المستنصر فقد تولى الخلافة بعد الناصر وورث عنه حبه للعلم والعلماء، واهتمامه بالكتب والمكتبات ولا يذكر اسم المدرسة المستنصرية الا مقروناً باسمه .

وأما آخر الخلفاء العباسيين المستعصم بالله فقد انشأ خزانتين للكتب نقل إليهما من نفائس الكتب وجعل المتولي على الاولى شخصاً اسمه صدر الدين بن التيار وجعل المتولي على الثانية شخصاً اسمه عبد المؤمن بن فاخر الارموري .
وكان الخليفة يجلس بعض الاحيان في الخزانتين بالتناوب [2] . ويبدو ان الخزانتين انشئتا في دار الخليفة الخاصة ؛ وعندما أمر الخليفة سنة ٦٤١ هـ بعمل خزانة الكتب الاولى في دار حليت جدرانها بأشعار نظمها شعراء الديوان ، ومما نظمه فيها صفي الدين عبد الله بن جميل متقدم شعراء الديوان ما يلي :

أنشا الخليفـــة للعلـــوم خزانـــة ... سارت بسيرة فضله أخبارها
تجلو عروساً من غرائب حسنها ... در الفضائل والعلوم نثارهـــا
أهدى مناقبـــه لهـــا مستعصم ... بالله مـــن لألآئه أنوارهـــا [3]

وأما الخزانة الثانية فقد استجدها في اخريات أيامه . وكما ذكرنا سابقا

---

(١) القفطي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٦٩
(٢) ابن الطقطقي . **الفخري في الآداب السلطانية** ... ص ٢٦٩
(٣) ابن الفوطي . **الحوادث الجامعة** ص ١٨٤

كان يمضي شطراً من وقته في كلا الخزانتين ولكن يقول ابن الطقطقي ان جلوسه هذا ليس فيه كبير فائدة [1] .

واذا وصلنا إلى بلاد الشام لا نجد فيها مكتبات كثيرة خاصة بالامراء والحكام ، وأغلب الحكام الذين ولوا سورية إما كانوا مغمورين لم تصلنا أخبارهم أو غير مهتمين بالعلم والكتب (وكثير منهم كانوا من الترك والسلاجقة) ويجب أن نلاحظ أن الحروب الطاحنة التي كانت بلاد الشام مسرحاً لها وانصراف الامراء والحكام لهذه الحروب كان أحد الأسباب في قلة المكتبات الاميرية .

وان أشهر امراء سورية الذين اهتموا بالعلم والادب وشجعوا عليها هو سيف الدولة الحمداني في القرن الرابع الهجري ، وكان مقره في مدينة حلب شمالي سورية والتف حوله في بلاطه عدد من أعظم الادباء والشعراء والعلماء أمثال المتنبي وأبي فراس وابن خالويه والفيلسوف الفارابي ، كذلك اهتم سيف الدولة بالنقل فقد ذكر أنه كان عند سيف الدولة طبيب اسمه عيسى الرقي ينقل من السرياني إلى العربي [2] . وقد أوجد سيف الدولة مكتبة كبرى جعلها في عهدة شاعرين أخوين مشهورين هما الخالديان أبو بكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن هاشم [3] .

وهنا يجب أن نذكر مكتبة لا ندري من أسسها في مدينة آمد من أعمال الجزيرة العليا فقد وجد بها صلاح الدين الايوبي سنة ٥٧٩ هـ خزانة كتب تحوى الف الف وأربعين الف كتاب فوهب السلطان (صلاح الدين) الكتب للقاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين حجازة ، ويقال ان ابن قره ارسلان

---

(١) ابن الطقطقي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٦٩

(٢) زيدان ، جرجي . **تاريخ التمدن الاسلامي** . الطبعة الرابعة . القاهرة ، مطابع الهلال ، ١٩٢٢ م . ج ٥ . ح ٣ . ص ١٤٩

(٣) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** . ج ١ . ص ١٨٤

باع من ذخائر آمد وخزائنها ما لا حاجة له به مدة سبع سنين حتى امتلأت الأرض من ذخائرها [1] .

وطبعاً او ان كنا لا نصدق ان مكتبة في مدينة صغيرة كمدينة آمد حوت أو يمكن أن تحوي مثل هذا العدد الخيالي من الكتب ، الا ان ذلك يدل دلالة بالغة على اهتمام القوم بالمعرفة ونشرها وتيسير سبل الاطلاع عليها ويدل على مقدار التراث الهائل الرائع الذي كان موجوداً آنـــذاك ويــدل على ولع بالمطالعة ونهم للاطلاع لا وجود له الآن بيننا . ولكن الاعجب من هذا هو ان يفرط شخص مثل السلطان صلاح الدين بمثل هذا التراث ويسمح بتبديده على هذه الصورة المنكرة .

وإذا أتينا إلى مصر زمن الخلافة الفاطمية وجدنا اهتماماً منقطع النظير بالعلم والكتب والمكتبات ، ذلك ان الدعوة الفاطمية قامت ، كما ذكرنا سابقاً ، على العلم وعلى نشر مبادئها عن طريق التعليم والاقناع والتوجيه وبث الافكار بشكل غير مباشر . ولعل أول من اهتم بالعلم على مقياس واسع هو المعز الذي بنى القاهرة والجامع الازهر ثم خلفه ابنه العزيز الذي توسع كل التوسع في ميدان العلم والتعليم فانشأ داراً للعلم بجوار الجامع الازهر سنة ٣٧٨ هـ وجعلها لخمسة وثلاثين من العلماء [2] . وكذلك اهتم اهتماماً بالغاً بالكتب وتفنن في جمعها والحصول عليها وساعده على ذلك أن وزيره يعقوب بن كلس نفسه كان محباً للعلوم مشجعاً لأهلها جماعة للكتب نصيراً للفنون . والحقيقة ، توصف خزائن الفاطميين انها من عجائب الدنيا ولم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم منها . وكان عندهم نوعان من الخزائن : الاولى خزائن القصر الخارجية وعدتها أربعون خزانة أشهرها خزانة الكتب التي يصفها ابن تغرى بردى بقوله « « وأما خزانة الكتب فكانت في أحد مجالس البيمارستان

---

(١) ابو شامة . **كتاب الروضتين في اخبار الدولتين** . ج ٢ . ص ٣٩

(٢) متز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري** . ج ١ . ص ٢٤٩ ـ ٢٥٠

العتيق اليوم وكان فيها ما يزيد على مائة الف مجلد في سائر العلوم يطول الامر في عدتها [1] » . أما خزائن القصر الداخلية فكان الاطلاع عليها محظوراً على العامة على حين ان العامة كان مسموحاً لهم الاطلاع والاختلاف إلى خزائن القصر الخارجية ، وهذه أسست ، بالغالب ، بمناسبة افتتاح المدرسة المجاورة للازهر . يقول المقريزي ان عدة الخزائن التي برسم الكتب في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة ، خزانة من جملتها ثمانية عشر الف كتاب في العلوم القديمة ، وان الموجود فيها من جملة الكتب المخرجة من شدة المستنصر بالله الفان وأربعمائة ختمة قرآن في ربعات بخطوط منسوبة زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما . وقد وجدت صناديق مملوءة أقلاماً مبرية من براية ابن مقلة وابن البواب وغيرهما [2] . ويصف المقريزي في مكان آخر خزانة الكتب التي كانت في أحد مجالس المارستان العتيق ويصف مجيء الخليفة اليها فيقول « فيجيء الخليفة راكباً ويترجل على الدكة المنصوبة ويجلس عليها ويحضر اليه من يتولاها ، وكان في ذلك الوقت الجليس بن عبد القوي ، فيحضر اليه المصاحف بالخطوط المنسوبة وغير ذلك مما يقترحه من الكتب فان عن له أخذ شيء منها أخذه ثم يعيده ، وتحتوي هذه الخزانة على عدة رفوف في دور ذلك المجلس العظيم ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتي ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ، فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف النسخ ، ومنها النواقص التي ما تممت ، كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة في مكان فوقها ، وفيها من الدروج بخط ابن مقلة ونظائره كابن البواب وغيره ... فاذا أراد الخليفة الانفصال مشى فيها مشية لنظرها ، وفيها ناسخان وفراشان صاحب المرتبة

---

(١) ابن تغري بردى . النجوم الزاهرة ... ج ٤ . ص ١٠١
(٢) المقريزي . الخطط المقريزية ، ح ٢ ص ٢٥٣

وآخر فيعطي الشاهد عشرين ديناراً ويخرج إلى غيرها [1] . كذلك يعود المقريزي إلى اعطاء مزيد من التفاصيل منها نقلاً عن ابن أبي طي... وكانت من عجائب الدنيا ويقال انه لم يكن في جميع بلاد الاسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في التقصر ، ومن عجائبها انه كان فيها ١٢٠٠ نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك ويقال بأنها كانت تشتمل على الف الف وستمائة الف كتاب ، وكان بها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة [2] . وذكر ابن أبي واصل ان خزانة الكتب كانت تزيد على مائة وعشرين الف مجلد [3] .

والواقع أن مكتبات الفواطم كانت تحوى نسخاً عديدةمن المؤلف نفسه ؛ ويهتم الخلفاء بجمع نوادر المؤلفات وامهات الكتب، والكتب المخطوطه بخطوط مؤلفيها والكتب المخطوطة بخطوط أشهر الخطاطين ولو كلفهم ذلك كثيراً من المال والجهد والعناء . ذكر عند العزيز (الفاطمي) كتـــاب **العين في اللغة** فأخرج منه نيفاً وثلاثين نسخة من خزائنه منها واحدة بخط الخليل بن أحمد مؤلفها ، وحملت اليه نسخة من **تاريخ الطبري** اشتراها بمائة دينار ، فأمر الخزان فأخرجوا من خزائنه عشرين نسخة منها نسخة بخط محمد بن جرير جامعه ، وذكرت عنده **جمهرة ابن دريد** فأخرج منها مائة نسخة [4] .

وكذلك اهتم الفاطميون بتأثيث مكتباتهم بأفخم الأثاث وفرش الأراضي بالبسط الجميلة المزخرفة وتعليق الستور الممتازة على الأبواب والممرات ، فقد دخل أحد السياح مكتبة الفواطم هذه فرأى فيها قطعاً من الحرير الازرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة بأسماء طرائقها ومدنها

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٢ . ص ٢٥٤

(٢) **نفس المصدر** .

(٣) **نفس المصدر** .

(٤) المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي . **اتعاظ الحنفا باخبار الائمة الفاطمين الخلفا** . تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي ، ١٩٦٧ م . ص ٢٧٨

وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب وغيرها بالذهب والحرير [1] .

وقد تعاورت الفتن والحروب والثورات على هذه المكتبات فانتقصتها وتحيفتها وانتهبتها حتى دخل صلاح الدين القاهرة والغى الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ فطرح محتويات جميع مكتبات الفواطم للبيع بالمزاد العلني .

ففي سنة ٤٦١ هـ عجز الخليفة المستنصر عن دفع رواتب الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي والخطير بن الموفق في الدين ، فأخذا ، فيما أخذاه عما يستحقانه ، خمسة وعشرين جملاً موقرة كتباً ، وقد قومت حصة الوزير أبي الفرج بخمسة الاف دينار [2] . ويذكر المقريزي أن ثمنها الحقيقي أكثر من مائة الف دينار ، ولم تبق هذه الكتب عند الوزير فترة طويلة اذ انها نهبت من داره في نفس السنة مع ما نهب من داره . وضعف سلطان الخليفة جداً حتى تجرأ كثير من الناس على اغتصاب الكتب والابحار بها بالنيل وارسالها إلى الاسكندرية او المغرب وأغلبها من الكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الامصار صحة وحسن خط وتجليد ، وقد هاجم عسكر السودان القصر ونهبوا محتوياته وأخذوا الكتب المجلدة أفخر تجليد فأحرقوا أوراقها واتخذوا من جلودها نعالاً لهم سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الاقطار ، وبقي منها ما لم يحرق وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية إلى اليوم (زمن المقريزي) في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب [3] . وقد فعل هؤلاء الجنود ذلك لأن هذه الكتب تحوى كلام المشارقة الذي يخالف مذهبهم في زعمهم ، وطبعاً هذا عذر واه سخيف ويدل على تأصل البربرية في نفوس هؤلاء الهمج ، وبقيت تلال الكتب شاهداً على حقارة بعض أفراد بني البشر وعلى اجرامهم وعدوانهم على ثمرات العقول والحضارة الانسانية .

---

(١) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** . جـ ١ . ص ١٩٩
(٢) المقريزي . **الخطط المقريزية** . جـ ٢ ص ٢٥٣
(٣) **نفس المصدر** .

ولما استردت الخلافة الفاطمية أنفاسها بدأ بعض الخلفاء يهتمون بالكتب والمكتبات ، ولكن ليس على ذلك المقياس الواسع الذي شاهدناه سابقاً ، واستمر الأمر على هذا المنوال حتى طرح صلاح الدين الايوبي ، كما مر معنا سابقاً، جميع كتب المكتبات الفاطمية للبيع ، يروي أبو شامة نقلاً عن العماد ان عدد كتب المكتبة آنذاك بلغة ١٢٠ الف مجلدة مؤبدة من العهد القديم مخلدة ، وفيها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي واقتطعه التعدي وكانت كالميراث مع امناء الايتام يتصرف فيها بشره الانتهاب والالتهام ، ونقلت منها ثمانية احمال إلى الشام [١] . ويقدر أبو شامة عدد مجلدات مكتبات القصر أبان عزها ومجدها بمليوني كتاب [٢] . وقد تولى بيعها ابن صورة دلال الكتب واستمر بيعها عدة أعوام [٣] .

وكان لبيع الكتب في القصر يومان في الاسبوع وهي تباع بأرخص الأثمان وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف ، فقال دلالو الكتب لبهاء الدين قراقوش متولي القصر وصاحب النهي والأمر : هذه الكتب قد عاث فيها العث وتساوى ثمينها والغث ولا غنى عن تهويتها ونفضها واخراجها من بيوت الخزانة إلى أرضها ، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولا دربة له بأسفار الادب ، وكان مقصود دلالي الكتب أن يوكسوها ويخرموها ويعكسوها ، فأخرجت وهي أكثر من مائة الف من أماكنها وعريت من مساكنها وخربت أوكارها وذهبت انوارها وشتت شملها وبت حبلها واختلط أدبيها بنحويها وشرعيها بمنطقيها وطبيها بهندسيها وتواريخها بتفاسيرها ومجاهيلها بمشاهيرها فكان فيها من الكتب الكبار وتواريخ الامصار ومصنفات

---

(١) ابو شامة . **كتاب الروضتين** ... ج ١ . ص ٢٠٠

(٢) **نفس المصدر** .

(٣) المقريزي . **الخطط المقريزية** . ج ٢ . ص ٢٥٤

الاخبار ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً ، اذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً فأختلطت واختبطت فكان الدلال يخرج عشرة عشرة من كل فن كتباً مبعثرة فتسام بالدون وتباع بالهون والدلال يعرف كل شدة وما فيها من عدة ويعلم ان عنده من أجناسها وأنواعها وقد شارك غيره في ابتياعها حتّى اذا لفق (لقضاء) كتاباً قد تقوم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة [1] .

هذه صورة قاتمة مظلمة سوداء لكيفية بيع الكتب التي حوتها مكتبات الفواطم والتي كانت فيما مضى من الدهر تاجا تزهو به المكتبات الاسلامية ابان مجدها وعزها ، ونرى من خلال هذه الصورة كيف انتهب ذلك التراث العظيم وكيف تفرقت الكتب أيدي سبأ ، والأنكى من ذلك ان العماد راوي هذه القصة يعترف بكل بساطة أنه شارك بهذا العمل ولم يحرك ساكنا لمنعه « فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا ... واستكثرت من المتاع المبتاع وحويت نفائس الانواع ، ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمائتين أنعم علي بها وابرأ ذمتي من ذهبها ثم وهب لي أيضاً من خزانة القصر ما عنيت عينه من كتبها ، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له من القصر وهو ينظر في بعضها ويبسط يدي لقبضها . قال وكنت طلبت كتباً عينتها فقال وهل في هذه شيء منها ؟ فقلت كلها وما استغنى عنها فأخرجتها من عنده بجمال وكان هذا بالاضافة إلى سماحه أقل نوال [2] .

وثالثة الاثافي الطريقة التي حصل بها القاضي الفاضل على كتبه التي اشتراها من هذه المكتبات ، ذلك « انه حصل للقاضي الفاضل قدر كبير منها حيث شغف بحبها وذلك أنه دخل اليها واختبرها ، فكل كتاب صلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات ثم جمعها بعد ذلك ومنها حصل ما

---

(١) ابو شامة . **المصدر المذكور آنفا** . جـ ١ . ص ٢٦٨

(٢) **نفس المصدر** .

حصل من الكتب [1] . وقد حصل القاضي الفاضل بهذه الطريقة مائة ألف مجلد من هذه المكتبة . ولما انشأ مدرسته الفاضلية في القاهرة جعل الكتب التي حصل عليها من القصر في مكتبها [2].

المكتبات الخلافية في الاندلس :

سبق أن ذكرنا حب أهل الاندلس للكتب وانتشار الثقافة بينهم وعنايتهم بالأدب والتعليم حتى أصبحت الاندلس مركزاً ممتازاً من مراكز الثقافة في العالم يتقاطر اليه العلماء والادباء من كل مكان . والواقع ان أغلب حكام الاندلس وخاصة الامويين كانوا محبين للعلوم والآداب مهتمين بنشر نور المعرفة ، وقد أسسوا مكتبات رائعة سار بذكرها الركبان . فقد أسس عبد الرحمن الاوسط (أواسط القرن الثالث هـ) مكتبة فخمة في قرطبة وأرسل إلى المشرق عباس بن ناجح ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها [3] . كذلك اهتم الخليفة عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ – ٣٥٠ هـ) بالعلوم والاداب اهتماماً كبيراً وقصده العلماء من كل مكان وأصبح قصره قبلة الادباء ومثابتهم أمثال القالي وغيره ، وقد اسس مكتبة كبرى في قصره وخزن بها الكتب بجميع اللغات . وقد أرسل له امبراطور القسطنطينية عدداً من الكتب اليونانية منها كتاب ديسقوريدس وكتاب هروسيوس ، والأول كتاب علمي طبي يبحث في الاعشاب والحشائش وفوائدها الطبية والثاني كتاب تاريخي يبحث في تاريخ اليونان والرومان ، ويذكر ابن جلجل أنه لم يكن يومئذٍ بقرطبة من نصارى الاندلس من يقرأ اللسان الاغريقي الذي هو اليوناني القديم فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الاغريقي ولم يترجم إلى اللسان العربي وبقي الكتاب بالاندلس ، والذي بأيدي الناس بترجمة اصطفن.

---

(١) **نفس المصدر** . ج ١ ص ٢٠٠

(٢) المقريزي . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٢ . ص ٢٥٤

(٣) ابن سعيد . **المغرب في حلى المغرب** . ج ١ ص ٤٥ – ٣٢٤

الواردة من مدينة السلام [١] .

ولكن الخليفة الذي يقرن اسمه دائماً بالعلوم والكتب وتشجيعها هو الحكم الثاني المستنصر بالله (٣٥٠ – ٣٦٦ ﻫ) ، ذلك ان الحكم استفاد كل الفائدة من السلم الوطيد الذي حققه والده واستفاد من قوة الدولة وهيبتها وتوفر الأموال والرخاء والرفاه والذي عم أرجاء البلاد آنذاك فالتفت لقطف ثمار ذلك مدارس ومكتبات وكتباً وحضارة شامخة . وقد تثقف الحكم على أيدي أبي علي القالي صاحب كتاب الامالي ، ذلك انه لما وفد أبو علي على عبد الرحمن الناصر من الشرق أكرم مثواه وحسنت منزلته عنده وأورث أهل الاندلس علمه واختص بالحكم المستنصر واستفاد علمه [٢] . ويقول دوزي واصفاً الحكم الثاني « لم يسبق أن تولى حكم اسبانيا حاكم عالم بهذه الدرجة ، ورغم ان جميع أسلافه كانوا رجالاً مثقفين ، وأحبوا أن يغنوا مكتباتهم ، فأن أحداً منهم لم يبحث بشغف ونهم عن الكتب النادرة والثمينة كما فعل الحكم [٣] . ويصفه ابن خلدون بقوله « وكان محباً للعلوم مكرماً لأهلها جماعة للكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ... فأقام للعلم والعلماء سلطاناً نفقت فيها بضائعه من كل قطر ... وكان يبعث في الكتب إلى الاقطار رجالاً من التجار ويسرب اليهم الأموال لشرائها حتى جلب منها إلى الاندلس ما لم يعهدوه [٤] . وقد كان يعرف المؤلفين ويعرف أخبار كتبهم قبل أن يصدروها وقبل أن يطلع عليها البحاثة ، فقد وصل إلى علمه ان أبا الفرج الاصفهاني الأديب الشهير ، وكان أموي النسب ، يؤلف كتاباً لم يسبق اليه هو كتاب **الاغاني** فأرسل اليه فيه بألف دينار من الذهب العين فبعث اليه بنسخة من قبل أن يخرجه إلى العراق ، وكذلك فعل مع القاضي أبي بكر

---

(١) ابن جلجل . **طبقات الاطباء** . مقدمة ك

(٢) ابن خلدون . **كتاب العبر** . ج ٤ . ص ١٤٦

(٣) دوزي ، رينهارت . **تاريخ المسلمين في اسبانيا** . لندن ، شاتو ووينداوس ، ١٩١٣ م . ص ٤٥٤

(٤) ابن خلدون . **المصدر المذكور آنفا** . ج ٤ . ص ١٤٦

الابهري المالكي في شرحه لمختصر ابن عبد الحكم [1] . وقد جمع في قصره الحذاق في صناعة النسخ والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد فأوعى في ذلك كله واجتمعت بالاندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده [2] . وقد روى ابن خلدون نقلاً عن حزم قوله « اخبرني بكية الحضي وكان على خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان ان عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعون فهرسة في كل فهرسة عشرون ورقة ليس فيها الا ذكر أسماء الدواوين لا غير [3] . وهناك رواية اخرى تذكر عدد كتبها . فقد روى المقري رواية اخرى عزاها لبعض المؤرخين « وقال بعض المؤرخين في حق الحكم أنه كان حسن السيرة مكرماً للقادمين عليه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة حتى قيل انها كانت أربعمائة الف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها ... وكان يستجلب المصنفات من الاقاليم والنواحي باذلاً فيها ما أمكنه من الاموال حتى ضاقت عنها خزائنه[4] ».
ولكن السؤال المهم في الموضوع هو مقدار الفائدة التي جناها الحكم من هذه المكتبة . يؤكد جميع المؤرخين انه استفاد منها كل الفائدة وكان الحكم يوصف بالعلم وكثرة المطالعة ودقة النظر « وكان عالماً نبيهاً صافي السريرة سمع من قاسم بن اصبغ واحمد بن دحيم ومحمد بن عبد السلام الخشني وزكريا بن خطاب وأكثر عنه . وأجاز له ثابت بن قاسم وكتب عن خلق كثير سوى هؤلاء ... وكان ذا غرام بها (الكتب) قد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته وكان في المعرفة بالرجال والاخبار والانساب احوذياً نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله بهذا وصفه ابن الابار وباضعافه وقال عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكراه وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب فيه نسب المؤلف

---

(١) المقري . **نفح الطيب** ... ج ١ . ص ٣٨٦
(٢) **نفس المصدر** .
(٣) ابن خلدون . **كتاب العبر** ... ج ٤ . ص ١٤٦
(٤) المقري . **نفح الطيب** ... ج ١ . ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥

ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن [1] .

ومما يعزز هذا الرأي وصف لسان الدين بن الخطيب للحكم الثاني وذلك في كتابه **أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام** «كان الحكم الثاني ... عالماً فقهياً بالمذاهب اماماً في معرفة الانساب حافظاً للتاريخ جماعاً للكتب مميزاً للرجال من كل عالم وجيل وفي كل مصر وأوان تجرد للملك وتهمم به فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يوقف عليه [2] .

ولقد كان مصير هذه المكتبة فاجعاً ، ذلك ان المنصور بن أبي عامر ، الذي أصبح سيد الاندلس بعد وفاة الحكم بفترة أخرج من المكتبة جميع الكتب الفلسفية وكتب علوم الاوائل وأحرقها بالنار في الميدان العام في قرطبة ارضاءً للعامة والفقهاء في زمانه [3] . وبعد وفاة المنصور وأثناء حصار البربر لقرطبة في مطالع القرن الخامس الهجري احتاج الحاجب واضح من موالي المنصور بن أبي عامر إلى مال فأمر باخراج أكثر الكتب من مكتبة الحاكم وباعها ، وما تبقى منها نهب عندما دخل البربر قرطبة واقتحموها عنوة [4] .

ولما انقسمت المملكة الاموية والخلافة الاموية في الاندلس إلى ما يسمى ملوك الطوائف ، وأصبح هناك حكام كثيرون في مختلف الاصقاع اهتم كثير منهم بالعلوم والآداب والكتب والمكتبات ، ونضرب مثلاً على ذلك بالمظفر بن الافطس (من حكام القرن الخامس الهجري) صاحب بطليوس ، فقد كان كثير الادب جم المعرفة محباً لأهل العلم جماعة للكتب ذا خزانة

---

(١) **نفس المصدر** . ج ١ . ص ٣٩٥

(٢) لسان الدين بن الخطيب . **أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام** ... تحقيق ليفي بروفنسال . بيروت ، دار الكشوف ، ١٩٥٦ م . ص ٤١

(٣) بينتو . اولغا ، « المكتبات العربية في العصر العباسي » في : **الثقافة الاسلامية** . السنة الثالثة (١٩٢٩) . ص ٢٢٦

(٤) ابن خلدون . **كتاب العبر** ... ج ٤ . ص ١٤٦

عظيمة لم يكن في ملوك الاندلس من يفوقه في أدب ومعرفة ... وقال ابن بسام كان المظفر أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم **بالتذكرة** ، المشتهر أيضاً اسمه **بالكتاب المظفري** في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم من مغازو وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الأدب أبقاه للناس خالداً [١] .

وتوفي المظفر سنة ٤٦٠ هـ .

---

(١) المقري · **نفح الطيب** ··· ج ٣ · ص ٣٨٠

الفصل الخامس

المكتبات العامة :

ان المكتبات العامة هي المقياس الحقيقي والدقيق لرقي الشعوب والامم ، وان كثرتها وتوزعها وسهولة ارتيادها دليل على ثقافة الشعب وتعلمه وحبه للعلم ، ذلك ان المكتبات الخلافية تعكس اهتمام الحكام أنفسهم بالثقافة ، وهي للاستعمال الشخصي في الاعـم لاغلب ، واذا فتحت أبوابها فلفئة معينة من الناس . ولكن المكتبات العامة في الاسلام كانت ذائعة كل الذيوع منتشرة في أرجاء العالم الاسلامي من حدود الصين والهند شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً وشمالاً وقلما تخلو بلدة أو قرية أو ناحية من مكتبة عامة . وهذا طبعاً عدا مكتبات المساجد التي كانت ملحقة بها التي والمباحة للجميع وعدا مكتبات الافراد ومكتبات الربط والمدارس والكتاتيب والمعاهد ... ولا نرى كبـير فائدة في تعداد المكتبات العامة التي حفل بها العالم الاسلامي آنذاك ، ولكنا نريد أن نقول ان المكتبة العامة في الاسلام كانت عامة بالمعنى الحرفي للكلمة فلم يكن يمنع أحد من ارتيادها ، وكان دخولها والمطالعة فيها بالمجان ، وكثير منها يقدم الورق والحبر وأدوات الكتابة، وكان في قسم كبير منها مرشدون يساعدون القراء في ايجاد المصادر والكتب التي يبحثون عنها .

وقد ذكر ياقوت ان عدد المكتبات في مرو في زمانه (أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري) بلغ عشر، خزائن بعضها في الجوامع وبعضها في المدارس وبعضها في الخوانق وبعضها في أبنية خاصة أي انها مكتبات عامة ،

ولكن الميزة التي تمتاز بها جميعها ان المطالعة فيها حرة والاعارة الخارجية فيها تكون في أغلب الاحيان بدون رهن [1] .

كذلك كان من عادة العلماء والوزراء والاغنياء أن يوقفوا بعد وفاتهم مكتباتهم على مدنهم ، كما فعل الصاحب بن عباد اذ أوقف مكتبته على مدينة الري فأصبحت مكتبة عامة .

ووجدت في ساوة زمن ياقوت الحموي دار كتب عامة جليلة يصفها ياقوت بأنها لم يكن في الدنيا أعظم منها ، ولا ندري اذا كانت هذه الدار هي نفس الدار التي وقفها موفق الدين أبو طاهر الحسين بن محمد في ساوة ، ذلك ان موفق الدين هذا (من رجال القرن السادس) وقف دار كتب في ساوة فلما دخلها أمين الدولة بن التلميذ (طبيب توفي سنة ٥٦٦ هـ) أعجبته فقال مادحاً واقفها :

وفقت للخير اذ عممت بـه	طلابه يـا موفق الديـن
ازلفت للناس جنـة جمعـت	عيون فضل أشهى من العـين
فيها ثمـار العقـول دانيـة	قطوفهـا حلـوة الافانـين
لا زلت تسمو بكـل صالحـة	بسعـدى قـدرة وتمكـين
ويرحـم الله كـل مستمـع	متبـع دعوتي بتأمـين [2]

وقد أنشأ أبو علي بن سوار الكاتب أحد رجال حاشية عضد الدولة البويهي المتوفى سنة ٣٧٢ هـ . دار كتب في مدينة رام هرمز على شاطىء الخليج العربي ، كما بنى داراً اخرى في البصرة وجعل فيها اجراءً على من قصدهما ولزم القراءة والنسخ فيهما ، وكان في الاولى منهما ابدا شيخ يدرس عليه علم الكلام

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم البلدان** . جـ ٨ . ص ٣٦
(٢) ابن أبي أصيبعة . **طبقات الاطباء** . جـ ٢ . ص ٢٩٣

على مذهب المعتزلة [1] . ومكتبة البصرة هذه هي — على الغالب — المكتبة التي يرد ذكرها في مقامات الحريري على انها منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمغتربين . يقول الحريري في المقامة الحلوانية « فلما إبت من غربتي إلى منبت شعبي حضرت دار كتبها التي هي منتدى المتأدبين وملتقى القاطنين منهم والمتغربين فدخل رجل ذو لحية كثة وهيئة رثة فسلم على الجلاس وجلس في اخريات الناس ثم أخذ يبدي ما في وطابه ويعجب الحاضرين بفصل خطابه[2] . ومكتبة البصرة هذه كانت تعطى رواتب واعانات لمن يشتغل فيها من الطلاب [3] .

سندرس فيما يلي وبشيء من التفصيل مكتبتين عامتين كان لهما أهمية كبرى في العالم الاسلامي الاولى مكتبة سابور في بغداد في القرن الخامس الهجري والثانية مكتبة بني عمار في طرابلس الشام في القرنين الخامس والسادس الهجريين ونذكرهما كمثل على ما كانت عليه المكتبات العامة الكبرى في العالم الاسلامي آنذاك .

أما مكتبة سابور بن اردشير فقد أسسها وزير بهاء الدولة البويهي سابور المار ذكره وسميت باسمه وكان ذلك سنة ٣٨٢ هـ . يقول ابن تغري بردى « وفيها (أي في سنة ٣٨٢ هـ) ابتنى الوزير أبو نصر سابور بن اردشير داراً بالكرخ سماها « دار العلم » ووقفها على العلماء ونقل اليها كتباً كثيرة [4] » . ويحدد غيره مكانها بشكل أدق فيذكر انها تقع في محلة بين السورين [5] . هذا ويطلق على هذه المؤسسة تسميتان مختلفتان ، فأبن الأثير يذكرها باسم خزانة الكتب على حين ان غيره كياقوت وابن تغرى بردى يذكرانها باسم دار

(١) ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري** . حـ ١ . ص ٢٤٤

(٢) **الحريري المقامات** . بيروت ، دار بيروت ، ١٩٥٨ م . ص ٢٣

(٣) ديورانت ، ول . **قصة الحضارة** . حـ ١٣ . ص ١٧٠

(٤) ابن تغري بردى . **النجوم الزاهرة** ... حـ ٤ . ص ١٦٤

(٥) ابن الاثير . **الكامل في التاريخ** ... حـ ٨ . ص ٨٨

العلم ، وهي ترد في رسائل أبي العلاء المعري باسم دار العلم . وقد وقف الوزير أوقافاً كثيرة غنية مجزية على الدار كفت للانفاق على المكتبة طوال مدة حياتها ولم تحتج لاحد طوال هذه الفترة . وقد بلغت عدة كتبها ١٠٤٠٠ مجلد من أصناف العلوم ، منها مائة مصحف بخطوط بني مقلة [1] ، وفيها عدد كبير من الكتب التي امتلكها رجال مشهورون وأغلب الكتب بخطوط أصحابها ، وقد رد النظر في أمرها ومراعاتها والاحتياط عليها إلى رجلين من العلويين يعاونهما أحد القضاة [2] . وقد ازدهرت هذه المكتبة ازدهاراً رائعاً وارتفع صيتها وطارت سمعتها في الآفاق وقصدها الادباء والعلماء والشعراء من الآفاق وضربوا اليها آباط الابل ، وذلك لشهرة الرجال الذين وقفوا أنفسهم على خدمتها وادارتها ، وقد كان يسر المؤلف ، أي مؤلف ، أن تقبل هذه الدار نسخة من كتابه كهدية وهذا هو ما نسميه نحن الآن الايداع ، وكانوا يسمونه التخليد ، فقد ذكر ياقوت الحموي أثناء ترجمته لأحمد بن علي بن خيران الكاتب انه .. « سلم إلى أبي منصور بن الشيرازي رسول ابن النجار إلى مصر من بغداد جزأين من شعره ورسائله واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما إلى الشريف المرتضى أبي القاسم (المشرف على دار العلم في بغداد آنذاك) وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ويستشير في تخليدهما دار العلم ، لينفذ بقية الديوان والرسائل ان علم ان ما أنفذه منها ارتضي واستجيد [3] .

هذا ويعتبر أبو العلاء المعري الشاعر المشهور أشهر من قصد بغداد خاصة لزيارة دار العلم هذه والتعرف إلى محتوياتها وعلى الادباء والعلماء الذين كانوا يرتادونها ، ويرد ذكرها في مؤلفاته ، وكذلك يرد ذكر امنائها أمثال عبد السلام البصري وأبي منصور الخازن . وقد كان المشرف على دار العلم آنذاك

---

(١) **نفس المصدر** .

(٢) ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هـ** . جـ ١ . ص ٢٤٩

(٣) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . جـ ٤ . ص ٥ ـ ٦

الشريف المرتضى وكان الخازن أبا منصور ، ويذكر أبو العلاء عنه « والذي أقدمني إلى تلك البلاد مكان دار العلم بها .

ولست وان احببت من يسكن الغضى
بأول راج حاجــة لا ينالها .

شرفاً لذلك المنزل منزلاً وللساكنين به نفراً ولماء دجلة وادياً ومشرباً [١] .. ولكني آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتي فيه [٢] .

ويقول في بعض رسائله « واحلف ما سافرت استكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس ما كان (مكان ؟) لم يسعف الزمن باقامتي فيه [٣] . »

شغفاً بدار العلم فيــك وقلبــه ما زال ربعاً للعلوم وداراً [٤] .

وكذلك يرد ذكر دار العلم في سقط الزند وشروحه .

ما أربى الا معــرس معشــر هم الناس لا سوق العروس ولاالشط

يقصد بقوله معرس معشر دار العلم لأنه كان يجتمع فيها مع أهل العلم .

أخازن دار العلم كم مــن تنوفــة
أتت دوننا فيها العوازف واللغط [٥] .

وقد أقام أبو العلاء في بغداد يتردد على دار العلم عاماً وبعض العام وعقدت بينه وبين أبي منصور الخازن وعبد السلام البصري الخازن الآخر في دار العلم

---

(١) ابو العلاء المعري • تعريف القدماء بابي العلاء ••• ص ٨٩
(٢) **نفس المصدر** • ص ٩٢
(٣) **نفس المصدر** • ص ٥١٦
(٤) **نفس المصدر** • ص ٥٤٥
(٥) ابو العلاء المعري • **شروح سقط الزند** • القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥ • ج ٥ • ص ١٥٨٣

صداقة وصحبة ، وقد وجه أبو العلاء الرسالة التاسعة عشرة من رسائله إلى أبي منصور هذا . كذلك يرد ذكر أبي منصور وجارية سوداء اسمها توفيق في رسالة الغفران مقروناً بدار العلم « وتقول الاخرى : أتدري من أنا يا علي بن منصور ؟ أنا توفيق السوداء التي كانت تخدم في دار العلم ببغداد على زمان أبي منصور محمد بن علي الخازن ،، وكنت أخرج الكتب إلى النساخ فيقول : لا اله الا الله لقد كنتِ سوداء فصرتِ أنصع من الكافور ... فتقول أتعجب من هذا والشاعر يقول لبعض المخلوقين .

لو ان من نوره مثقـــال خردلة　　في السود كلهم لأبيضت السود[1]

وقد ظلت هذه المكتبة حية في الوجود حتى سنة ٤٥١ هـ حيث شبت نار هائلة في محلة الكرخ وبين السورين ، واحترقت دار العلم هذه ونهبت بعض كتبها ؛ ذلك ان العامة استغلوا فرصة الهرج والمرج اللذين صاحبا هذه المناسبة ونهبوا بعض محتويات تلك المكتبة ، وقد كان من المفروض أن تعمد الحكومة إلى قمع الفوضى وحماية هذه المؤسسة ، وهذا ما حدث ولكن بطريقـــة معكوسة ، ذلك ان الوزير عميد الملك الكندري سمع بما حدث فحضر بنفسه إلى الدار مع قوة من الجند وأزال العامة ، ولكنه عوضاً عن أن يرد إلى المكتبة ما نهب منهـــا وساب وان يعوضها عما خسرته قعد يختار لنفسه أجودها وأحسنها[2] .ويوازن ابن الاثير بين عمل الوزير هذا وفعل نظام الملك الذي أتى بعده بفترة قصيرة من الزمن فيقول « فنسب ذلك (أي أخذه الكتب) إلى سوء سيرته وفساد اختياره ، وشتان بين فعله وفعل نظام الملك الذي عمر المدارس ودور العلم في بلاد الاسلام جميعها ووقف الكتب وغيرها[3] . ولا بد لنا أن نذكر أن هناك عدداً من المؤرخين يجعلون زمن احتراق هذه المكتبة سنة ٤٤٧ هـ

---

(١) ابو العلاء المعري · **رسالة الغفران** · تحقيق بنت الشاطىء · الطبعة الثانية · القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ م · ص ٢٧٩

(٢) ابن الاثير · **الكامل في التاريخ** · جـ ٨ · ص ٨٨

(٣) **نفس المصدر** ·

أثناء دخول طغرل بك بجيشه إلى بغداد[1] . ومهما يكن من شيء فقد اختفت هذه المؤسسة العلمية العظيمة منذ ذلك التاريخ ولم نعد نسمع لها ذكراً ولم يذكرها أحد . كذلك نحب أن نقول انه وجد في بغداد ابان مجدها وعزها ست وثلاثون مكتبة مفتحة الأبواب لجميع الناس !!! [2] .

أما مكتبة بني عمار في طرابلس الشام فهذه أصبحت قصتها كالأساطير وبالغ الناس فيها على حين حاول آخرون التقليل من أهميتها . حكم بنو عمار قسماً من الساحل السوري في القرن الخامس الهجري واستمروا في حكمه حتى الحروب الصليبية ، وقد جعلوا طرابلس الشام عاصمتهم ، وقد ازدهرت الزراعة والتجارة والصناعة في عهدهم ونشطت الحياة الاقتصادية حتى قيل انه كان في طرابلس نحو من أربعة الاف نول نسيج [3] . وكان بنو عمار شيعة على المذهب الاسماعيلي اهتموا بنشر مذهبهم والدعاية له وبذلك أوجدوا مؤسسة تقوم بهذه المهمة هي دار العلم في طرابلس أو قد تعاقب على حكم المدينة عدد من الامراء الذين يلقبون بالقضاة كالقاضي جلال الملك أبي الحسن علي بن محمد بن أحمد والقاضي أبي طالب الحسن ، واهتموا جميعهم بهذه المكتبة وتغذيتها وكان لهم وكلاء يجوبون أقطار الاسلام المعمورة بحثاً عن الكتب والمخطوطات النادرة ، وكان فيها النساخ يعملون بشكل مستمر ليلاً نهاراً . فقد ذكر ان عدد النساخ كان أكثر من مائة وثمانين ناسخاً يتناوبون العمل ليل نهار . والكتب كلها أو أغلبها من أجمل الكتب المجلدة والمزخرفة والمحلاة بالذهب والفضة بالخطوط المنسوبة لأشهر الخطاطين ، وفيها عدد كبير جداً من الكتب بخطوط مؤلفيها وقد حوت جميع أنواع وفروع المعرفة الانسانية من طب وفلك وتنجيم وفلسفة وأدب وتاريخ ... وقيل ان عدد كتبها بلغ ثلاثة ملايين مجلد وذلك أبان عزها ومجدها ، منها خمسون ألف نسخة من

---

(١) تومبسون . **المكتبة في العصور الوسيطة** . ص [illegible]
(٢) **نفس المصدر** .
(٣) البستاني ، بطرس . **دائرة معارف البستاني** . [illegible] ص ٢٤٣

القرآن الكريم وثمانون ألف نسخة تفاسير ، يذكر شوشتري في كتابه **مختصر الثقافة الاسلامية** انها كانت تحوي أكبر عدد من الكتب عرف ان مكتبة ما حوته حتى ذلك الزمن الا وهو ثلاثة ملايين [1] . كذلك يؤيد جيبون هذا الرقم [2] . ولكن تومبسون في كتابه **المكتبة في العصور الوسيطة** يشك في هذا الرقم [3] . وكذلك اختلفت الروايات العربية نفسها حول عدد الكتب في هذه المكتبة بين مقل ومكثر ، فالذي أقل لم ينقص عن مائة الف مجلد والمكثر تجاوز الملايين الثلاثة عداً [4] . ولكن هذا ليس بالمهم ، انما المهم هو النهاية الفاجعة التي انتهت اليها هذه المكتبة ، ذلك ان الصليبيين أحرقوا هذه المكتبة مع محتوياتها وسورها والأرض عندما احتلوا طرابلس سنة ١٠٠٩ م / ٥٠٢ هـ . كما أحرقوا ونهبوا كل مكان قدر عليه أن يتعرض لاحتلالهم وهمجيتهم . فقد صدف أن دخل أحد القسس إلى المكتبة وشاهد الكتب حوله ، ويبدو انه دخل القاعة المخصصة للقرآن الكريم فالتقط أول كتاب وقع له وفتحه فاذا هو قرآن كريم فرماه والتقط الثاني فاذا به مصحف فرماه وظل يفعل الشيء نفسه حوالي عشرين مرة ، فلما وجد جميع الكتب التي طلعت في يده نسخاً من القرآن الكريم اعتقد ان المكتبة كلها تتألف محتوياتها من مصاحف ولذلك غضب وثار ثائره وقال « هذه مكتبة مملوءة بالمصاحف أحرقوها » ، ولم يدر الجاهل أنه دخل إلى قسم المصاحف والتفاسير ، وهكذا نفذ أمر هذا القسيس المتعصب الجاهل وأحرقت المكتبة حتى أصبحت أثراً بعد عين [5] . وهكذا ذهب التعصب والجهل والحقد الصليبي بثروة لن تعوض ، ورغم ان بعض الكتاب الافرنج حاولوا التشكيك بهذه الحادثة ، حادثة احراق المكتبة على أيدي الصليبيين ،

---

(١) شوشترى ، أ٠م٠ أ٠ **مختصر الثقافة الاسلامية** ٠ بانغالور ، مطبعة بانغالور ، ١٩٣٨ م ٠ ص ١٦٧

(٢) زيدان ، جرجي ٠ **مختصر تاريخ التمدن الاسلامي** ٠ جـ ٣ ٠ ص ٢٠٧

(٣) تومبسون ٠ **المكتبة في العصور الوسيطة** ٠ ص ٣٥٢

(٤) البستاني ، بطرس ٠ **دائرة معارف البستاني** ٠ جـ ١١ ٠ ص ٢٤٣

(٥) بينتو ، اولغا ٠ **المصدر المذكور آنفا** ٠ ص ٢٣٥ ــ ٢٣٦

الا ان أغلب المؤرخين مجمعون على صحتها ولاسيما انها صدرت عن شاهد عيان صليبي شاهد الحادثة ورواها ، بالاضافة إلى روايات المؤرخين المسلمين الذين يكتفون عادة بذكر احراق المكتبة دون ذكر التفاصيل ، وبالاضافة إلى أن ذلك يتمشى مع روح الافرنج الصليبيين الهمجية البربرية التي كانت تحركهم – ولا تزال – آنذاك . وقد ذكر جيبون ان الصليبيين أحرقوا هذه المكتبة [١] كما وافق على ذلك تومبسون [٢] وشوشتري وغيرهم .

مكتبات المدارس :

المدرسة في الاسلام شيء جديد ، نسبياً ، لم يكن للمسلمين عهد به ، ذلك ان مكان التعليم والتدريس الطبيعي في الاسلام منذ نشأته كان في المساجد والجوامع والكتاتيب وغيرها ، ولم يحدث ان بنيت المدارس الا في مرحلة متأخرة من مراحل الحضارة الاسلامية . والمدرسة – فنياً واصطلاحياً – هي مكان لتدريس عدد معين من الطلاب على أيدي أساتذة مخصوصين مواد دراسية معينة ذات مستوى معين . فهي بهذا التعريف ذات اختصاص ومدرسة اختصاصية ولها منهاج محدد معين ، والدراسة فيها منظمة ومنتظمة ، والدراسة غالباً ذات طابع ديني فقهي على المذاهب الثلاثة او الأربعة المشهورة مع ما يلزمها من أدب ولغة وأصول وتوحيد وتوابعها ، ويعطى الطلاب والأساتذة جعالةمعينة من اجل معيشتهم .ورغم ان عدداً من المؤرخينيذكرون انأول من أسس مدرسة في الاسلام هو نظام الملك وزير السلاجقة الشهير في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة ،الا ان الحقيقة خلاف ذلك اذ وجدت المدارس قبله بفترة ليست وجيزة ، ولكنه أول من جعلها عملاً رسمياً تقوم به الدولة وتلتزمه ونشرها في عدد كبير من المدن في شرقي الامبراطورية الاسلامية مثل بغداد واصبهان ونيسابور والري ومرو ... الخ وأشهرها جميعاً نظامية

---

(١) زيدان ، جرجي . **المصدر المذكور آنفا** . جـ ٣ . ص ٢٠٧
(٢) تومبسون . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٣٥٢

بغداد التي خرجت عدداً كبيراً من فطاحل علماء العالم الاسلامي والتي ظلت في الوجود فترة طويلة من الزمن وعاصرت سقوط بغداد بيد المغول ونجت من الهلاك والدمار . ونحب أن نقول بهذه المناسبة أن تأسيس المدارس في الاسلام واعطاء الجرايات للطلاب قوبل من البعض بعدم الرضا والاستنكار . يقول حاجي خليفة واصفاً موقف علماء بلاد ما وراء النهر من بناء المدارس وشعورهم تجاه ذلك ما يلي « ولقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به لما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العلية والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم ، واذا صار عليه اجرة تداني اليه الاخساء وأرباب الكسل فيكون سبباً لارتفاعه ومن ههنا هجرت علوم الحكمة وان كانت شريفة لذاتها [1]

وقد أسس نظام الملك مدرسته هذه في بغداد سنة ١٠٦٥ م وافتتحت رسمياً سنة ١٠٦٧ م . وقد خصصت منذ اللحظة الاولى لتدريس علوم السنة وخاصة المذهب الشافعي ، وأضاف اليها نظام الملك علم الكلام ؛ وقد ألحق بها مكتبة غنية منظمة زودها نظام الملك بكل غريب ونادر ، فقد ذكر ان عبد السلام القزويني أهدى إلى نظام الملك أربعة أشياء فريدة في بابها منها **غريب الحديث** لابراهيم الحرمي بخط أبي عمر بن حيوه في عشرة مجلدات فوقفه نظام الملك على طلاب المدرسة النظامية ببغداد .

وقد تخرج ودرس في نظامية بغداد خاصة عدد كبير من شيوخ العلماء وأكابرهم وأشهرهم الغزالي الذي درّس فيها مدة تزيد على السنتين ، وكذلك درس فيها ابن شداد الذي ألف كتاب السيرة اليوسفية أو كما تعرف بسيرة ابن شداد وهي ترجمة حياة صلاح الدين الايوبي وما قام به من أعمال . وقد زارها ابن جبير ابان الحروب الصليبية ووصفها في رحلته المعروفة باسم

---

(١) حاجي خليفة . **كشف الظنون** . حـ ١ . ص ٢٢

رحلة ابن جبير ، وظلت شامخة لم تمس بعد الغزو المغولي تقوم بمهمة التدريس ، وقد زارها الرحالة المسلم الشهير ابن بطوطة عام ١٣٢٧ م ووصفها في رحلته ؛ ثم ذكرها سنة ١٣٤٠ م المؤرخ والرحالة الفارسي حمد الله المستوفى في رحلته عندما زار بغداد وتحدث عن النظامية ، وكذلك نجد ابن الفرات المؤرخ المصري الذي عاش في نفس القرن يصف نظامية بغداد بانها أعظم مدارس بغداد ، وبعد ذلك لم يعد لها ذكر ولم يسمع بأمرها أحد ، فأما انها ادمجت بالمستنصرية التي تأسست بعدها بنحو قرن ونصف أوانها دمرت عندما مر تيمورلنك من بغداد أواخر القرن الرابع عشر [١] .

ومما تجدر ملاحظته ان منصب امين المكتبة شغله اناس هم في الذروة علماً وفضلاً وأدباً ومكانة فهناك الاسفرايني أول خازن لمكتبة النظامية يوصف بأنه شاعر أديب ، ولما توفي حل محله محمد بن أحمد الابيوردي الذي يصفه ياقوت بأن له مصنفات كثيرة جداً [٢] .

وقد أصاب خزانة كتب النظامية ببغداد تصدع واهمال ، مع مرور الزمن ، فجددها الخليفة الناصر لدين الله العباسي سنة ٥٨٩هـ فأمر بعمارة خزانة كتبها ونقل اليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يوجد مثلها [٣] .

وقد كانت هذه المكتبة تحاط بعناية فائقة وتهوى اليها افئدة الطلاب والدارسين ، ومن الأدلة على هذه العناية الفائقة التي كانت تحاط بها هذه المكتبة القصة التالية التي يرويها ابن الاثير في حوادث سنة ٥١٠هـ اذ يقول « وفي هذه السنة وقعت النار في الحظائر المجاورة للمدرسة النظامية ببغداد فاحترقت الاخشاب التي بها وانتقل الحريق إلى درب السلسلة وتطاير الشرر

---

(١) ماكينسن ، ر. س. « أربع مكتبات كبرى في بغداد في العصور الوسطى » في : **المكتبة العضلية** . المجلد الثاني ، (تموز ١٩٣٢) . ص ٢٩٦

(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . جـ ١٧ . ص ٢٣٧

(٣) ابن الاثير **الكامل في التاريخ** . جـ ٨ . ص ٢٢٩

إلى باب المراتب فاحترقت منه عدة دور واحترقت خزانة كتب النظامية وسلمت الكتب لأن الفقهاء لما أحسوا بالنار نقلوها .

كذلك كان كثير من العلماء يوقفون كتبهم على النظامية ، فقد أوقف محب الدين بن النجار صاحب **ذيل تاريخ بغداد** خزانتين من الكتب للنظامية وكان ذلك في النصف الأول من القرن السابع للهجرة وقيمة هذه الكتب ألف دينار [1] .

وقد اختلف عدد الكتب في هذه الخزانة بحسب العصور والأوقات ، ويذكر ابن الجوزي المتوفي سنة ٥٩٧هـ في كتابه **صيد الخاطر** أنه نظر في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية فاذا به يحتوي على نحو ستة الاف مجلد[2] .

هذا وان آخر مدرسة انشئت في بغداد قبل سقوطها بين المغول سنة ٦٥٦ هـ، ولعلها أفخمها ، هي تلك المدرسة التي عرفت باسم مؤسسها الخليفة المستنصر بالله العباسي . وان وصف المؤرخين لهذه المدرسة وللتكاليف التي أنفقت عليها والعناية والرعاية والاهتمام التي احيطت بها يعطي الانطباع انه لم يبن حتى زمانها ما هو أجمل منها او أفخم. وقد كان الخليفة المستنصر بالله العباسي محباً للأدب مشجعاً عليه مقرباً لأهله يقول مؤلف كتاب **خلاصة الذهب المسبوك** « ... يعظم (المستنصر) أهل الدين وينفق على أربابه ويحب أهل الأدب ويقرب منه طلابه ومباره دارة عليهم ، وصدقاته واصلة اليهم . تنبهت الهمم في أيامه وازداد المشتغلون بالعلوم رغبة واشتغالاً ووسعهم بعطاياه العميمة كرماً وأفضالاً وحنى على الامة حنو الشفيق فجبر كسيرهم وأحسن إلى محسنهم وتجاوز عن مسيئهم ، فأصبح الدين ثابت الأركان رفيع البنيان ، ولقد شاع من مكارم أخلاقه ما زاد ضوء النهار الباهر والقمر الزاهر[3]

---

(١) شلبي ، احمد . **تاريخ التربية الاسلامية** . ص ١٧١
(٢) **نفس المصدر** . ص ١٣٣ ـ ١٣٤
(٣) قنيتو الاربلي ، عبد الرحمن سنبط . **خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك** . **بغداد** ، مكتبة المتنبي . ص ٢٨٦

ورغم ان الخليفة المستنصر أنشأ مكتبة خاصة في قصره ، الا ان اسمه لا يقرن بها ، وانما يقرن اسمه بالمدرسة المستنصرية ذلك ان المؤلف نفسه يذكر ان الخليفة المستنصر بالله أوجد لنفسه خزانة كتب « فأما ما خصه الله تعالى به في نفسه من الميل إلى العلوم فأنه لم يزل من أول أمره ومبدأ عمره متشاغلاً بالعلوم الدينية صحيح الضبط ، ومن محبته للعلوم انشأ خزانة الكتب بشريف حضرته ومقدس سترته جمع فيها من أنواع العلوم على اختلافها وتباينها وائتلافها بالأصول المضبوطة والخطوط المنسوبة ما جاوز حد الكثرة [١] . ثم قام الخليفة بالخطوة الثانية وهي انشاء مدرسة سميت باسمه المستنصرية على شاطيء دجلة ، ذلك ان الخليفة أصدر أمره بانشاء مدرسة تدرس فيها المذاهب الفقهية الأربعة وتأتي غرة في جبين بغداد ، وقد بدأ العمل في بنائها سنة ٦٢٥ هـ كما يقول ابن الفوطي وتكامل البناء الرئيسي للمدرسة في جمادي الآخرة سنة ٦٣١ هـ [٢] . وقد عهد بالاشراف على بنائها إلى استاذ الدار مؤيد الدين أبي طالب محمد بن العلقمي وهو الذي تولى عمارتها . ويظهر ان البناء جميعه تكامل على دفعات فقد تم بناء المدرسة الرئيسي في التاريخ المذكور أعلاه ، ولكن اضيفت زيادات وتمت اصلاحات واضافات بعد ذلك التاريخ ، ذلك اننا نرى ابن الفوطي ، وهو قريب عهد بالمشروع وأمضى شطراً مهماً من حياته فيما بعد في المدرسة يقول انه في سنة ٦٣٣ هـ تكامل بناء الايوان الذي انشيء مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم [٣] . كذلك لدينا نص آخر أكثر تفصيلاً يصف حسن المدرسة ، ولكن المهم في هذا النص انه يعطينا لائحة مفصلة بمنهاج الدراسة « ثم انشأ مدرسة على شاطيء دجلة وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة ليحصل بها كمال المنفعة فجاءت محكمة البناء راسخة

---

(١) نفس المصدر .

(٢) ابن الفوطي . **الحوادث الجامعة ...** ص ٥٣

(٣) ابن الفوطي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٨٢

في الماء فسيحة الفناء وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة إلى عنان السماء تضحك شرفاتها بالسرور ويظهر في أبنيتها الفرح والحبور ، ويلمع العز في جوانبها ويطلع السعد من أساسها وأعاليها ، فهي كعبة الانام وقبة الاسلام مجمع سائر الدين ومذاهب المسلمين وعلم الاصول والفروع المتفرق منها والمجموع وعلم القوافي وأحاديث الرسول ومعرفة الحلال والحرام وقسمة الفرائض والتركات وعلم الحساب والمساحات وعلم الطب ومنافع الحيوان وحفظ قوام الصحة وتقويم الابدان . ولما كملت أبنيتها كسيت بأفخر الملابس وتجلت كأحسن العرائس ورتب لها البوابين والفراشين والخدم والطباخين وأسكن لكل مذهب اثنين وستين من الفقهاء وجعل لهم مدرساً وأربع معيدين واجريت لهم بها المشاهرات الوافرة وما يحتاجون اليه من الخبز واللحم والحلوى والفواكه والرز والصابون وجعل فيها طبيب حاذق ماهر وأثبت عنده عشرة من الطلبة يشتغلون عليه في علم الطب وجعل لهم الاكحال السائلة وبنيت لهم صفة فاخرة مقابلة للمدرسة يجلس فيها الطبيب فيقصده المرضى فيداويهم [1] .

ولكن الشيء العجيب المدهش هو صورة الفلك والساعة اللتان ركبتا في جدار تلك الصفة . يقول ابن الفوطي « وبنى في حائط تلك الصفة دائرة وصور فيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات يطاف لها أبواب لطيفة وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين ويقع منهما البندقتان وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات والباب من ذهب فيصير عند ذلك مفضضاً واذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان إلى مواضعهما ثم تطلع أقمار من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ثم يبتدىء

---

(٢) قنيتو الاربلي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧

في الدائرة الاخرى إلى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك أوقات الصلاة ، ونظم الشعراء في ذلك أشعاراً [1] »

ويهول ذلك تاج الدين علي بن الحسن المعروف بابن الساعي فيقول ان هذه منقبة لم يسم اليها الاولون [2] . هذا وقد بنى الخليفة خزانة الكتب ضمن بناء مدرسته ، وكانت من أهم أقسامها وكانت تسمى خزانة الكتب ، ومكان المكتبة هو القاعات الكبيرة الواقعة في القسم الشرقي من عمارة هذه المدرسة يفصل بينهما وبين مدرسة الفقه دهليز طويل عال ، وهذه القاعات ترتفع بارتفاع طابقين ، ولم تكن لها نوافذ بل كان فيها كوى سقفية لا تزال عامرة تكفي للاضاءة والتهوية [3] . وبعد أن تكامل بناء المدرسة أمر الخليفة بتزويد المكتبة بالكتب اللازمة من مكتبته الخاصة التي كان انشأها سابقاً . يقول ابن الفوطي « ... ونقل في هذا اليوم (يوم تكامل بناء المدرسة المستنصرية) إلى المدرسة من الربعات الشريفة والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حمالاً وجعلت في خزانة الكتب [4] »

ولكن هناك رواية اخرى ترفع عدد الكتب بشكل ملحوظ . يقول صاحب كتاب **خلاصة الذهب المسبوك** « ثم جعل فيها خزانة الكتب ونقل اليها من الربعات الشريفة والكتب النفيسة والأصول المضبوطة المحتوية على جميع العلوم مائتين وتسعين حملاً سوى ما نقل اليها بعد ذلك [5] » . كذلك يجعل بعضهم عدد الكتب للتي نقلت يوم الافتتاح ثمانين ألف مجلد أكثرها نفيسة بخطوط منسوبة أو رائقة [6] . والظاهر ان عدد الكتب ازداد فيما بعد زيادة

---

(١) ابن الفوطي • **المصدر المذكور آنفا** • ص ٨٢ ـ ٨٣
(٢) قنيتو الاربلي • **المصدر المذكور آنفا** • ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨
(٣) معروف ، ناجي • **تاريخ علماء المستنصرية** • ص ٢٧٠
(٤) ابن الفوطي • **المصدر المذكور آنفا** • ص ٥٤
(٥) قنيتو الاربلي • **المصدر المذكور آنفا** • ص ٢٨٨
(٦) ابن الفوطي ، ابو الفضل عبد الرزاق • **تلخيص مجمع الآداب في معجم الالقاب** • تحقيق مصطفى جواد • الجزء الرابع ، القسم الاول • دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي • ص ٢٨

هائلة ، ذلك ان ابن الفوطي نفسه الذي أصبح خازناً لمكتبة المستنصرية في أواخر القرن السابع الهجري يذكر انه لم يوجد مثل مكتبة المستنصرية في العالم « قدم علينا بغداد في خدمة أخيه (الكلام عن قطب جهان أبي المحامد حمد بن عبد الرازق الخالدي قاضي قضاة الممالك) سنة ست وتسعين وستمائة ، وحضر عندنا في خزانة كتب المستنصرية في جماعة من علماء قزوين، فلما عاين تلك الكتب المنضدة والتي لم يوجد مثلها في العالم لم يطالع منها شيئاً ولكنه سأل هل تحتوي هذه الخزانة على الهياكل السبعة ؟ فقد كان لي نسخة مذهبة شذت عني أريد أن أستكتب عوضها »[1] . واعتراف ابن الفوطي ، الذي كان خازناً لمكتبة مرصد مراغة قبل أن يصبح خازناً لمكتبة المستنصرية وكان مطلعاً كل الاطلاع على محتوياتها ، بأنه لم يوجد مثلها في العالم دليل وشهادة حية من خبير على ان مكتبة المدرسة المستنصرية كانت أجل وأنفس من خزانة كتب مرصد مراغة على غزارة كتبها التي بلغت أربعمائة الف مجلد .

كذلك يذكر الذهبي في **تذكرة الحفاظ** ، خزانة الرصد وخزانة المستنصرية فيقول « وليس في البلاد أكثر من هاتين الخزانتين »[2] . ويقول الصديقي « وكانت خزانة كتبها (المستنصرية) عديمة المثال »[3] . وقد نظمت هذه المكتبة بشكل علمي دقيق حتى يسهل استعمالها « وتقدم (الخليفة) إلى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور للمدرسة واثبات الكتب واعتبارها ، وإلى ولده العدل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصلاً لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها[4] » . وقد حوت هذه المكتبة عدداً من الكتب النادرة ، فقد ذكر

---

(١) **نفس المصدر** .
(٢) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . ص ٢٧٠
(٣) **نفس المصدر** .
(٤) ابن الفوطي . **الحوادث الجامعة** ... ص ٥٤

أنه كان من بين محتويات خزانة كتب المدرسة المستنصرية نسخة من كتاب الياسة الذي يحوي القواعد والعقوبات التي قررها جنكيز خان وجعلها شريعة لقومه [1] ، كذلك حوت فيما قيل نسخة من كتاب تاريخ بغداد تقع في أربعة عشر جزءاً وكانت مكتوبة بخط المؤلف [2] . وقد استفاد العلماء والاساتذة والطلاب من هذه المكتبة فائدة جلى ونهلوا من علومها ، كما كانت مرجعاً لطلاب العلم والعلماء والبحاثة خارج المستنصرية ولطالما قصدها الكثيرون منهم وترددوا اليها وأفادوا من كنوزها العلمية والادبية نحو قرنين من الزمن. وقد أوقف الخليفة أوقافاً نفيسة غنية جليلة من أجل دوام واستمرار تغذية مؤسسته ، وخص المكتبة والمشرفين عليها بنصيب موفور من أوقافه ، كما وأنه زود المكتبة بالحبر والورق والأقلام وسائر أدوات الكتابة والنسخ وذلك بالمجان ، كذلك اشترط الخليفة أن يكون في دار الكتب التي هي الخزانة عشرة أشخاص يشتغلون بعلم الحديث النبوي ، ويكون لهم شغلان يشغلان الطلبة بعلم الحديث النبوي ورتب عندهم شيخ على الاسناد يقرأ عليه الحديث [3]

ونحب أن نذكر ان بناء المدرسة المستنصرية لا يزال قائماً في بغداد حتى أيامنا هذه ، وان كان لحقه كثير من التغير والتعديل. وقد شاهدت المستنصرية الغزو المغولي لبغداد سنة ٦٥٦ هـ ونجت منه ، ربما بجراحات غير قاتلة ، واسترزدت قوتها بعده وظلت تقوم بمهمتها العلمية فترة طويلة من الزمن ، وعندما زار ابن بطوطة في سنة ١٣٢٧ م بغداد وجدها قائمة شامخة تدور فيها المناظرات وتقام فيها الدروس ، ولا ندري بالضبط متى توقف سير الدروس فيها وانتهبت خزانتها ، ولما زار الرحالة نيبور بغداد في سنة ١٧٥٠ م وجد البناء على حاله ولكنه لم يكن مدرسة وانما كان آنذاك مستعملاً مكاناً للموازين ، ولقد كانت لا تزال قائمة على شاطىء دجلة عند جسر القوارب في الوقت الذي

---

(١) المقريزي . **الخطط المقريزية** . جـ ٣ . ص ١٤٦
(٢) حاجي خليفة . **كشف الظنون** . جـ ١ . ص ٢٨٨
(٣) قنيتو الاربلي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٨٨

كتب فيه مؤلف مادة بغداد في دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الاولى مادته هذه (الجزء الاول ، الصفحة ٥٦٧ من النص الانكليزي) ، وكانت مستعملة حتى عهد قريب كمركز للجمارك . ومما يجدر ذكره أن نيبور الرحالة قرأ على جدار مطبخ المستنصرية نقشاً يقول ان الفراغ من بنائها كان سنة ٦٣٠ ه على حين يجمع المؤرخون على ان الفراغ من بنائها كان سنة ٦٣١ ه[1] .

لا نحب أن نترك هذا الموضوع دون أن نذكر أن بناء المدارس انتشر في الاسلام انتشاراً هائلاً ، ومدن سورية ومصر والعراق مليئة بالمدارس ، وقد الحق بجميعها مكتبات ، فنور الدين الشهيد بنى مدرسة في دمشق والحق بها مكتبة وكذلك فعل صلاح الدين وأفراد أسرته من بعده ، والشيء نفسه قام به عدد عظيم من أمراء المسلمين وكبرائهم وأغنيائهم ، فالقاضي الفاضل وزير صلاح الدين أسس مدرسة اسماها باسمه الفاضلية في القاهرة وأودع فيها حوالي مائة ألف مجلد مما أخذه من خزائن الفاطميين ، ويذكر ياقوت الحموي عدة مدارس في مرو في زمانه تحوي مكتبات ضخمة وكانت أبوابها مفتوحة للجميع وهكذا . لذلك لا نرى فائدة من تعداد هذه المدارس ووصف خزائن كتبها اكتفاء بالنماذج التي قدمناها عنها .

مكتبات المشافي :

من مآثر الاسلام الكبرى عنايته بالمرضى واهتمامه بعلاجهم وايجاد الأماكن اللازمة لمعالجتهم وتطبيبهم وقد اهتم أوائل الخلفاء بهذه النواحي . فنقرأ في كتب التاريخ أن الخليفة الاموي الوليد بن عبد الملك اهتم بالمرضى فعزل المجذومين في أماكن خاصة وأوقف عليهم من يهتم بهم ، كذلك عين لكل أعمى قائداً يهديه السبيل إلى غير ذلك من الاخبار ، ومع تقدم الزمان ورقي الحضارة واستجار العمران انشئت المشافي ، وقد استعمل المسلمون لها الكلمة

---

(١) ماكينسسن ، ر. س. « أربع مكتبات كبرى في بغداد في العصور الوسطى » في **المكتبة العضلية** . المجلد الثاني (تموز ١٩٣٢) . ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨

الفارسية مارستان أو بيمارستان وتعني بيت المرضى ، وقد انشأ الخلفاء والحكام المشافي في طول البلاد وعرضها ، فقد أوجد عضد الدولة البويهي في القرن الرابع الهجري مارستاناً في بغداد سمي باسمه فظل فترة طويلة يستقبل المرضى ويهتم بهم . كذلك انشأ نور الدين الشهيد في دمشق في القرن السادس الهجري مارستاناً . وفعل ذلك ملوك المماليك وحكامهم في مصر وسورية ؛ وقد الحق بهذه المشافي مكتبات حافلة تضم ثمرات العقول لأن المستشفى لم يكن مكاناً للتطبيب والتمريض فحسب ، وانما كان أيضاً مكاناً لتعليم طلاب الطب الامراض وطرق معالجتها فكان مكاناً للتدريب العملي ومكاناً للدراسة النظرية ، والمشافي التي عندنا أخبار عن مكتباتها هي البيمارستان العضدي فقد الحقت به مكتبة ضخمة كانت مصدراً أساسياً للطلاب والأساتذة على السواء ، وكذلك كانت الحال في المارستان النوري في دمشق ، ذلك ان نور الدين الشهيد الذي حكم قسماً من العراق وسوريا ومصر عمر بيمارستاناً في دمشق وأطلق عليه اسمه ، فلما عمر البيمارستان جعل أمر الطب فيه إلى الطبيب أبي المجد بن أبي الحكم المتوفى سنة ٥٧٠ هـ . وكان يعود على المرضى فيه ، وكان يعتبر أحوالهم وبين يديه المشارفون والخدام للمرضى ، وكل ما يكتبه للمرضى لا يؤخر عنهم ، فاذا فرغ من ذلك طلع القلعة وافتقد مرضى الساطان وغيرهم وعاد إلى البيمارستان وجلس في الايوان الكبير ، وجميع الايوان مفروش ، ويحضر كتب الأشغال . وكان نور الدين قد أوقف جملة كثيرة من الكتب الطبية . وكانت في الخزانتين اللتين في صدر الايوان ، وكان جماعة الاطباء والمشتغلين يأتون اليه ويجلسون بين يديه ، ثم تجرى مباحث طبية وتقرأ التلاميذ ولا يزال معهم في اشغال ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات ثم يركب بعد ذلك كله إلى داره بدمشق [1] .

كذلك يورد المقريزي ذكر مكتبة ملحقة بالمارستان المنصوري في القاهرة

---

(١) النعيمي ، عبد القادر . **الدارس في تاريخ المدارس** . تحقيق جعفر الحسني . دمشق ، مطبعة الشرقي ، ١٩٥٣ م . ص ١٣٧ ـ ١٣٨

في زمانه [1] . وقد بلغت بعض المكتبات الملحقة بالمشافي حداً ضخماً ، فقد ذكر ان عدد الكتب التي وجدت في مستشفى قلاوون في القاهرة حوالي مائة الف مجلد أخذت أغلبها من دار الحكمة في القاهرة [2] .

أنواع اخرى من المكتبات :

هناك أنواع أخرى من المكتبات أقل شهرة وأقل أهمية وذيوعاً مما ذكرنا من المكتبات ، منها المكتبات التي كانت تلحق بالترب والمقابر ، ذلك ان العادة جرت أن يلحق بقبور العظماء والملوك والاغنياء مكان لقراءة القرآن بشكل شبه متصل وأن تلحق به مكتبة صغيرة فيها بعض الكتب الدينية ، وان كان بعضها قد بلغ حداً من الفخامة لا بأس به. كذلك كان هناك مكتبات في الخانقاه ، وبعضها مهم حتى اننا نجد ياقوت الحموي يذكر مكتبة كبرى في مرو في خانقاه هناك [3] . وقد اعتاد بعض الحكام أن ينقلوا معهم بعض الكتب التي يحتاجونها أثناء سفرهم ، وقد ذكرنا سابقاً قصة الصاحب بن عباد وكيف أنه كان يصطحب معه أثناء سفره من الكتب ما حمولته عشرة جمال فلما صدر كتاب **الاغاني** لأبي الفرج الاصفهاني استغنى عن ذلك اكتفاء بكتاب **الاغاني** ، وقد اعتاد بعض حكـــام المغرب الاقصى (مراكش) في العصور المتأخرة أن يصطحب معه مكتبة متنقلة أثناء سفره فقد ورد ذكر مثل هذه المكتبة في كتاب **أحكام القرآن** لابي بكر محمد بن عبدالله المعافري بن عربي ... يروي المؤلف ... خبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالاسكندرية في سنة سنتين وسبعمائة قال رأيت تأليف القاضي أبي بكر بن العربي في تفسير القرآن المسمى أنوار الفجر كاملاً في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عنان فارس ابن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي

---

(١) المقريزي · **الخطط المقريزية** · حـ ٣ · ص ٣٢٢

(٢) فنسك ، (محرر) **دائرة المعارف الاسلامية** · ليدن ، بريل ، ١٩٠٩ ــ ١٩٣٨ م · حـ ٣ · ص ٣٦١

(٣) ياقوت الحموي · **معجم البلدان** · حـ ٨ · ص ٣٦

ابن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الله ، وكان السلطان أبو عنان آنذاك بمدينة مراكش ، وكانت له خزانة كتب يحملها معه في الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فعددت أسفارها فبلغت عدتها ثمانين مجلداً لم ينقص من الكتاب المذكور شيء [1] .

نستطيع أن نشبه هذه المكتبات بالمكتبات المتنقلة التي انتشر استعمالها في بلاد الغرب ، مع شيء من التجوز ، اذ ان الاولى خاصة بالملوك والكبراء على حين ان مهمة الثانية خدمة أفراد الشعب البعيدين عن مراكز المكتبات الكبرى والعامة .

لقد شط بنا القلم قليلاً في هذا الفصل وفي الفصل السابق ولكن شفيعنا في ذلك وفرة المواد وتنوع الموضوعات وتعدد النماذج مما اضطرنا إلى هذا التوسع الذي نرجو أن يجد فيه القارىء فائدة ومتعة .

---

(١) ابو بكر المعافري ، محمد بن عبد الله بن عربي · **أحكام القرآن** · القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١ هـ · المقدمة ص أ ــ ب ·

الفَصْلُ السَّادِسُ

تنظيمُ المَكتَبات الاسلاميَّة

ليس المهم في أية مؤسسة من المؤسسات أو معهد من المعاهد ، وجود المؤسسة أو المعهد حتى تقوم بالمهمة التي وجدت المؤسسة أو المعهد من أجلها ، ولا تشذ عن ذلك المكتبات . فليس المهم وجود المكتبة فقط ولا وفرة الكتب فيها ولا أهميتها ولا غير ذلك من الأشياء ، انما يجب أن يتوفر إلى جانب جميع هذه النواحي ناحية تنظيمية مهمة هي كيفية تنظيم المواد في المكتبة وحسن ادارة المكتبة . ولقد كانت المكتبات في الاسلام منظمة تنظيماً رائعاً جيداً نحسدها عليه نحن العرب أبناء القرن العشرين ، بحيث مكنها هذا التنظيم من خدمة قرائها أفضل خدمة ممكنة بالنسبة لمقاييس ذلك الزمان ، وسنبحث فيما يلي النواحي المختلفة للتنظيم من ادارية وفنية ومالية وخدمة للقراء وما يتعلق بها من امتلاك للكتب واعارتها ... الخ .

لم يكن للمكتبات أول الأمر أبنية خاصة بها ، ولا ندري شيئاً عن هذا الموضوع بالنسبة للمكتبات الاولى أمثال مكتبات خالد بن يزيد وبيت الحكمة في بغداد ، وان كان يغلب على الظن ان المكتبة كانت جزءاً غير مستقل عن المؤسسة نفسها . أما المكتبات الكبرى كدار الحكمة التي أسست على يد الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة سنة ٣٩٥ هـ فقد كان لها بناء مستقل خاص بها أسس منذ اللحظة الأولى ليكون مكتبة ، وكذلك فقد كان عدد غرف مكتبة الخلفاء الفاطميين أربعين غرفة في القصور الداخلية مما يوحي باتساع هذه المكتبة التي تضارع أضخم المكتبات العالمية في زماننا هذا . والشيء نفسه يقال عن مكتبة دار العلم في بغداد التي أسسها سابور بن اردشير اذ اشترى لها

داراً خاصة بها ، وكذلك الحال مع بقية المكتبات الاخرى في البصرة والموصل والري ومرو .. الخ اذ نفهم من النصوص التي بين أيدينا أن هذه المؤسسات كانت في دور خاصة مستقلة بها . أما مكتبات المساجد والجوامع والمشافي والمدارس فهذه كانت غالباً ملحقة بالمؤسسة التي وجدت من أجل خدمتها .

ولقد ألحق بأغلب المكتبات الكبرى غرفة أو أكثر أعدت للنسخ فيجلس فيها النساخ على مراتب مهيئة لهم وبشكل معين وينسخون الكتب التي يطلب منهم نسخها ، وكان هناك موظف أو أكثر — حسب الحال — مهمته جلب الكتب إلى النساخ وخدمتهم كما كان الحال في مكتبة سابور العامة في بغداد حيث كانت توفيق الجارية السوداء تخرج الكتب إلى النساخ [١] .

كذلك كانت تزود المكتبات بالبسط والسجاجيد والستائر وجميع أنواع الأثاث الذي يساعد الانسان على المطالعة ويوفر له الراحة كما هو الحال في دار الحكمة في القاهرة التي لم تفتح أبوابها للجمهور الا بعد أن فرشت وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور [٢] . وكان هناك غرف خاصة للمطالعة وغرف اخرى من أجل المناظرة والبحث والاجتماعات والمحاضرات وحتى وجدت مكتبات حوت غرفاً من أجل العزف الموسيقي [٣] . وكان يعلق ستارة سميكة غليظة في فصل الشتاء على المدخل الرئيسي للمكتبة لمنع دخول الهواء البارد . وقد زودت الغرف المعدة لخزن الكتب بالأرفف اللازمة لذلك . وكان أغلب الرفوف مفتوحاً بدون أبواب والوصول اليها حر . ولكن حدث ان بعض المكتبات وضعت أبواباً لرفوفها مع مفصلات وأقفال لحماية كنوزها الثمينة من أن تعبث بها أيدي العابثين أو تمتد اليها أصابع الطامعين كما كان الحال في مكتبة العزيز بالله القاضي التي كانت موجودة في أحد

---

(١) ابو العلاء المعري • **رسالة الغفران** • ص ٢٧٩
(٢) المقريزي • **الخطط المقريزية** • ج ٢ • ص ٣٣٧
(٣) بنيتو ، اولغا • **المصدر المذكور آنفا** • ص ٢٢٧

مجالس البيمارستان العتيق [1] . وقد درجت أغلب المكتبات على عادة تزويد روادها بالحبر والاقلام والأوراق والمحابر وكل شيء يساعد على النسخ ، كما نفهم من نص المقريزي ومن غيره من النصوص [2] ، حتى لقد غالى بعضهم في ذلك فقد وجد في احدى مكتبات نيسابور خمسمائة دواة معدة لمن يريد أن يكتب [3] .

وقد أضافت بعض المكتبات الكبرى إلى مجموعاتها من الكتب مواد اخرى ليست كتباً كالادوات الفلكية ونحوها ؛ فقد روى أنه كان من بين مقتنيات مكتبة العزيز بالله الفاطمي كرتان أرضيتان نحاسيتان الاولى قديمة جداً والثانية عملها لعضد الدولة الفلكي وأبو حسن الصوفي [4] .

وقد كانت المكتبات الكبرى توضع تحت ادارة ثلاثة أشخاص : المشرف الاعلى ويسمى الوكيل ، وأمين المكتبة ويسمى الخازن ومساعد ويسمى المشرف ؛ وطبعاً تتغير هذه الأسماء مع الزمن وبالنسبة لمختلف المؤسسات وطبيعتها ووظيفتها وحجمها ، ولكن حوفظ على هذا النظام الثلاثي وان كان هناك تغيير في أسماء المناصب ؛ فالمدرسة المستنصرية تولى الاشراف على شؤون مكتبتها ثلاثة موظفين سمي الاول خازناً والثاني مشرفاً والثالث مناولاً [5]
وقد تولى ادارة المكتبات الاسلامية مدى الازمان رجال هم في الذروة من مجتمعهم حسباً ونسباً وعلماً وفضلاً وأدباً وأمانة وصدقاً ، ولكن هذا النظام أوجد بعض الاحيان تضارباً بالسلطة ، لأن سلطة كل من الأشخاص في هذا النظام الثلاثي لم تكن واضحة تماماً أو محددة بالضبط ، بل وجد تداخل في الاختصاصات وتضارب في الصلاحيات ولا سيما اذا وجد شخصان أحدهما

---

(١) المقريزي . **المصدر المذكور آنفا** . ح ٢ . ص ٢٥٤
(٢) **نفس المصدر** . ح ٢ . ص ٣٣٧
(٣) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** . ح ٢ . ص ٢٢٣
(٤) خدابخش ، صلاح الدين . **مجلة القرن التاسع عشر** . (الجزء الثاني والخمسون) ، سنة ١٩٠٢ م . ص ١٣٣
(٥) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . ص ٢٧٤

ذكي قوي الشخصية والآخر أضعف شخصية وأقل ذكاء من الاخر وحاول الاقوى استغلال الاضعف كما تدل عليه القصة التالية التي يرويها ياقوت عن خازن مكتبة سابور بن أردشير . يقول ياقوت « كان بدار العلم التي أوقفها سابور بن اردشير الوزير خازن يعرف بأبي منصور ، واتفق بعد ذلك بسنين كثيرة من وفاة سابور ان آلت مراعاة الدار إلى المرتضى أبي القاسم علي بن الحسن الموسوي نقيب الطالبين فرتب معه آخر يعرف بأبي عبد الله بن حمد مشرفاً عليه ، وكان داهية فعمد لأبي منصور كيداً ومكراً فصار يتلهى به دائماً فمن ذلك أنه قال له يوماً قد هلكت الكتب وذهب معظمها فقال له وانزعج بأي شيء قال بالبراغيث وعبثهم بها قال فما تفعل في ذلك ؟ قال تقصد الاجل المرتضى وتطالعه بالحال وتسأله اخراج شيء من دوائهم المعد عنده لهم لننشره بين الورق فيؤمن الضرر . فمضى إلى المرتضى وخدمه وقال له بسكون ووقار ومن طريق النصح والاحتياط : يتقدم سيدنا الاجل إلى الخازن باخراج شيء من دواء البراغيث فقد اشرفت الكتب على الهلاك بهم لنتدارك أمرهم بتعجيل اخراج الدواء المانع لهم المبعد لضررهم ؛ فقال المرتضى : البراغيث البراغيث مكرراً لعن الله ابن حمد فأمره كله طنز وهزل قم أيها الشيخ مصاحباً ولا تسمع لابن حمد نصيحة و لا قولاً »[1] .

تدلنا هذه القصة على التسلسل في السلطة وان الوكيل في رأس الهرم يتلوه المشرف فالخازن ، وهي تدلنا أيضاً على مقدار العبث الذي يمكن أن يحصل في مثل هذه الحالات وهذه الأوضاع ، وتدلنا أيضاً على ان المسلمين أوجدوا دواء للعث والارضة التي تأكل أوراق الكتب وكان بامكانهم استعماله لمنع تفتت أوراق الكتب وقتل العث والارضة . وطبعاً كان هناك فراشون وبوابون وخدم في جميع المكتبات من أجل خدمة المكتبة وصيانتها وتنظيفها ومن أجل خدمة القراء ، إلى جانب عدد من النساخ والمجلدين والخطاطين يختلف عددهم بحسب حجم المكتبة وبحسب امكاناتها المادية ومتطلباتها .

---

(١) ياقوت الحموي • معجم الادباء • حـ ١٧ • ص ٢٦٧ ــ ٢٦٨

وقد تولى ادارة المكتبات الاسلامية ألمع الشخصيات وأذكاهم ، والواقع ان قسماً كبيراً من سمعة المكتبات الاسلامية وعظمتها وأهميتها يعود إلى الرجال الذين تولوا القيام بمهامها وأمورها ، فاذا استعرضنا أسماء هؤلاء المكتبيين لاحظنا فوراً أنهم رجال أدب وعلم وفضل، وان كثيراً منهم ذكروا على أنهم رجال أدباء ولهم المؤلفات الرائقة والتصانيف الفائقة .

فقد ذكرنا سابقاً امناء مكتبة بيت الحكمة وذكرنا مكانتهم العلمية ومؤلفاتهم وأثرهم وما كان منهم ؛ كذلك كان ابن مسكويه المؤرخ الشهير مؤلف كتاب **تجارب الامم** ... وكتاب **التاج في الاخلاق** خازناً لمكتبة عضد الدولة وبعض الاحيان خازناً لمكتبة ابن العميد .

وقد استخدم الفاطميون أيضاً أشهر الرجالات وجعلوهم امناء لمكتباتهم ، فقد روى ان علياً بن محمد الشابشتي كان حلو المعاشرة وكان اديباً فاضلاً اختص بخدمة العزيز بالله فولاه أمر خزانة كتبه وكان يقرأ له الكتب وينادمه وله عدة تصانيف منها **كتاب الديارات وكتاب مراتب الفقهاء** وغيرها ، وتوفي الشابشتي هذا سنة ٣٩٠ هـ [1] .

وقد سبق وذكرنا الشريف المرتضى الذي كان وكيلاً لمكتبة سابور بن اردشير ، والشريف المرتضى هو صاحب المساجلة المشهورة مع أبي العلاء المعري حول المتنبي ، وذلك عندما زار هذا الأخير بغداد واجتمع بعلمائها وأعلامها وأعيانها وفضلائها ومن جملتهم الشريف المرتضى. وقد ورد ذكر ثلاثة مكتبيين خدموا في مكتبة سابور في كتب أبي العلاء أولهم أبو منصور الخازن الذي وجه له أبو العلاء الرسالة التاسعة عشرة من رسائله وورد ذكره في رسالة الغفران أيضاً . كذلك يرد ذكر أبي أحمد عبد السلام بن الحسين البصري الخازن في رسائل أبي العلاء ويقول عنه أبو العلاء « وكان لي صديقاً صدوقاً [2] » . وكان عالماً أديباً قارئاً للقرآن والقراءات ، وكان من حسن

---

(١) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . حـ ٣ . ص ٨ .
(٢) **نفس المصدر** . حـ ٦ . ص ٧٠

الناس تلاوة للقرآن وانشاداً للشعر ، وربما اعتراه السائل وليس معه ما يعطيه فيدفع اليه بعض كتبه المتقومة ، تولى الاشراف على دار الكتب في بغداد وتوفي سنة ٤٠٥ هـ[١] .. وعندما ذكر أبو العلاء خازن دار العلم في شعره قال بعض شراح سقط الزندانه عنى بخازن دار العلم هلال بن المحسن الصابي[٢] .

وهناك عدد من الادباء الاعلام الذين ورد ذكرهم على أنهم أمناء لمكتبة المدرسة النظامية في بغداد ، منهم أبو يوسف الاسفرايني الذي كان شاعراً وأديباً وكان أول خازن للمكتبة ولما مات الاسفرايني سنة ٤٩٨ هـ حل محله في الاشراف على خزانة كتب النظامية محمد بن أحمد الابيوردي وله مصنفات كثيرة جداً [٣] . كذلك يذكر ياقوت علياً بن أحمد بن بكري فيقول «أبو الحسن خازن دار الكتب بالنظامية مات سنة ٥٧٥ هـ ... وله معرفة جيدة بالادب ... وكان فاضلاً عارفاً حسن الأمر مليح الخط جيد الضبط قد كتب من كتب الادب الكثير الذي يفوته الحصر [٤] .

وأما مكتبة المستنصرية فأننا نعرف بشكل جيد أسماء عـــدد ممن ولى الاشراف على شؤونها ، فقد عين الخليفة عند افتتاح المدرسة الشمسي علي بن الكتبي خازناً للمكتبة ، وعين العماد علي بن الدباس مشرفاً وعين الجمال ابراهيم بن الحذيفة مناولاً ، وقد خلع الخليفة على جميع من اشترك في عمارة المدرسة ومن جملتهم امناء المكتبة .

ومن أشهر من تولى أمر خزانة كتب المدرسة المستنصرية اثنان اشتهرا بأنهما من المؤلفين المبرزين في زمانهما : الأول ابن الفوطي الذي مر ذكره معنا سابقاً ، فقد كان خازناً لمكتبة مرض مراغة ثم عين مشرفاً ومن ثم خازناً لمكتبة المدرسة المستنصرية ويوصف بأنه كاتب مؤرخ فيلسوف كان حسن

---

(١) ابو العلاء المعري . شروح سقط الزند . ص ١٥٨٣

(٢) نفس المصدر .

(٣) ياقوت الحموي . المصدر المذكور آنفا . حـ ١٧ . ص ٢٣٧

(٤) نفس المصدر . حـ ١٢ . ص ٢٧٤

لحظ جداً كتب به كثيراً جداً ... الف في التاريخ وسماه مجمع الآداب في معجم الأسماء وعلى معجم الألقاب وهو مطول وله ملخص نشر اسمه تلخيص معجم الآداب ، وله كتاب آخر في التاريخ اسمه كتاب الحوادث الجامعة ... والف أشياء كثيرة جداً ولم تصلنا لأن كتبه احترق أغلبها أثناء المؤامرة التي دبرت لقتله ، وتوفي ابن الفوطي سنة ٧٢٣ هـ [١] .

وأما الثاني فهو ابن الساعي تاج الدين علي بن أنجب الخازن المؤرخ وقد كان اماماً حافظاً مبرزاً على اقرانه فقيها بارعاً قارئاً للسبع محدثاً مؤرخاً شاعراً لطيفاً كريماً . وقد عني عناية كبرى في التاريخ وألف فيه كثيراً من المؤلفات ، رتب خازناً في دار الكتب المستنصرية وكذلك كان بالمدرسة النظامية ولذلك لقب بالخازن فيما يظهر [٢] . وتوفي ابن الساعي سنة ٦٧٤ هـ . وأشهر كتبه اطلاقاً تاريخه الكبير في بغداد .

وقد اهتم المسلمون أيضاً بفهرسة مكتباتهم وتصنيفها وتنظيمها بحيث يسهل تناولها ويسهل استعمال كتبها على الباحثين والدارسين . والواقع نجد ان أوائل مؤسسي المكتبات انتبهوا لأهمية الفهارس ووظيفتها ، فقد حدث الحسين بن سهل قال « قال له المأمون يوماً أي كتب العجم اشرف ؟ فذكرت كثيراً ثم قلت خاويدان خرد (يتيمة السلطان) يا أمير المؤمنين ، فدعا المأمون بفهرست كتبه وجعل يقلبه فلم ير لهذا الكتاب ذكراً فقال كيف سقط ذكر هذا الكتاب من الفهرست ؟ [٣] .

ولقد كانت الفهارس على نوعين : اما أن تكون مكتوبة في مجلدات تستعمل كالكتب فيرجع اليها المطالع من أجل معرفة محتويات المكتبة ، واما أن تكون أسماء الكتب والمؤلفين مكتوبة على لائحة معلقة على مدخل كل قسم من الاقسام . ونجد كلا النوعين شائع الاستعمال ؛ فقد ذكر ان فهارس

---

(١) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** ٢٩٦ ــ ٢٩٧

(٢) **نفس المصدر** . ص ٢٨٠

(٣) كرد علي ، محمد **رسائل البلغاء** . ص ٤٧٩ ــ ٤٨٠ ؟

مكتبة الري التي وقفها الصاحب ابن عباد على مدينته بلغت عشرة مجلدات [١] . كذلك بلغت عدة فهارس الدواوين الشعرية في مكتبة الحكم الثاني خليفة قرطبة أربعة وأربعين فهرساً في كل فهرس عشرون ورقة ؛ فكيف بفهارس سائر الموضوعات ؟ ذلك ان مكتبة الحكم كانت مرتبة حسب المواضيع أي ان كل موضوع له فهارسه الخاصة به وهذا يشبه ما يسمى الآن بالفهرسة الموضوعية او الفهرسة حسب الموضوعات . ولم تخل المكتبات الصغرى ، بل وحتى مكتبات المساجد من فهارس لها ، فقد ذكر ياقوت أثناء حديثه عن البيروني العالم الشهير أنه شاهد فهرست كتبه في وقف الجامع بمرو ، واليك نص ما ذكره ياقوت « ... وأما سائر كتبه في علوم النجوم والهيئة والمنطق والحكمة فانها تفوق الحصر رأيت فهرستها في وقف الجامع بمرو في نحو الستين ورقة بخط مكتنز [٢] . »

وقد وجد لخزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد فهرست نظر فيه ابن الجوزي في القرن السابع ويسميه ثبت كتبها ، وقد عرف منه ان محتويات الخزانة كانت حوالي ستة الاف مجلد .

وعندما أسس الخليفة المستنصر بالله العباسي مدرسته المستنصرية وجعل المكتبة قسماً أساسياً من أقسامها تقدم إلى الشيخ عبد العزيز شيخ رباط الحريم بالحضور للمدرسة واثبات الكتب (فهرستها) واعتبارها ، وإلى ولده العدل ضياء الدين احمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً فحضر واعتبرها ورتبها احسن ترتيب [٣] . وقد قيل في تعليل ذلك « ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها [٤] » .

---

(١) ديورانت ، و ل . **قصة الحضارة** . ١٣ جـ . ص ١٧٠
(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ١٧ جـ . ص ١٨٥
(٣) ابن الفوطي **المصدر المذكور آنفا** . ص ٥٣
(٤) **نفس المصدر** .

أما النوع الآخر من الفهارس فهو الفهرست الذي يحوي أسماء قسم من الاقسام ، واللائحة ملصقة على مدخل ذلك القسم كما كان الحال عليه في مكتبة القصر في قصر الخلفاء الفاطميين في القاهرة « فمنها الفقه على سائر المذاهب والنحو واللغة وكتب الحديث والتواريخ وسير الملوك والنجامة والروحانيات والكيمياء من كل صنف ... كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة وما فيها من المصاحف الكريمة ... »[1] والشيء نفسه يقال عن خزانة عضد الدولة في شيراز اذ كان لكل نوع من أنواع الكتب بيوت وفهرسات فيها أسامي الكتب[2] . وأما التصنيف ، فقد كان ولا يزال — مفتاح البحث والدرس ، وكانت أغلب المكتبات الاسلامية مصنفة حسب المواضيع ، فهذا ابن سينا يدخل مكتبة بخارى التي أسسها السلطان نوح بن منصور الساماني فيجدها مصنفة حسب المواضيع وقد خصص لكل علم بيت خاص به ، فقد وجد في بيت كتب العربية والشعر ، وفي آخر الفقه وكذلك في كل بيت كتب علم مفرد وطالع فهرست كتب الاوائل وطلب ما احتاج اليه[3] ... والشيء نفسه صحيح بالنسبة لمكتبة الحاكم بأمر الله والمكتبات النظامية والمستنصرية وأغلب المكتبات المهمة . وقد وجد صلاح الدين الايوبي مكتبة الخلفاء الفاطميين في أواسط القرن السادس الهجري مفهرسة مصنفة ، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة بالمعروف[4] .

على ان ترتيب الكتب على الرفوف في تلك المكتبات اختلف عن ترتيبنا الحالي لها ، وذلك اننا نضع اليوم الكتب على الرفوف قائمة متلاصقة وقد كتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب على ضلع الكتاب ، ولكنهم كانوا آنذاك يضعونها على الارفف مستلقية الواحد فوق الآخر بحيث تكون المجلدات ذات الحجم

---

(١) المقريزي **الخطط المقريزية** . حـ ٢ . ص ٢٥٤
(٢) المقدسي ، **المصدر المذكور آنفا** . ص ٤٤٩
(٣) القفطي **اخبار الحكماء** ص ٤١٦
(٤) ابو شامة **كتاب الروضتين** ... حـ ١ . ص ٢٦٨

الكبير والضلع الكبير في الاسفل ، والصغرى وذوات الضلع الصغير في الاعلى حتى لا تتساقط ، أما عنوان الكتاب واسم مؤلفه فلم يكونا يكتبان على ضلع الكتاب كما هو متبع الآن ، وانما كتبا على أطراف صفحات الكتاب ومن الجهة الخارجية للرف وفي مواجهة الشخص الذي يبحث عن كتاب معين ، ويبدو لنا ذلك واضحاً من مخطوط مصور لمقامات الحريري حيث صورت فيه بالألوان صورة لمكتبة اسلامية من العهود المتأخرة وقد نضدت الكتب كما ذكرنا ؛ وأما الكتب الثمينة أو الدروج فقد خصصت لها صناديق في حجم كل كتاب و كتب اسم المؤلف وعنوان الكتاب على جانب الصندوق .

مالية المكتبات :

لا ندري بالضبط ، وليس لنا سجلات كافية لنعرف موازنة هذه المكتبات مدى العصور ، ولكن يبدو من الملاحظات الواردة هنا وهناك ان المال الذي كان ينفق على هذه المعاهد غير قليل بحال من الاحوال . كذلك أوقف مؤسسو هذه المكتبات الاوقاف السخية ليضمنوا استمرارها وحسن ادائها لمهمتها التي أوجدت من أجلها بعد وفاة مؤسسها . وقد ذكرنا المأمون وانفاقه بسخاء على مؤسسته بيت الحكمة في بغداد وذكرنا أنه كان يعطي بعض النقلة زنة ما ينقله الى العربية مثلاً بمثل . يقول سيد أمير علي في كتابه **مختصر تاريخ المسلمين** : « لم يشأ (المأمون) أن تعتمد قضية المعرفة على اريحية الخلفاء أو رجال الدولة وعظمائها المتقلبة واهوائهم الذاتية ، ولذلك فقد جعلها تعتمد على موارد دائمة منظمة ، وذلك بخلقه وايجاده احباساً دائمة مستمرة من أجل تقدمها وتزويدها بما تحتاجه ، معبراً في ذلك عن احترام حقيقي لكرامة الادب والأدباء [1] .

كذلك ذكرنا أبناء شاكر وأنهم كانوا ينفقون في الشهر على النقل والملازمة مقدار خمسمائة دينار ، وان الوزير ابن الزيات كان ينفق في الشهر ألف دينار

---

(١) امير علي ، سيد . **مختصر تاريخ المسلمين** . لندن ، ماكميلان ، ١٩٢١ م . ص ٢٧٤

لنفس الغرض . ولقد بلغت نفقات العزيز بالله الفاطمي التي كان ينفقها على المجلدين والوراقين والعلماء الف دينار في الشهر الواحد ، فقد ذكر ان الوزير ابن كلس كان يحب أهل العلم والادب ويقربهم ، وكان يجري بأمر العزيز بالله ألف دينار في كل شهر على جماعة من أهل العلم والوراقين والمجلدين [1] . ولقد أوقف جميع بناة هذا النوع من المؤسسات أوقافاً ضخمة تكفي لصيانة واستمرار معاهدهم بعد وفاتهم كما فعل نظام الملك وسابور بن اردشير والحاكم بأمر الله والحكم الثاني والمستنصر بالله العباسي وغيرهم ... وقد حفظ لنا المقريزي نص وقفية الحاكم بأمر الله على معهده دار الحكمة في القاهرة ، فقد أوقف الحاكم بأمر الله أماكن في فسطاط مصر على عدة أعمال خيرية وضمنها كتاباً ثبته عند قاضي القضاة مالك بن سعيد وقال فيه مخصصاً دار الحكمة بما يلي :

ثمن الورق للنسخ	٩٠ ديناراً
راتب الخازن	٤٨ ديناراً
راتب الفراشين	١٥ ديناراً
راتب المشرف على الحبر والورق والأقلام	١٢ ديناراً
لاصلاح الكتب وترميمها	١٢ ديناراً
ثمن الماء	١٢ ديناراً
ثمن الحصر العبداني	١٠ دنانير
ثمن لبود للفرش في الشتاء	٥ دنانير
ثمن طنافس في الشتاء	٤ دنانير
اجرة وترميم وصيانة الستارة	١ دينار

وان مقدار ما أوقفه الحاكم على دار الحكمة هذه يبلغ عشر ثمن العشر من واردات ما أوقفه جملة على أعمال الخير ويبلغ ٢٥٧ ديناراً من العين المغربي

(٢) ميتز ، آدم · **تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** حـ ١ · ص ٢٥٠

كل سنة [1]. ورغم ان النفقات المذكورة أعلاه لا تبلغ مبلغ الـ ٢٥٧ ديناراً الآنفة الذكر، اذ يبلغ مجموعها ٢٠٩ دنانير في السنة، الا انه يبدو انه ترك المبلغ المتبقي كاحتياطي لما يجد من نفقات طارئة أو نحوه.

كذلك عندما سجل لمرتبات موظفي خزانة كتب المدرسة المستنصرية التي أوجدها الخليفة المستنصر بالله العباسي سنة ٦٣٢ هـ. وهذه الشروط هي كما يلي:

١ً: أن يكون في المكتبة الملحقة بالمدرسة خازن يشرف عليها وأن يكون له كل يوم ١٠ أرطال خبزاً وأربعة أرطال لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها وأن يكون له في كل شهر ١٠ دنانير.

٢ً: أن يكون فيها مشرف على الخازن وتكون جرايته كالتالي: له فى كل يوم خمسة أرطال خبزاً أو رطلان طماً وثلاثة دنانير شهرياً.

٣ً: أن يكون فيها مناول للكتب وتكون جرايته كالتالي: له في كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً وديناران شهرياً.

٤ً: أن تجعل الخزانة برسم من يطالع ويستنسخ من الفقهاء ورتب لهم الورق والأقلام لمن يريد النسخ [2]

مما مر نلاحظ عناية مختلف الخلفاء والأغنياء بضمان استمرار ما غرسوه وما قدموه للأمة، كذلك نلاحظ ان موازنة هاتين الخزانتين ليستا مرتفعتين كثيراً وانما هما موازنتان عاديتان متواضعتان ليس فيهما ذلك الترف والأسراف الذي سمعنا به وشاهدناه لدى المأمون ومن أتى بعده من الخلفاء والولاة والحكام والوزراء والعظماء.

ومما سهل عمل الباحث المسلم ان الكتب كانت مبذولة للجميع والمطالعة

---

(١) المقريزي . **الخطط المقريزية** . حـ ٢ . ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨

(٢) معروف، ناجي . **المصدر المذكور آنفا** . ص ٢٧٤

الحرة، والاوراق والاقلام والحبر بالمجان لمن أراد استنساخ شيء من مقتنيات المكتبة ، وقد أدى تسهيل الاعارة وسهولة الوصول والحصول على الكتب ان استغنى بعض العلماء عن شراء الكتب ، فلم يجدوا من الضروري أن يشتروا كتباً البتة وأن ينفقوا أموالهم في أثمانها ولا سيما اذا كانت ذات يدهم ضيقة ويمنعهم ذلك من شراء الكتب ، فهذا أبو حيان الغرناطي لم يشتر كتاباً واحداً استغناء بكتب الاوقاف « اذا أردت كتاباً استعرته من كتب الاوقاف وقضيت حاجتي »[1] .

وأما الاعارة الخارجية فقد اختلفت شروطها باختلاف الظروف واختلاف شروط الواقف وغيرها من العوامل التي تؤثر في مثل هذه الحالات ، والمبدأ الأساسي هو السماح باعارة الكتب اعارة خارجية ، أحياناً بدون مقابل ، وأحياناً مقابل رهن ، فهذا هو ياقوت الحموي الذي أنفق من عمره ثلاثة أعوام في مدينة مرو يذكر انـــه سر كل السرور في الاقامة بتلك البلدة لما في أهل تلك البلدة من الرفد ولين الجـــانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة فيها . وقد كانت الاعارة الخارجية مباحة في مكتباتها وبأعداد غفيرة . يقول ياقوت « ولولا ما عزا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الاصول المتقنة فيها فاني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة ... وكانت (الكتب) سهلة التناول لا يفارق منزلي منها مائتا مجلد وأكثره بغير رهن تكون قيمتها مائتي دينار »[2]

ولا ندري هل كانوا يعاملون جميع الناس كما عاملوا ياقوتاً هذا بهذه الصورة وبهذه الطريقة ؟ أم ان هذه معاملة خاصة ؟ ولكن يبدو ان القاعدة هي السماح باعارة الكتب للأشخاص الموثوقين والبحاثة . وجملة « وأكثره بغير

---

(١) شلبي ، احمد . **المصدر المذكور آنفا** . ص ١٣٦

(٢) ياقوت الحموي . **معجم البلدان** . القاهرة ، مطبعة السعـــادة ، ١٩٠٦ م . جـ ١٠ . جـ ٨ . ص ٣٥ ـ ٣٦

رهن » توحي ان بعضاً منها كان لقاء رهن ولكن لا ندري مقـــداره . وكما قلنا سابقاً تتعلق الاعارة الخارجية بعدة عوامل أهمها شروط الواقف ، ومنها ندرة الكتاب أو وفرة النسخ منه ومنها الشخص المستعير نفسه : سمعته العلمية ومكانته الاجتماعية ومقـــدار صلة ادارة المكتبة به ... وهكذا فقد نص بعض الفضلاء والصلحاء الذين انشأوا مكتباتهم في وقفياتهم على منع الاعارة الخارجية منعاً باتاً مثل القاضي ابن حبان الذي أنشأ في مدينة نيسابور داراً للعلم وألحق بها خزانة كتب ومساكن للطلاب الغرباء الذين يفدون لطلب العلم وأجرى لهم الارزاق ، ولكنه اشترط عدم اعارة الكتب اعارة خارجية وانما يقتصر استعمالها على مبنى الخزانة [1] . وقد توفي ابن حبان هذا سنة ٣٤٥ هـ .

على ان بعض الواقفين كانوا أكرم من القاضي ابن حبان في اعارة الكتب . فقد وقف العلامة ابن خلدون نسخة من كتابه **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر** على خزانة كتب جامع القيروان وقد نص في وثيقة الاهداء والوقف أنه لا يجوز اعارة الكتاب اعارة خارجية الا اذا كان المستعير شخصاً ذا سمعة جيدة وأميناً وشريطة أن يدفع رهناً مناسباً وأن يرد الكتاب في مده أقصاها شهران .

وبمناسبة الكلام على الاعارة، لا بأس أن نذكر هنا ان العـــادة جرت أن يستعير الادبـــاء بعضهم من بعض كثيراً من الكتب ، وقـــد كان بعضهم ضنيناً بكتبه ولا سيما الاصول منها لا يعيرها البتة كالقـــاضي أبي المطرف الاندلسي الذي مر ذكره سابقاً وكان إذا ألحف عليه انسان في طلب الاعارة ينسخ له الكتاب المطلوب ويعطيه النسخة المنسوخة لا الاصل ، على حين وجد آخرون كانوا كرماء وأسخياء في اعارة الكتب ولا سيما لطلاب العلم . يذكر ياقوت أثناء عرضه لترجمة الحسن بن محمد بن حمدون المتوفى سنة ٦٠٨ هـ « أنه كان محباً للكتب جماعاً لها ، وكان مع اغتباطه بالكتب

---

(١) ميتز ، آدم ٠ **المصدر المذكور آنفا** ٠ ج ١ ٠ ص ٢٤٨

ومنافسته ومناقشته بها جواداً باعارتها ، ولقد قال لي يوماً — وقد عجبت من مسارعته إلى اعارتها للطلبة : مابخلت باعارة كتاب قط ولا أخذت عليه رهناً ولا أعلم أنه مع ذلك فقدت كتاباً في عارية قط فقلت الأعمال بالنيات وخلوص نيتك في اعارتها لله حفظها عليك [١] . على أنه قد وجد بين الادباء أنفسهم من أساء السيرة في الاعارة وكان اذا استعاد كتاباً حاول مصادرته أو ماطل بارجاعه إلى مصدره ، اذ ان ياقوتاً نفسه يقص علينا ، أثناء كلامه عن عبد الله بن أحمد الخشاب المتوفي سنة ٥٦٧ هـ ، كيف أنه ، أي ابن الخشاب ، كان اذا استعار من أحد كتاباً وطالبه به قال دخل بين الكتب فلا أقدر عليه [٢] .

هذا وان الكلام على الكتب والاعارة يقودنا إلى الكلام على المصادر والكتب الثمينة . وقد كانت المكتبات الاسلامية تحرص على أن تمتلك أكبر كمية ممكنة من الكتب المخطوطة بخطوط مؤلفيها ، فقد ذكرنا العزيز بالله الفاطمي وكيف كان يمتلك عدداً من النسخ من كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي منها نسخة بخط المؤلف نفسه ، وكذلك امتلك عدداً من النسخ من تاريخ الأمم والملوك للطبري منها نسخة بخط ابن جرير نفسه ، والشيء نفسه صحيح بالنسبة لجميع المكتبات المهمة ، إذا كانت تفاخر بامتلاك مثل هذه الكتب وبامتلاك الكتب ذات الخطوط المنسوبة (أي التي يعرف خطاطها فتنسب اليه) . فقد وجه الخليفة الراضي بالله مرة إلى خازن كتبه يطلب منه ديوان نهشل بن جزي فلم يجده عنده فساء الصولى أن تخلو المكتبة من مثل هذ الكتاب فأشار على الخليفة أن يزود مكتبته بالكتب المفيدة حتى تتناسب مع جلالة علمه وعلو مركزه وكبر همته ، وأضاف بأن ما كان سماعاً أو لا يمكن الحصول عليه ينسخه الوراقون الذين تجرى عليهم الارزاق ويجلده مجلدو الخزانة» [٣] .

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٩ . ص ١٨٧ — ١٨٨

(٢) **نفس المصدر** . ج ١٢ . ص ٥١

(٣) شلبي ، احمد . **المصدر المذكور آنفا** . ص ١٤٨

كذلك ظهر نوع جديد من التأليف ، وذلك مع تبحر العمران وتقدم الحضارة وغزارة المؤلفات في كل نوع من أنواع المعرفة ، وهو الذي يسمى الان بالاصطلاح الحديث البيبليوغرافيا ، وهو نوع من التأليف يحوي أسماء الكتب بشكل عام أو في موضوع معين أو في زمان معين أو مكان معين. ولعل أقدم مثل على الكتب التي من هذا الطراز هو كتاب **الفهرست** لابن النديم المتوفي سنة ٣٧٧ ه. وهو كتاب جليل القدر زائد النفع يعطينا أسماء المؤلفين الذين ظهروا حتى زمانه مع نبذ عن أخبارهم وأسماء مؤلفاتهم ، والواقع أننا ندين له بالكثير ، ذلك ان كثيراً من المؤلفين لا نعرف أسماء مؤلفاتهم الا عن طريقه ، ذلك ان هذه الكتب فقدت ولم يعد لها أثر ، وان مصدرنا الرئيسي عن بيت الحكمة وخزانتها هو كتاب **الفهرست** حتى لقد ذكر بعض كتاب الغرب ان ابن النديم هذا ربما كان خازناً لبيت الحكمة ، وان كتابه هذا ربما كان فهرستاً لهذه المكتبة ولسجلاتها ، وهو اقتراح لا يبدو معقولاً ومقبولاً على ضوء معلوماتنا الحالية . كذلك الف الفارابي كتابه الموسوم **احصاء العلوم** ، ثم تبعه اخرون كالخوارزمي المتوفي سنة ٣٨٧ ه الذي ألف كتابه **مفاتيح العلوم** ، والامام فخر الدين الرازي الذي توفي سنة ٦٠٦ ه الذي ألف كتابه **حدائق الانوار في حقائق الاسرار** ، وقطب الدين الشيرازي المتوفي سنة ٧١٠ ه الذي الف كتاب **درة التاج**[1] ... وهناك ايضا كتاب ابن خير الاندلسي **فهرسة ما رواه عن شيوخه** ... وهناك كتاب حاجي خليفة **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** ... والذيل الذي الفه امين بن اسماعيل البابانى وجعله ذيلاً لكتاب كشف الظنون وأسماه **ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون** ... ان هذا النوع من الكتب مهم جداً بالنسبة للباحثين والمكتبيين وهو مفتاح البحث ، ومن البدهي جداً أن يظهر هذا النوع من التأليف في البلاد الاسلامية أثناء نموها وازدهارها ورقيها الفكري والحضاري ، وأن تحتفظ به المكتبات مع امهات الكتب وأن تمنع

---

(١) حاجي خليفة . **المصدر المذكور آنفا** . ج ١ . ص ٣

اعارته اعارة خارجية كما تفعل المكتبات في جميع أنحاء العالم الآن .

ولقد كانت المكتبات الاسلامية تحصل على كتبها بطرق متعددة أهمها : المصادرة والشراء والوقف والنسخ والهبات والهدايا .

أما المصادرة فكثيرة جداً وهي مصدر جيد لاغناء خزانة من الخزائن من الكتب على حساب الكتب المصادرة ، فقد رأينا سابقاً كيف ان القاضي الفاضل أخذ كتب دار الحكمة وكتب خزانة مدينة آمد وأودعها في مدرسته التي أسسها في القاهرة باسم المدرسة الفاضلية . كذلك ثار حبشي بن معز الدولة على أخيه بختيار بالبصرة ولكنه خذل وقبض عليه أخوه فأرسل عمه ركن الدولة وخلصه فسار إلى عمه عضد الدولة فأقطعه اقطاعاً وافراً وأقام عنده إلى أن مات سنة ٣٦٩ هـ . ولكنه فقد أمواله كلها وصودرت جميع أمواله ومن بينها كتبه اذ أخذ له خمسة عشر الف مجلد سوى الاجزاء والمشرس وما ليس له جلد [١] . كذلك نجد شخصاً اسمه محمد بن أبي السعادات المسعودي (من أنصار صلاح الدين الايوبي) يصادر كتباً من خزانة الوقف الموجودة في جامع حلب ويأخذها لنفسه ثم بعد ذلك يقف كتبه على الخانقاه السميساطية » وحكى أبو البركات الهاشمي الحلبي قال : لما دخل السلطان صلاح الدين إلى حلب سنة ٥٧٩ هـ نزل المسعودي المذكور إلى جامع حلب وقعد في خزانة كتبها الموقوفه واختار منها جملة أخذها ولم يمنعه منها مانع ولقد رأيته يحشوها في عدل ... وتوفي (المسعودي) في دمشق سنة ٥٨٤ هـ ووقف كتبه على الخانقاه المذكورة (السميساطية) [٢] .

ولكن طريقة المصادرة طريقة استثنائية وليست القاعدة في اغناء المكتبات بالكتب ،وانما القاعدة الرئيسية في اغناء المكتبات بالكتب هي في شراء الكتب وفي وقفها وفي نسخها .

---

(١) ابن الاثير **الكامل في التاريخ** جـ ٧ . ص ٢٦ ــ ٢٧
(٢) ابن خلكان **وفيات الاعيان** ... جـ ٤ . ص ٢٣ ــ ٢٤

شراء الكتب

ازدهرت تجارة الكتب في العالم الاسلامي ازدهاراً واسعاً واشتغل بها علماء وادباء أجلاء مثل ياقوت الحموي الذي كان تاجراً للكتب يشتريها ويبيعها وينتقل بها في البلاد . يقول عنه ابن خلكان ... وجعل بعض تجارته كتباً [١] . ونجد ذكر ذلك في مؤلفاته ولا سيما في كتابه الكبير **ارشاد الاريب لمعرفة الاديب** المعروف باسم **معجم الادباء** حيث يقول أثناء ترجمته لعضد الدين أبي الفوارس مرهف بن اسامة « ولقيته بها (أي في القاهرة) وهو شيخ ظريف واسع الخلق شائع الكرم جمّاعة للكتب وحضرت داره واشترى مني كتباً [٢] .

ولقد ظهرت تجارة الكتب في العالم الاسلامي في وقت مبكر جداً أي منذ اختراع الورق وانتشار استعماله وظهور أسواق الوراقين . وقد كانت الكتب تباع في الدكاكين وفي الأسواق الموسمية كأية سلعة عامة اخرى ، وكان هناك دلالون للكتب يبيعون الكتب بالمزاد العلني . وقد مر معنا أثناء كلامنا على الحكم الثاني الخليفة الاموي في قرطبة كيف كان يرسل الوكلاء إلى بلاد الاسلام المختلفة من أجل الحصول على الكتب ، وتغالى في دفع أثمانها وذلك من أجل جلبها إلى الاندلس ، وفعل الشيء نفسه بنو عمار من أجل اغناء مكتبتهم في طرابلس الشام اذ بعثوا البعوث وأرسلوا الوكلاء إلى أطراف العالم الاسلامي من أجل الحصول على نفائس الكتب ونوادر المخطوطات واضافتها إلى مكتبتهم .

ولقد جرت العادة أن تباع كتب العالم الذي يموت بعد موته، ولا سيما اذا خلف أولاداً لا يحبون الكتب أو العلم ، أو اذا لم يخلف ذرية ذكوراً أو لغير ذلك من الاسباب ، فقد خلف اللغوي الشهير (ثعلب) كتباً جليلة فأوصى إلى

---

(١) **نفس المصدر** . ج ٥ . ص ١٧٨

(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٥ . ص ٢٤٣

محمد بن محمد الكوفي أحد أعيان تلاميذه وتقدم اليه في دفع كتبه إلى أبي بكر احمد بن اسحق القطربلي فقال الزجّاج للقاسم بن عبيد الله : هذه كتب جليلة فلا تفوتنك فأحضر خيران الوراق فقوم ما كان يساوى عشرة دنانير ثلاثة فبلغت أقل من ٣٠٠ دينار فأخذها القاسم بها [١] . كذلك مر معنا ذكر القاضي أبي المطرف الاندلسي وكيف ان كتبه بيعت بعد وفاته وكيف استغرق بيعها سنة كاملة في جامعه وكانت حصيلة البيع أربعين الف دينار . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة ان ابن المطران كان محباً للكتب جماعاً لها وأنه بعد وفاته بيعت جميع كتبه ذلك انه ما خلف ولداً ويقول « وحدثني الحكيم عمران الاسرائيلي أنه لما حضر بيع كتب ابن المطران وجدهم وقد أخرجوا من هذه الاجزاء الصغار الوفاً كثيرة أكثرها بخط ابن الجمالة... فبلغت في المناداة ثلاثة الاف درهم[٢] »

وقد كانت تقام حلقات لبيع الكتب ، ذلك ان ياقوتاً يذكر مثل هذه الحلقة وذلك في قوله « قال لي الشيخ أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي ـــ رحمه الله ـــ أنه حضر معه أعني الفصيحي حلقة يباع فيها الكتب[٣] : « وان الكتب كان ينادى عليها بالمزاودة[٤] » .

وكان بعض الناس يستغل جهل البائع بقيمة ما يباع فيشتري الكتب باوكس الاثمان وأبخسها كما حدث مع أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الصدفي المصري المنجم ، ذلك أنه كان مختصاً بعلم النجوم ، ولما مات سنة ٣٩٩ هـ خلف ولداً متخلفاً باع كتبه وجميع تصنيفاته بالارطال في الصابونين[٥].

وقد حصل الشيء نفسه مع ابن سينا الفيلسوف المسلم والطبيب المشهور ، ذلك ان ابن سينا يذكر عن نفسه انه قرأ كتاب ارسطو ما بعد الطبيعة فلم يفهمه « فما كنت أفهم ما فيه والتبس علي غرض واضعه حتى أعدت قراءته

---

(١) **نفس المصدر** . جـ ٥ . ص ١٢٧

(٢) ابن أبي اصيبعة . **طبقات الاطبه** . جـ ٢ . ص ٢٩٣

(٣) ياقوت الحموي . **المصدر المذكور آنفا** . جـ ١٥ . ص ٦٩

(٤) **نفس المصدر** .

(٥) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** ... جـ ٣ . ص ١٠٦

أربعين مرة وصار لي محفوظاً وأنا مع ذلك لا أفهمه ولا المقصود منه وايست من نفسي وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، واذا أنا في يوم من الأيام حضرت وقت العصر في الوراقين وبيد دلال مجلد ينادي عليه فعرضه علي فرددته رد متبرم معتقد الا فائدة من هذا العلم فقال اشتر مني هذا فإنه رخيص أبيعكه بثلاث دراهم وصاحبه محتاج إلى ثمنه واشتريته فاذا هو كتاب لأبي نصر الفارابي في أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ورجعت إلى بيتي وأسرعت قراءته فانفتح علي في الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان لي محفوظاً على ظهر القلب وفرحت بذلك وتصدقت في ثاني يوم بشيء كثير على الفقراء شاكراً لله تعالى [1] .

وقد وجد هناك أدباء يحتالون لشراء الكتب بأثمان دون أثمانها الحقيقية فقد كان عبد الله بن احمد ابن الخشاب اذا حضر سوق الكتب وأراد شراء كتاب غافل الناس وقطع منه ورقة وقال انه مقطوع ليأخذه بثمن بخس [2] .

وقد منع بعض الحكام المتنورين تصدير الكتب من بلدهم إلى بلد آخر ولا سيما اذا كانت تلك الكتب نادرة منتقاة جيدة ، ذلك أنهم يريدون أن تبقى تلك الكتب في القطر الذي يحكمونه وأن تغن حقول المعرفة الموجودة في البلد لان في ذهابها من البلد افقاراً للحركة الثقافية فيه واغناء للقطر المستورد ، فقد ذكر ابن أبي أصيبعة في ترجمة الطبيب المعري افرائيم بن الزمان « انه طبيب اسرائيلي وجد في مصر وهو من الاطباء المشهورين بديار مصر وخدم الخلفاء الذين كان في زمانهم وحصل من جهتهم من الاموال والنعم شيئاً كثيراً جداً ... وكانت له همة عالية في تحصيل الكتب وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها وكان أبداً عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه ... وحدثني أبي ان رجلا من العراق كان قد اتي إلى الديار المصرية ليشتري كتباً يتوجه بها وانه اجتمع مع افرائيم ، واتفق الحال

---

(١) ابن أبي أصيبعة . **طبقات الاطباء** ... ج ٣ . ص ٥
(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١٢ . ص ٥١

فيما بينهما ان باعه افرائيم من الكتب التي عنده عشرة الاف مجلد وكان ذلك في أيام ولاية الافضل ابن أمير الجيوش فلما سمع بذلك أراد ان تلك الكتب تبقى في الديار المصرية ولا تنتقل إلى موضع آخر فبعث إلى افرائيم من عنده بجملة المال الذي كان قد اتفق تثمينه بين افرائيم والعراقي ونقلت الكتب إلى خزانة الافضل وكتبت عليها القابه ، ولهذا انني قد وجدت كتباً كثيرة من الكتب الطبية وغيرها عليها اسم افرائيم وألقاب الافضل أيضاً ، وخلّف افرائيم من الكتب ما يزيد على عشرين ألف مجلد ومن النعم والاموال شيئاً كثيراً جداً [1] .

هذا وقد اختلفت أثمان الكتب باختلاف العصور والدول والازمان والاماكن ، وهناك صفات ومواصفات معينة تحكمت في أسعار وأثمان الكتب من هذه المواصفات ما يلي :

١ً : جودة خط الكتّاب وشهرة الخطاط : فالمخطوط المكتوب بخط مقروء جيد ثمنه أعلى من ثمن المخطوط المكتوب بخط عادي أو بخط رديء . وكلما كان الخطاط شهيراً ارتفعت قيمة المخطوط فقد ذكر ياقوت ان رقعة بخط علي بن هلال البواب الخطاط الشهير صاحب الخط الرائق كان قد كتبها الى بعض الأعيان يسأله فيها مساعدة صاحبه ابن منصور وانجاز وعد وعده به لا يساوي دينارين قد بيعت بسبعة عشر ديناراً إمامية ، ويقول ياقوت ثانية « وبلغني انها بيعت مرة اخرى بخمسة وعشرين ديناراً ، وقد توفي ابن البواب هذا سنة ٤١٣ هـ [2] . وعندما يتحدث ياقوت عن مثل هذه الشؤون فأنه يتحدث بلسان خبير في الموضوع .

كذلك بيعت نسخة من كتاب يتيمة الدهر للثعالبي بخط محمد بن اسحق الزوزني المتوفي سنة ٤٦٣ هـ بثلاثين ديناراً نيسابورية ، ويصف ياقوت محمد بن

---

(١) ابن أبي اصيبعة . **طبقات الاطباء** . جـ ٣ . ص ١٧٤ ــ ١٧٥
(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . جـ ١٥ . ص ١٢١ ــ ١٢٢

اسحق الزوزني هذا بأنه كان ينسخ كتب الادب بخط مقروء صحيح أحسن النسخ ، ويزيد ياقوت فيقول « انها (أي النسخة) تساوي أكثر من ذلك [1] » . ولقد بلغ ثمن النسخة الواحدة المكتوبة بخط ياقوت بن عبد الله الملكي الموصلي من معجم **الصحاح** للجوهري مائة دينار ، ويصف ابن خلكان ياقوتاً هذا بقوله « وكتب الكثير وانتشر خطه في الآفاق وكان في نهاية الحسن ولم يكن في آخر زمانه من يقاربه في حسن الخط ولا يؤدي طريقة ابن البواب في النسخ مثله مع فضل غزير ونباهة تامة وكان مغرماً بنسخ **الصحاح** للجوهري فكتب منه نسخاً كثيرة كل نسخة في مجلد واحد ورأيت منها عدة نسخ وكل نسخة تباع بمائة دينار ... وكانت له سمعة كبيرة في زمانه ... توفي بالموصل سنة ٦١٨ هـ [2] .

٢ً : نسبة المخطوط إلى شخص عظيم كخليفة أو وزير أو أمير أو حاكم أو ... وهذا ما يسمى بكتب العظماء وطبعاً تزداد قيمة مثل هذه الكتب مع ارتفاع مكانة الشخص الذي كان يملك مثل هذه الكتب سابقاً . فقد ذكر المقريزي أنه عندما دخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر بعد احتلاله اياها على يد قائده جوهر الصقلي ، حمل أبو جعفر مسلم (أحد زعماء العلويين المقيمين في مصر آنذاك) المصحف الكبير الذي يذكر أنه كان ليحيى بن خالد بن برمك وكان شراؤه أربعمائة دينار على مسلم فلما رآه المعز قال : أراك معجباً به وهو يستحق الاعجاب [3] ...

٣ً : شهرة مؤلف الكتاب : وهذا شيء طبيعي فالكتاب الذي مؤلفه شهير معروف أغلى ثمنا من الكتاب الذي مؤلفه شخص مغمور أو ناشيء في عالم التأليف ، فقد بيع كتاب العين للخليل بن أحمد بخمسين ديناراً وكان

---

(١) **نفس المصدر** . ج ١٨ . ص ٢٠

(٢) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . ج ٥ . ص ١٧٠

(٣) المقريزي . الفاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطمين الخلفا ... تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٤٨ م . ص ٢٠٢

ذلك في أواخر القرن الثالث للهجرة وبشهادة ثعلب ، فقد ذكر ياقوت الحموي في ترجمة القاسم بن محمد الانباري أنه كان منقطعاً إلى ثعلب وانه اشتكى الفاقة والحاجة مرة فبعث به ثعلب إلى قوم يقال لهم بنو بدر « فاعطوني شيئاً لا يكفيني وذكروا كتاب العين فقلت عندي كتاب العين ، فقالوا بكم تبيعه ؟ فقلت بخمسين ديناراً فقالوا قد أخذناه بما قلت ان قال ثعلب انه للخليل ، فقلت : فان لم يقل أنه للخليل فبكم تأخذونه ؟ فقالوا : بعشرين ديناراً . فأتيت أبا العباس من فوري وقلت له : يا سيدي هب لي خمسين ديناراً ؛ فقال لي : أنت مجنون وهذا تأكيد . فقلت له : لست أريد من مالك وحدثته الحديث ، قال : فاكذب ؟ قلت : حاشاك ، ولكن أنت أخبرتنا ان الخليل فرغ من باب العين ثم مات فاذا احضرنا بين يديك للحكومة فضع يدك على ما لا تشك فيه ؛ فقال : تريد أن أبخش لك (أوافقك) ؟ قلت نعم ، قال : هاتهم ، فبكروا وسبقوني وحضرت فأخرجوا الكتاب وناولوه وقالوا : هذا للخليل أم لا ؟ ففتح حتى توسط باب العين وقال هذا كلام الخليل ثلاثاً . قال فأخذت خمسين ديناراً [1] .

كذلك بيع كتاب العين سنة ٢٤٨ هـ بخمسين ديناراً ، فقد روى ابن النديم نقلاً عن أبي بكر بن دريد : « قال أبو بكر بن دريد وقع بالبصرة كتاب العين سنة ثمان وأربعين ومئتين قدم به وراق من خراسان وكان في ثمانيـــة وأربعين جزءاً فباعه بخمسين ديناراً ، وكان سمع بهذا الكتاب انه بخراسان في خزائن الطاهرية حتى قدم به هذا الوراق [2] .

ويذكر ياقوت ان نسخة من كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني بيعت في القرن الرابع الهجري بعشرة الاف درهم ، فقد حدث ياقوت رواية عن شخص آخر بما يلي « قال كتب إلي أبو تغلب يأمرني بابتياع كتاب الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني فأبتعته له بعشرة الاف درهم من صرف ثمانية عشر

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١٦ . ص ٣١٨ – ٣١٩
(٢) ابن النديم . **كتاب الفهرست** . ص ٦٤

درهماً بدينار ، فلما حملته اليه ووقف عليه ورأى عظمة وجلالة ما حوى قال لقد ظلم وراقه المسكين وأنه ليساوي عنده عشرة الاف دينار ولو فقد لما قدرت عليه الملوك الا بالرغائب ، وأمر أن يكتب له نسخة اخرى ويخلد عليها اسمه فابتدأ بها فما أدري أتمت النسخة أم لا ؟ (١) .

وياقوت نفسه يذكر ان مسودة كتاب الاغاني وهي أصل أبي الفرج أخرجت إلى سوق الوراقين لتباع وانها بيعت بالنداء بأربعة الاف درهم وكان أكثرها في طروس وبخط التعليق وقد اشتراها أبو احمد بن محمد بن حفص (٢) .

وقد بلغ ثمن ديوان الشاعر عطاء بن يعقوب بن ناكل بمصر مائتي دينار ويصف ياقوت الدنانير بقوله « حتى اني حدثت ان ديوان شعره بمصر يشترى بمائتين من الحمر الراقصات على الظفر ، والمشهور ان ديوان شعره العربي والفارسي يشتري بخراسان بأوفر الاثمان (٣) .

وقال الثعالبي في أثناء كتابه يعني يتيمة الدهر ان تلك النسخة (يعني نسخة من كتاب الصحاح للجوهري) بيعت بمائة دينار نيسابورية وحملت إلى جرجان (٤) .

ونحب أن نضيف هنا أنه قد يجتمع عاملان أو أكثر في كتاب من الكتب فيرتفع ثمنه ، فقد حكى الخطيب أبو زكريا يحيي بن علي التبريزي اللغوي ان أبا الحسن علي بن احمد بن علي بن سلك الفالي الاديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد في غاية الجودة فدعته الحاجة إلى بيعها فاشتراها الشريف المرتضى أبو القاسم المذكور بستين ديناراً وتصفحها فوجد فيها أبياتاً بخط بائعها أبي الحسن الفالى :

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١٣ . ص ١٢٥ ـ ١٢٦
(٢) **نفس المصدر** . ج ١٣ . ص ١٢٦ ـ ١٢٧
(٣) **نفس المصدر** . ج ١٢ . ض ١٧١
(٤) **نفس المصدر** . ج ٦ ص ١٦٢

انست بها عشرين حولاً وبعتها لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظني انني سأبيعها ولو خلدتني في السجون ديوني
ولكن لضعف وافتقـــار وصبية صغار عليهم تستهـــل شئوني
فقلت ولم أملك سوابق عـــبرة مقالة مكوى الفـــؤاد حزين
وقد تخرج الحاجات يا ام مالك كرائم من رب بهن ضنين .

فارجع النسخة اليه وترك له الدنانير رحمه الله تعالى [١] .

والكتب ، باعتبارها بضاعة وسلعة ، تخضع لقانون العرض والطلب ولها أوقات رواج وتصاب بالكساد ولها علاقة بالادب والعلم والثقافة والمعرفةعامة ، فاذا وجد حكام شجعوا الآداب والعلوم ازدهرت تجارة الكتب وراج سوقها وارتفع ثمنها ، فمن ذلك ما يروى عن المستنصر العباسي الذي مر ذكره معنا سابقاً والذي وصف بأنه مشجع للعلوم والعلماء وبنى المدارس والمكتبات ، فقد قيل بيعت كتب العلم في أيامه بأغلى الاثمان لميله إلى اقتنائها ورغبته في تحصيلها واكبابه على مطالعتها وحسن خطوطها ووقفها على أهل الفضل وخزنها في المدارس [٢] .

واذا أردنا أن نعرف معدل ثمن النسخة الواحدة من الكتاب الفرد في أوائل القرن السابع الهجري أمكننا ذلك ، وذلك استناداً إلى نص أورده ياقوت أثناء حديثه عن مكتبات مرو ، فأنه ذكر أنه لم يكن يفارق منزله مائتا مجلد أو أكثر ... تكون قيمتها مائتي دينار [٣] . فاذا قمنا بعملية حسابية بسيطة وقسمنا ثمن الكتب على عدد النسخ حصلنا على معدل وسطي قدره دينار واحد لكل مجلد ، وطبعاً هذا مقياس غير دقيق ولكنه تقريبي .

يعتبر وقف الكتب وحبسها على المكتبات مصدراً مهماً رئيسياً من مصادر

---

(١) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . ج ٣ . ص ٦
(٢) معروف، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . ص ٢٧٥
(٣) ياقوت الحموي . **معجم البلدان** . ج ٨ . ص ٣٦

تزويد المكتبات بالكتب ، فقد درج الخلفاء والحكام والعلماء والاغنياء وأهل الخير على أن يوقفوا أشياء كثيرة على المساجد والمدارس والمعاهد والمشافي ... ابتغاء ثواب الله تعالى والاجر في الآخرة ، وقد أوقف قسم كبير منهم الاوقاف العظيمة الجليلة على التعليم والتدريس ، وكان للمكتبات نصيب موفور من حسنات المحسنين وأوقاف الواقفين ، وقد مر معنا ذكر نماذج كثيرة من هذا النوع من الوقف ، فقد ذكرنا ابن حبان وكيف انه عمر داراً للعلم في بلده وألحق بها مكتبة وجعلها وقفاً ، كذلك ذكرنا الصاحب بن عباد الذي أوقف كتبه على مدينة الري . ويكون الوقف على أنواع : فمن الناس من يوقف كتبه على المسلمين عامة دون تعيين فتوضع كتبه في خزانة الجامع ، ومنهم من يخصص فيقول أوقفتها على المكان الفلاني أو البلدة الفلانية او او ... الخ ومنهم من يترك استعمالها حراً ، على حين يضع اخرون شروطاً لاستعمالها واعارتها كما فعل القاضي ابن حبان الذي منع اعارة الكتب خارج المبنى وكما فعل ابن خلدون الذي منع اعارة كتابه **العبر** اعارة خارجية الالقاء رهن ولمدة لا تزيد على الشهرين ، وبعضهم وقف كتبه على أهل العلم كما فعل ابن الخشاب [١] . غير ان العادة جرت أن يقف المرء كتبه على المدرسة التي تخرج منها أو درس أو علم فيها أو على مسجد حيه او بلدته أو ما شابه وعندنا نماذج كثيرة لهذا النوع من الوقف . فقد أوقف محب الدين بن النجار في أواخر القرن السابع كتبه على خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد [٢] . كذلك وقف جبرائيل بن عبيد الله بن بختيشوع نسخة من كتابه الكبير المسمى **بالكافي** على دار العلم ببغداد [٣] . وأوقف ابن عمار صاحب مكتبة طرابلس على مكتبته ستة كتب من مؤلفات أبي العلاء المعري وهذه الكتب هي **العاهل** **والشاحج والسجع السلطاني والفصول والغايات** ، **والسادن** ، **واقليد الغايات**

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٢ . ص ٥١
(٢) الكتبي . **فوات الوفيات** . ج ٢ . ص ٥٢٣
(٣) ابن ابي اصيبعة . **طبقات الاطباء** ج ٢ . ص ٧٥

ورسالة **الاغريض** ، وكان ذلك أواخر القرن الخامس الهجري [1] .

وفعل الشيء نفسه يحيى بن عيسى بن جزلة الطبيب حيث أوقف كتبه قبل وفاته سنة ٤٩٢ هـ على مسجد أبي حنيفة [2] . وأوقف أبو نصر احمد بن يوسف المنازي المتوفي سنة ٤٣٧ هـ والذي كان أديباً كاتباً وشاعراً ومن أعيان الفضلاء كتبه ، وكانت كثيرة على جامع ميا فارقين وجامع آمد ، وقد كانت لا تزال هذه الكتب موجودة في الجامعين المذكورين حتى زمن ابن خلكان الذي يذكر ذلك ويضيف انها معروفة بكتب المنازي [3] .

وممن وقف كتبه على جامع معين ياقوت الحموي نفسه صاحب كتابي **معجم الادباء ومعجم البلدان** ذلك انه أوصى بكتبه وقفاً على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد وسلمها إلى الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير فحملها إلى هناك [4] .

وممن وقف كتبه على المؤسسة التي كان يعمل بها فخر الدين الطبسي وهو نزيل بغداد ومدرس وفقيه وكان عالماً فاضلاً كريم الأخلاق لطيف المحاضرة ظاهر البشر ، كان جيد الخط مليحه كتب الكثير بخطه الصحيح وضبطه ، قدم بغداد وربت فقيها في المدرسة المستنصرية ثم انتقل إلى الاعادة واقتنى كتباً نفيسة أكثرها بخطه ووقفها على خزانة كتب المستنصرية وشرط فيها الذي شرطه الامام المستنصر واستفاد الناس بها [5] .

وفعل مثل ذلك محمد بن عبد الواحد بن احمد بن عبد الرحمن بن اسماعيل ضياء الدين السعدي الدمشقي ، ذلك انه بنى مدرسة على باب الجامع المظفري

---

(١) تعريف القدماء بابي العلاء ص ٥٥٧
(٢) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . جـ ٥ . ص ٣١١
(٣) **نفس المصدر** . ج ١ . ص ١٢٦
(٤) **نفس المصدر** . ج ٥ . ص ١٨٩
(٥) معروف ناجي . **تاريخ علماء والمستنصرية** . ص ١٦١

بدمشق واعانه عليها أهل الخير وجعلها دار حديث ووقف عليها كتبه وأجزاءه [1] ، وكان ذلك في أوائل القرن السادس الهجري .

النسخ :

ذكرنا سابقاً ان من أهم مصادر الحصول على الكتب النسخ ؛ والواقع ان أغلب المكتبات كان عندها نساخ يتناوبون العمل فيها . فقد ذكرنا سابقاً ان مكتبة بني عمار في طرابلس كان بها مائة وثمانون نساخاً يتناوبون العمل فيها ليل نهار ، وكذلك الحال مع أغلب المؤسسات . حتى أنه وجد بعض الافراد عندهم نساخ ينسخون لهم الكتب لحسابهم الخاص ويدفعون لهم أجورهم من جيبهم كالواقدي والقاضي أبي المطرف وغيرهما . وقد ارتبطت مهنة النسخ بالوراقة ، ويرد هذا التعبير كثيراً « وكان يورق باجرة » ويقصد به وكان ينسخ للوراقين باجرة . وقد كان الواجب أن نبحث النسخ مع الوراقة ، ولكن ذكرنا للورق وصناعته دعانا للتحدث عن الوراقة لارتباطها به ، وقد أخرنا الحديث عن النسخ لنتحدث عنه الآن .

ألحق بأغلب المكتبات غرفة أو غرف أعدت لجلوس النساخ وممارستهم عملهم ، وقد زودت تلك الغرف بمستلزمات النسخ من أثاث وتجهيزات ومحابر وأقلام وورق ... الخ ، كذلك لم يكن باستطاعة أي انسان أن يحترف النسخ ، اذ ان الشرط الأول والأساس لهذه المهنة جودة الخط ، ووضوحه وصحته . كذلك كان هناك من يضبط ويراقب عمل النساخ ، فالتصحيح والمقابلة من أهم المميزات التي تميز مخطوطاً عن مخطوط . وكانت هناك طريقتان للنسخ : الاولى أن ينسخ الناسخ من المخطوط مباشرة بنفسه بدون مساعدة احد ، وبعد فراغه من نسخ الكتاب يراجعه غيره للتأكد من صحة ما نسخ وانه لم يهمل ولم يقفز من على السطور ؛ وأما الطريقة الثانية فهي أن يجلس عدد من

---

(١) الكتبي . **فوات الوفيات** . ج ٢ . ص ٤٧١ ـ ٤٧٢

النساخ في أماكنهم وأن يملي عليهم شخص آخر من مخطوط أريد الحصول على عدة نسخ منه ، وبعد الفراغ من عملية النسخ تجري المقابلة . كذلك كان من الضروري أن يكون الناسخ على حظ من الثقافة والمعرفة ليفهم ما ينسخه ولا يكون نسخه ميكانيكياً آلياً ، وأن يكون حاضر الذهن منتبهاً متيقظاً فشرود الذهن والغفلة قد تؤدي به إلى الشرود وإلى اهمال كلمات وربما سطوراً كاملة دون أن ينتبه لها . والواقع لقد مارس مهنة النسخ في العالم الاسلامي أشخاص هم في الذروة علماً وأدباً وفضلاً ، فقد مر معنا ذكر علان الشعوبي وذكرنا أنه كان ينسخ في بيت الحكمة للمأمون وكيف أنه كان وراقاً ينسخ ويورق باجرة . كذلك اشتغل بمهنة النسخ أبو حيان التوحيدي الأديب المشهور في فترة من فترات حياته [1] .

وابن الهيثم العالم الفيزيائي الشهير اشتغل بالنسخ فترة مهمة من حياته وذلك أثناء اقامته في القاهرة بعد ذهابه إلى مصر واتصاله بالحاكم بأمر الله وخوفه منه واظهاره الجنون ووفاة الحاكم وعودته إلى حالته الطبيعية . ذلك أنه بعد وفاة الحاكم اطمأن إلى سلامة رأسه وترك التظاهر بالجنون وعاد إلى حالته الطبيعية واستوطن قبة على باب الجامع الازهر أحد جوامع القاهرة وأقام بها متنسكاً متقنعاً ... واشتغل بالتصنيف والنسخ والافادة ، وكان له خط قاعد في غاية الصحة ، وذكر لي يوسف الناشيء الاسرائيلي الحكيم (الكلام للقفطي) ... قال سمعت ان ابن الهيثم كان ينسخ في مدة سنة ثلاثة كتب في ضمن اشتغاله وهي اقليدس والمتوسطات والمجسطي ويستكملها في مدة السنة فاذا شرع في نسخها جاءه من يعطيه فيهم مائة وخمسين ديناراً مصرية وصار ذلك كالرسم الذي لا يحتاج فيه إلى مواكسة ولا معاودة قول فيجعلها مؤونته لسنته [2] . واشتهر بالخط الجيد وكثرة النسخ من العلماء الادباء أبو منصور محمد علي العتابي المتوفي سنة ٥٥٦ هـ ، وقد كانت له معرفة بالنحو واللغة وفنون الادب

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . جـ ١٥ . ص ٢٦

(٢) القفطي **تاريخ الحكماء** ص ١٦٧

وله الخط المليح الصحيح الذي يتنافس فيه أهل العلم ، كتب الكثير ، وكل كتاب يوجد بخطه فهو مرغوب فيه [1] . كذلك اشتهر بحسن الخط وبالنسخ من الادباء ياقوت الحموي صاحب المصنفات المشهورة اذ يقول عنه ابن خلكان بأنه اشتغل بالنسخ بالاجرة وحصل بالمطالعة فوائد [2] . ويذكر المرتضى الزبيدي صاحب **تاج العروس من جواهر القاموس** أنه عثر على نسخة من كتاب **الصحاح** لأبي نصر الجوهري في ثمان مجلدات بخط ياقوت الرومي (الحموي) وعلى هوامشه التقيدات النافعة ... في خزانة الامير ازبك [3] . وذلك أثناء كلامه عن مصادره التي استعان بها في تأليف معجمه الشهير **تاج العروس** ... وكان ذلك في أواخر القرن الثاني عشر الهجري . ويعتبر ياقوت المستعصمي الذي كان مملوكاً للخليفة المستعصم بالله أخر الخلفاء العباسيين من مشاهير النساخ وقد نسخ بخطه الكثير وصار خازناً بمكتبة المدرسة المستنصرية ببغداد وخطه في غاية الجودة ، وكان معاصراً لعالم ومؤرخ ونساخ آخر هو ابن الفوطي المؤرخ الشهير الذي استلم خزانة الرصد في مراغة وخزانة المدرسة المستنصرية وألف كثيراً ونسخ كثيراً ، وأما خطه « فلم ار أقوى منه ولا أبدع ولا أسرح ولا أسرع ، خط فائق ، رافع رائق ، بديع إلى الغاية في تعليقه ... وكان يكتب من هذا الخط العجيب في كل يوم أربع كراريس ، يأتي فيها أنقش وأنفس من ذنب الطواويس [4] » .

وقد اختلفت أجور النسخ ، بطبيعة الحال حسب الازمان والاماكن والاحوال والاشخاص والنساخ ، فقد دفع عبد الرحمن بن عوف (ر) اجراً لرجل نصراني من أهل الحيرة كتب له مصحفاً مبلغ ستين درهماً [5] .

---

(١) ابن خلكان **وفيات الاعيان** جـ ٤ ٠ ص ٢٢

(٢) **نفس المصدر** . جـ ٥ ٠ ص ١٧٨

(٣) المرتضى الزبيدي ٠ **تاج العروس من جواهر اتقاموس** ٠ بنغازي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، ١٩٦٦ م ٠ المقدمة

(٤) ابن الفوطي **تلخيص مجمع الاداب** ص ٤٢

(٥) ابو بكر عبدالله بن ابي داود السجتاني ٠ **كتاب المصاحف** ص ١٣٣

كذلك دفع عبد الرحمن بن أبي ليلى (القرن الأول الهجري) سبعين درهماً اجراً لرجل كتب له مصحفاً [1] . وقد لاحظنا أثناء كلامنا عن ابن الهيثم في القرن الخامس الهجري أنه كان يتناول اجراً على نسخ ثلاثة كتب مبلغاً من المال مقداره مائة وخمسون ديناراً مصرياً ، وهذا يعني أن متوسط أجر نسخ الكتاب خمسون ديناراً . وطبعاً تتعلق أجرة النسخ ، كما ذكرنا ، بضخامة الكتاب وشهرة الناسخ وحسن خطه وقوة ضبطه فنسخة من كتاب بخط ابن مقلة او ابن البواب تباع بثمن أغلى من ثمن نسخة اخرى من نفس الكتاب نسخها خطاط مغمور ، فقد روى ابن الفوطي « ان احمد بن أبي السعود الرصافي الكاتب كان يكتب خطاً مليحاً على طريقة ابن البواب وكان معجباً بخطه كتب نهج البلاغة بخطه ونادى عليه فدفع فيه خمسة دنانير فلم يبعه ثم نودي في الحال على قوائم بخط ابن البواب خمسة عشر ديناراً فاستشاط وقال يدفع في نهج البلاغة بخطي خمسة دنانير ويدفع في قوائم بخط ابن البواب خمسة عشر ديناراً وليس بين الخطين كبير فرق ولا سيما هذا التفاوت [2] . وكان ذلك في أوائل القرن السابع الهجري . ولقد كانت أجور النسخ زمن المأمون كل عشرة أوراق بدرهم ، ذلك ان الفراء بعد أن فرغ من املاء كتابه **كتاب المعاني** خزنه الوراقون عن الناس ليتكسبوا به وقالوا لا نخرجه لاحد الا لمن أراد أن ننسخه له على أن يكون عن كل خمسة أوراق درهم ، فشكا الناس إلى الفراء فدعا الوراقين وكلمهم في ذلك وقال قاربوا الناس تنفعوا وتنتفعوا فأبوا عليه فقال سأريكم وقال للناس اني أريد أن أملي كتاب معان أتم شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت قبلاً وجلس يملي فأملي في الحمد مائة ورقة فجاء الوراقون اليه وقالوا نحن نبلغ الناس ما يحبون فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم [3]

ويظهر ان الاجور تحسنت وارتفعت بعد ذلك فقد كان من عادة يحي بن

---

(١) **نفس المصدر** .
(٢) **ابن الفوطي الحوادث الجامعة** ... ص ١٨ ـ ١٩
(٣) ياقوت الحموي **معجم الادباء** . ج ٢٠ . ص ١٢ ـ ١٣

محمد الارزني أن ينسخ فصيح ثعلب ويبيعه بنصف دينار [١] . كذلك كان من عادة الحسن بن عبد الله المرزباني أن ينسخ في كل يوم عشر ورقات أجرتها عشرة دراهم [٢] . وكان ذلك في القرن الرابع الهجري .

كذلك اختلفت سرعة النساخ فقد كان من عادة يحي بن محمد الارزني المذكور آنفاً أن يخرج وقت العصر إلى سوق الكتب في بغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب **فصيح ثعلب** ويبيعه بنصف دينار ويشتري نبيذاً ولحماً وفاكهة ولا يبيت حتى ينفق ما معه [٣] .

وقد تمكن بعض البارعين في النسخ من القيام بأعمال عجيبة في هذا الميدان ؛ فهذا أبو الفوارس بن الخازن المتوفي سنة ٥٠٠ للهجرة والذي يصفه ابن كثير صاحب كتاب **البداية والنهاية** بأنه « الكاتب المشهور بالخط المنسوب ... قال ابن خلكان أنه كتب بيده خمسمائة ختمة [٤] » ويصف ابن النديم يحي بن عدي المنطقي بالناسخ ويقول عنه « قال لي يوماً بالوراقين وقد عاتبته على كثرة نسخه قال من أي شيء تعجب في هذا الوقت ؟ من صبري ؟ قد نسخت بخطي نسختين من التفسير للطبري وحملتهما إلى ملوك الاطراف ، وقد كتبت من كتب المتكلمين ما لا يحصى ، ولعهدي بنفسي وأنا أكتب في اليوم والليلة مائة ورقة وأقل [٥] » .

وقد كانت الوراقة (أي النسخ) مهنة الصلحاء والفضلاء الذين يريدون أن يكسبوا رزقهم حلالاً وبكد يمينهم ، وقد مر معنا ذكر الحسن بن عبد الله المرزباني النحوي وكيف كان ينسخ عشر ورقات يأخذ اجرتها عشرة دراهم

---

(١) **نفس المصدر** ٠ ج ٢٠ ٠ ص ٣٤
(٢) **نفس المصدر** ٠ ج ٨ ٠ ص ١٤٦
(٣) ياقوت الحموي ٠ **المصدر المذكور آنفا** ٠ ج ٢٠ ٠ ص ٣٤ ــ ٣٥
(٤) ابن كثير ٠ عماد الدين اسماعيل ٠ **البداية والنهاية** ٠٠٠ القاهرة مطبعة السعادة ١٣٥١ هـ ٠ ج ١٢ ٠ ص ١٧٠
(٥) ابن النديم **الفهرست** ص ٣٦٩

في ذلك ، ذلك انه كان زاهداً ورعاً ولم يأخذ على الحكم اجراً (اذ انه كان قاضياً) انما كان يأكل من كتب يمينه فكان لا يخرج إلى مجلس الحكم ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات يأخذ اجرتها عشرة دراهم تكون بقدر مؤونته ثم يخرج إلى مجلسه [1] . كذلك يذكر ابن خلكان أبا الفتوح أسعد بن أبي الفضائل محمد بن خلف العجلى فيصفه بأنه من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد مشهور بالعبادة والنسك والقناعة لا يأكل الا من كسب يده وكان يورق ويبيع ما يتقوت به [2] .

هذا وان من أهم صفات الناسخ التي يجب أن يتحلى بها الامانة فيما ينقل وينسخ اذ يجب أن ينقل طبق الاصل والا فسد المعنى وضاعت الفائدة من المنسوخ ، ولكن وجد من كان يتعمد الدس فيما ينسخه وشهر به ، فقد ذكر ياقوت ان الشاعر السري الرفاء الموصلي لما جاد شعره انتقل من حرفة الرفو إلى حرفة الادب واشتغل بالوراقة وكان ينسخ ديوان كشاجم وكان مغرماً به ، وكان يدس فيما يكتبه منه أحسن شعر الخالديين ليزيد في حجم ما ينسخه وينفق سوقه ويشنع بذلك على الخالديين لعداوة كانت بينه وبينهما فكان يدعي عليهما سرقة شعره وشعر غيره فكان فيما يدسه من شعرهما في ديوان اكشاجم يتوخى اثبات مدعاه [3] . وتوخى السري الرفاء سنة ٣٦٢ هـ .

وقد كانت مهنة النسخ من المهن المتعبة والمكروهة ، فقد روى ياقوت فن محمداً بن احمد الدقاق المعروف بابن الحاضنة المتوفي سنة ٤٨٩ هـ اصابته اقة اذ وقعت داره على قماشه وكتبه وكان ذا أسرة كبيرة فكان يورق للناس وينفق على أهله ، وقد اضطر ، كما يبدو ، لارهاق نفسه بالعمل

---

(١) ياقوت الحموي **معجم الادباء** • ج ٨ • ص ١٤٦ ــ ١٤٧

(٢) ابن خلكان **وفيات الاعيان** • ج ١ • ص ١٨٨ •

(٣) **ياقوت الحموي** • **معجم الادباء** • ج ١١ • ص ١٨٤
والخالديان هما ابو بكر محمد بن هاشم وابو عثمان سعيد بن هاشم وهما اخوان كانا من شعراء سيف الدولة الحمداني •

المتواصل ، اذ انه نسخ في سنة واحدة صحيح مسلم سبع مرات ، يقول عن نفسه « فلما كان ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت ومناد ينادي ابن الحاضنة فأحضرت فقيل لي ادخل الجنة فلما دخلت الباب وصرت في داخل استلقيت على قفاي ووضعت احدى رجلي على الاخرى وقلت آه استرحت والله من النسخ [1] ». كذلك يصف أبو محمد عبد الله بن محمد البكري الاندلسي الشاعر الوراقة بقوله :

أما الوراقة فهي أنكد حرفة | أوراقها وثمارها الحرمان
شبهت صاحبها بصاحب ابرة | تكسو العراة وجسمها عريان

ذلك ان هذا الشاعر رغم كونه شاعراً بارعاً كما يصفه ابن خلكان الا انه كان قليل الحظ الا من الحرمان وتبلغ من الوراقة وله منها جانب وبها بصر ثاقب فانتحلها على كساد سوقها وخلو طريقها [2] .

كذلك لم تكن مهنة النسخ من المهن المحترمة المرقومة ، بل بالعكس كان ينظر إلى منتحليها بشيء من الازدراء والاحتقار رغم ان عدداً كبيراً من العلماء والفضلاء والصلحاء اشتغلوا بها . فهذا علان الشعوبي أحضر إلى دار احمد بن أبي خالد الاصول أحد رجال الدولة العباسيين بعد المأمون ليكتب هناك وينسخ له . فأقام في داره فدخلها احمد بن أبي خالد يوماً فقام اليه جميع من فيها غير علان الوراق فانه لم يقم له . فقال احمد : ما أسوأ أدب هذا الوراق وسمعه علان فقال : كيف أنسب إلى سوء الادب ومني تتعلم الآداب وأنا معدنها ولماذا أردت مني القيام لك ولم آتك مستميحاً لك ولا راغباً اليك ولا طالباً منك وانما رغبت إلي في ان آتيك فاكتب عندك فجئتك لحاجتي إلى ما آخذه من الاجرة وقد كنت بغير هذا منك أولى ؛ ثم حلف إيماناً مؤكدة الا يكتب بعد يومه حرفاً في منزل أحد من خلق الله تعالى [3] .

---

(١) نفس المصدر ، ج ١٧ ، ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨
(٢) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ... ج ٢ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠
(٣) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج ١٢ ، ص ١٩١ ـ ١٩٢

وقد حصل قريب من هذا لأبي حيان التوحيدي ذلك أنه كان ينسخ ذات يوم شيئاً في دار الصاحب بن عباد فرآه الصاحب بن عباد ؛ يقول ابو حيان « فلما أبصرته قمت قائماً فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا [1] » .

ومما له علاقة بالنسخ والوراقة التجليد والزخرفة واعتبار الخط عنصراً ابداعياً جمالياً من عناصر الفن ، والفن الزخرفي خاصة . وقد اهتم المسلمون بالخط العربي كل الاهتمام وطوروه إلى أن بلغ أقصى درجات الكمال والابداع ، وكلنا يعرف أنواع الخط العربي ومميزات كل نوع من كوفي إلى نسخي إلى رقعي ... الخ ، وقد اشتهر بنو مقلة في صناعة الخط واتقانه ، وهم الذين طوروا الخط العربي واعتنوا به حتى أصبح عنصراً جمالياً يغالي القوم في الحصول عليه واقتنائه ، ثم أتى من بعدهم ابن البواب وحاول تقليدهم وقد كان أول أمره مزوقاً يصور الدور ثم صور الكتب ثم عانى الكتابة ففاق فيها المتقدمين وأعجز المتأخرين [2] . والواقع لقد انتشر استعمال الخط العربي كعنصر زخرفي في جميع البلاد الاسلامية وأصبحت تزين به جدران المساجد والقصور والمدارس ... الخ وانتقل هذا الفن الجميل إلى اوربا واستعمله الاوربيون في تزيين وزخرفة أبنيتهم وان لم يكونوا يعرفون مضمونه أو يفهمون معناه ، ذلك أنهم اقتبسوه كعنصر زخرفي فحسب . واهتم المسلمون أيضاً اهتماماً فائقاً بتزيين كتبهم وتحليتها بالذهب والفضة ، وكان نصيب المصاحف من ذلك نصيباً موفوراً . فقد وجد في خزانة العزيز بالله الفاطمي الفان وأربعمائة نسخة من القرآن الكريم في ربعات بخطوط منسوبة (أي معروف من هو كاتبها) زائدة الحسن محلاة بذهب وفضة وغيرهما [3] . وقد انتشرت عادة تزيين الكتب (ولا سيما المقدسة) وكتابتها بالذهب والفضة في جميع البلاد

---

(١) نفس المصدر . ج ١٥ . ص ٢٦

(٢) نفس المصدر . ج ١٥ . ص ١٢١

(٣) المقريزي . الخطط المقريزية ... ج ٢ . ص ٢٥٣

الاسلامية ، فقد زخرف المانويون كتبهم بالذهب والفضة ، ولما أحرقت كتبهم سنة ٣١١ هـ على باب العامة في بغداد مع صورة ماني سقط منها ذهب وفضة مما كان على هذه الكتب وكان له قدر [١] . وقد قلد أصحاب الحلاج المانوية في زخرفة كتبهم فكانت تكتب على ورق صيني وبعضها يكتب بماء الذهب ويبطن بالديباج والحرير ويجلد بالادم الجيد [٢] . ولما تولى قاضي القضاة عبد الجبار منصبه كان الوزير ابن عباد المتوفى سنة ٣٨٦ هـ هو الذي انشأ له العهد وكتبه له بخطه واعتنى بزخرفته ويقال انه كان سبعمائة سطر كل سطر في ورقة سمرقندية وله غلاف ابنوس يطبق كالاسطوانة الغليظة ، وقد أهدي هذا العهد في القرن الخامس الهجري للوزير نظام الملك مع هدايا اخرى كان منها مصحف بخط أحد الكتاب المجودين بالخط الواضح وقد كتب كاتبه ختلاف القراء بين سطوره بالحمرة ، وتفسير غريبه بالخضرة ، واعرابه بالزرقة ، وكتب بالذهب علامات على الآيات التي تصلح للانتزاعات في العهود والمكاتبات وآيات الوعد والوعيد وما يكتب في التعازي والتهاني [٣] .
وكان أكبر ما يعنى به عشاق الكتب ومحبوها الكتب والمخطوطات التي كتبها كبار الخطاطين والتي تعتبر مخطوطاتهم منسوبة لأصحابها في النسخ أصل منسوب .
كذلك سيطر الذوق الجميل على تجليد الكتب فانتج المسلمون منها آيات رائعة ، واهتموا بالجلود كل الاهتمام ، وقد اشتهرت العراق بتجليدها المتقن الجميل ، وكذلك اشتهرت مالقة في الاندلس بأنها مركز صناعة الجلود الممتازة ومركز التجليد الفاخر . وقد كانت المكتبات الكبرى تحوي قسماً للتجليد فكانت ترسل الكتب إلى ذلك القسم لتجليدها بعد الفراغ من نسخها ، وقد مر معنا ذكر ابن أبي الحريش المجلد في بيت الحكمة ، هذا وان اتساع نطاق العالم الاسلامي وتعدد أجناسه ونماذجه الحضارية أدت ، مع عوامل اخرى ، إلى

---

(١) ميتز ، آدم · **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري** جـ ١ · ص ٢٤٧

(٢) **نفس المصدر** ·

(٣) **نفس المصدر** · جـ ١ · ص ٢٤٨

نشوء ما يمكن أن يسمى بمدارس التجليد . فقد سبق أن ذكرنا اهتمام أهل العراق بالتجليد الجيد الجميل الفني ، وكذلك ذكرنا اتقان أهل الاندلس لهذا الفن . وقد تطور هذا الفن في مصر في القرنين الثاني والثالث الهجريين إلى درجة كبيرة من الرقي ، ولكنه ظل في بعض الاماكن يتبع أساليب أقل تطوراً مما هي عليه في أماكن اخرى. يبدو ذلك واضحاً من نص للمقدسي أثناء كلامه عن التجليد في اليمن . يقول المقدسي « إن أهل اليمن يعجبهم التجليد الحسن ويبذلون فيه الاجرة الوافرة »[١] . ثم يصف طريقة تجليدهم وهي طريقة بدائية اذا قيست بطرق أهل العراق وسورية ومصر آنذاك ؛ فيقول « وباليمن يلزقون الدروج ويبطنون الدفاتر بالنشـا ، وبعث إلي أمير عدن مصحفاً أجلده فسألت عن الاشـراس بالعطارين فلم يعرفوه ودلوني على المحتسب وقالوا عساه يعرفه فلما سألته قال من أين انت ؟ قلت من فلسطين . قال انت من بلد الرخاء ، ولو كان لهم أشراس لأكلوه عليك بالنشاء[٢] » وأما أجور التجليد فلا نعرف عنها شيئاً ذا غناء سوى أن المقدسي يذكر في النص السابق أعلاه انه ربما كان يتقاضى دينارين اجراً لتجليد المصحف[٣] . وطبعاً لا نتصور الا ان أجور التجليد الفني المزخرف أعلى من ذلك بكثير .

---

(١) المقدسي . **أحسن التقاسيم** ... ص ١٠٠
(٢) **نفس المصدر** .
(٣) **نفس المصدر** .

الفَصْلُ السَّابع

المَكتَباتُ وَالكُتُبُ وَالكُتَّابُ

أما وقد فرغنا من بحث تنظيم المكتبات الاسلامية وبينا طرق هذا التنظيم وفصلنا القول في مختلف المواضيع التي المعنا اليها ، فاننا نود أن نعرض عرضاً سريعاً — في هذا الفصل — لبعض النواحي التفصيلية التي لها علاقة بالكتب والمكتبات والكتاب ولكن لا يجمعها رأس موضوع واحد ؛ ذلك اننا نريد أن نبحث في هذا الفصل المواضيع التالية : تأليف الكتاب باسم احد الحكام واهداؤه له ، الكتاب كهدية ، رحلة الكتب ، كيفية استعمال المكتبات من قبل الباحثين ومدى استفادتهم من محتوياتها ؛ مميزات المكتبات الاسلامية ؛ اضطهاد الكتب والمكتبات والكتاب ؛ وأخيراً مصير هذه المكتبات العظيمة .

تأليف الكتاب باسم أحد الحكام واهداؤه له :

جرت عادة كثير من المؤلفين في الاسلام أن يختصوا بخدمة خليفة او حاكم أو وزير أو أمير ونحوه وذلك رغبة منهم في حماية أنفسهم وفي رواج أعمالهم وارتفاع أسمائهم وتأمين مورد للعيش أفضل من المورد الذي يؤمنه لهم التأليف وحده دون حمايـــة أو رعاية . والأمثلة على ذلك كثيرة جداً ؛ فقد ذكرنا سابقاً قصة الحسن بن سهل وزير المأمون وكيف ان سهل بن هرون صاحب بيت الحكمة الف كتاباً في البخل ومدحه وأهداه للوزير فلم يصله الوزير بشيء ؛ كذلك ذكرنا قصة ابن بختيشوع الطبيب وكيف أنه عمل كناشه الصغير في الطب وسماه الكافي على لقب الصاحب بن عباد وأهداه

اياه فوصله بشيء قيمته الف دينار وكان دائماً يقول « صنفت مائتي ورقة أخذت منها الف دينار [1] » . ويروى عن الجاحظ قوله « أهديت كتاب **الحيوان** إلى محمد بن عبد الملك فأعطاني خمسة الاف دينار ، وأهديت كتاب **البيان والتبيين** إلى ابن أبي دؤاد فأعطاني خمسة الاف دينار ، وأهديت كتاب **الزرع والنخل** إلى ابراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة الاف دينار [2] » . وقد ذكر ان أبا الفرج الاصفهاني أهدى كتابه الشهير **الاغاني** عند فراغه منه إلى سيف الدولة الحمداني فأعطاه الف دينار واعتذر اليه [3] . كذلك ذكر ان أبا اسحق الصابي المؤرخ المعروف صنف كتاب **التاجي** في أخبار بني بويه لعضد الدولة (أواسط القرن الرابع الهجري) ، وصنف له الشيخ أبو علي الفارسي كتاب **الايضاح والتكملة في النحو** [4] .

وقد صنف العالم المسلم الشهير البيروني في أوائل القرن الخامس الهجري **القانون المسعودي** للسلطان مسعود الغزنوي ، وهو تقويم دقيق سماه باسم السلطان فكافأه السلطان بحمل فيل من نقده الفضي فرده إلى الخزانة بعذر الاستغناء عنه ورفض العادة في الاستغناء به [5] . ويبدو لنا انه ــ أي البيروني ــ وجد المبلغ قليلاً لا يتكافأ مع جهوده التي بذلها في تأليف الكتاب ولا يتناسب مع أهمية الكتاب العلمية ولا مع مكانته هو كمؤلف ولا مكانة السلطان مسعود .

وقد درج العلماء والادباء في الاندلس أيضاً أن يؤلفوا الكتب باسم الحكام وأن يهدوها لهم ؛ فمن ذلك ما ذكر سابقاً عن قدوم أبي علي القالي إلى الاندلس من بلاد المشرق وانقطاعه إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر وولده

---

(١) ابن أبي اصيبعة ٠ **طبقات الاطباء** ٠ ج ٣ ص ٧٤ ــ ٧٥
(٢) ياقوت الحموي ٠ **معجم الادباء** ٠ ج ١٦ ٠ ص ١٠٦
(٣) ابن خلكان **وفيات الاعيان** ٠٠٠ ج ٢ ٠ ص ٤٦٨
(٤) **نفس المصدر** ٠ ج ٣ ٠ ص ٢١٨
(٥) ياقوت الحموي ٠ **معجم الادباء** ٠ ج ١٧ ٠ ص ١٨١

الحكم الثاني ؛ ومن ذلك ما يروى عن صاعد بن الحسن بن عيسى المعروف بابي العلاء من انه اختص بالمنصور ابن أبي عامر ابان استبداده بأمور الاندلس وانه الف له كتابين دعا الأول **الفصوص في الآداب والأشعار والاخبار**، نحا فيه منحى القالي في اماليه وكان ذلك سنة ٣٨٥ هـ فأثابه المنصور عليه بخمسة الاف دينار في دفعة [١] ، والثاني كتاب **الجواس بن قعطل المذحجي مع ابنة عمه غفراء** ؛ ويصفه ياقوت بأنه كتاب لطيف ممتع جداً كان المنصور كثير الشغف به حتى انه رتب له من يقرؤه بحضرته كل ليلة [٢] . ومن أطرف ما يروى عن صاعد هذا انه بعد ان انتهى من تأليف كتاب **الفصوص** باسم المنصور دفعه لغلام له يحمله بين يديه وعبر الغلام نهر قرطبة فزلت قدمه فسقط في النهر هو والكتاب ؛ فقال في ذلك ابن العريف وكان بينه وبين ابي العلاء شحناء ومناظرات .

قد غاص في البحر كتاب الفصوص　　　وهكذا كل ثقيـــل يغوص

فضحك المنصور والحاضرون فلم يرع ذلك صاعداً وانما قال على البديهة مجيباً لابن العريف :

عـــاد إلى معدنـــــه انمـــــا　　　توجد في قعر البحار الفصوص [٣]

ويتهم ابن خلكان صاعداً هذا بالكذب في نقله ولذا رفض الناس كتابه [٤] .
كذلك الف ابن سيده المتوفي سنة ٤٥٨ هـ كتاب **المحكم** في الانيدلس وأهداه إلى أبي الحبيش مجاهد بن عبد الله العامري حاكم دانية بين عامي ٤٠٨ و ٤٣٢ هـ [٥] .

---

(١) ابن بشكوال **كتاب الصلة** ... ج ١ . ص ٢٣٣
(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ١١ . ص ٢٨٤ ــ ٢٨٥
(٣) **نفس المصدر** . ج ١١ . ص ٢٨٤
(٤) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** ... ج ٢ . ص ١٨١
(٥) نصار ، حسين . **المعجم العربي** ... القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٦ م . ج ٢ . ج ١ . ص ٣٤٤

وقد استمرت هذه العادة ، عادة تأليف الكتاب باسم أحد الامراء واهداؤه له التماساً لبره وعطفه وحمايته ، حتى عصور الانحطاط ؛ فقد ذكر ان ابن الساعي صاحب تاريخ بغداد كان يكتب ويؤلف المؤلفات في التاريخ وما كان يكتب مجلداً الا ويحصل له في مقابله المائة دينار والثلاثمائة [1] .

كان ذلك هو النموذج الغالب والصورة الشائعة للتأليف وللمؤلفين آنذاك ؛ ولكن وجد إلى جانب هذه الصورة صورة اخرى لعلماء أعلام رفضوا أن يكون علمهم الا لله وللعلم خالصاً ولم يتصلوا بصاحب سلطة ورفضوا أن يضيفوا اسم صاحب السلطان إلى مؤلفاتهم رغم الوعود الكثيرة والاماني الجسيمة فقد ذكروا ان ابن التياني تمام بن غالب بن عمر اللغوي الف كتاباً في اللغة يصفه ابن بشكوال بقوله انه لم يصنف مثله اختصاراً واكثاراً [2] . فلما وصل خبره إلى الأمير أبي الحبيش مجاهد بن عبد الله العامري وجه إلى أبي غالب أيام غلبته على مرسية ، وأبو غالب ساكن بها ، الف دينار اندلسية على أن يزيد في ترجمة هذا الكتاب « مما الفه تمام بن غالب لأبي الحبيش مجاهد » ، فرد الدنانير وأبى ذلك ولم يفتح في هـذا باباً البتة وقال « والله لو بذلت لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت الكذب فاني لم أجمعه له خاصة ولكن لكل طالب عامة [3] » ؛ ويعلق ابن بشكوال على ذلك بقوله « فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها [4] » .

والأمثلة كثيرة جداً على علماء وأدباء الفوا كتبهم للعلم ولوجه الله تعالى وبجميع الناس ورفضوا أن يتصلوا بباب السلطان ؛ بل ان منهم من خاف أن يكون تأليفه غير خالص لوجه الله تعالى فعزم على اتلافها كما يبدو من قصة الامام الماوردي المؤلف الشهير فقد قيل انه لم يظهر من تصانيفه في حياته

---

(١) معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . ص ٢٨٠
(٢) ابن بشكوال . **كتاب الصلة** ... ج ١ . ص ١٢٢
(٣) **نفس المصدر** .
(٤) **نفس المصدر** .

شيئاً وانما جمعها كلها في موضع فلما دنيت وفاته قال لشخص يثق به : الكتب التي في المكان الفلاني كلها تصنيفي واني لم اظهرهــا لأني لم أجد نية خالصة لله تعالى لم يشبها كدر ، فإن عانيت الموت ووقعت في النزع فاجعل يدك في يدي ، فاذا أطبقت عليها وعصرتها فاعلم انه لم يقبل مني شيء منهــا فاعمد إلى الكتب والقها في دجلة ليلاً ، وان بسطت يدي ولم أقبض على يدك فاعلم انها قبلت واني قد ظفرت بما كنت أرجوه من النية الخالصة . قال ذلك الشخص فلما قارب الموت وضعت يدي في يده فبسطها ولم يقبض على يدي فعلمت انها علامة القبول فأظهرت كتبه بعده (١) .

الكتاب كهدية :

كانت الكتب ، ولا سيما اذا كانت نادرة جيدة الخط فنية التجليد ، من أنفس الهدايا وأجملها وقعاً في النفس اذا كان المهدى له شخصاً ذا ثقافة عالية . فقد أهدى الجاحظ هدية قيمة إلى محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وهي كتاب سيبويه وكان الجاحظ قد اشتراه من ميراث الفراء فلما وصل اليه (إلى الوزير) الجاحظ بكتاب سيبويه أعلمه به قبل احضاره فقال له ابن الزيات أو ظننت ان خزانتنا خالية من هذا الكتاب ؟ فقال الجاحظ « ما ظننت ذلك ولكنها بخط الفراء ومقابلة الكسائي وتهذيب عمرو بن بحر الجاحظ يعني نفسه فقال ابن الزيات هذه أجل نسخة توجد وأعزها والله ما أهديت لي شيئاً أحب إلي منه فأحضرها اليه فسر بها ووقعت منه أجمل موقع (٢) .

ولقد بعث قاضي قزوين الملقب بالعميدي بهدية قيمة من كتب إلى الصاحب بن عباد وكتب معها هذين البيتين :

---

(١) ابن خلكان **وفيات الاعيان** جـ ٢ . ص ٤٤٤
(٢) **نفس المصدر** . جـ ٣ . ص ١٣٣

العميدي عبد كافي الكفاة وإنه أعقل في وجوه القضاة
خدم المجلس الرفيع بكتب منعمات من حسنها مترعات

فلما وصلت الكتب إلى الصاحب أخذ منها كتاباً واحداً ورد باقيها وكتب تحت البيتين السالفين :

قد قبلنا من الجميع كتاباً ورددنا لوقتها الباقيات
لست استغنم الكثير وطبعي قول خذ ليس مذهبي قول هات[1]

وقد كانت الكتب السبيل للاسترفاد والاستجداء الادبي ، ولا سيما اذا وقعت من الشخص المهداة اليه موقعاً حسناً . قال ابن حجر العسقلاني أثناء حديثه عن ابن الفوطي « كتب بخطه المليح كثيراً جداً ... وكان له نظم حسن ، وخط بديع جداً ملكت بخطه خريدة القصر للعماد الكاتب في أربع مجلدات في القطع الكبير وقدمتها لصاحب اليمن فأثابني عليها نوالاً جزيلاً جداً[2]

هذا هو الاهداء من أجل الاسترفاد ، ولكن كان ولا يزال هناك تبادل للهدايا بين الاصدقاء من أجل المودة الخالصة لا من أجل جر منافع او تزلف لذي سلطان . يذكر ابن أبي اصيبعة أثناء حديثه عن الصاحب امين الدولة وزير الملك الصالح حاكم دمشق أواخر عهد الايوبين انه (أي الصاحب) كانت بينه وبين والد ابن أبي اصيبعة مودة فقال له امين الدولة يوماً : بلغني ان ابنك قد صنف كتاباً في طبقات الاطباء ما سبق اليه ، وجماعة الاطباء الذين يأتون إلي شاكرون منه . وهذا الكتاب جليل القدر وقد اجتمع عندي في خزانتي أكثر من عشرين الف مجلد ما فيها شيء من هذا الفن ، واشتهى منك أن تبعث اليه يكتب نسخة من هذا الكتاب . « وكنت (الكلام لابن أبي اصيبعة) يومئذ بصرخد (صلخد الحالية جنوبي سورية) عند مالكها الأمير عز الدين ايبك المعظمي فامتثل أمره ، ولما وصلني كتاب أبي أتيت إلى دمشق واستصحبت

---

(١) ابن كثير . **البداية والنهاية** ... ١١ ج . ص ٣١٤
(٢) ابن الفوطي . **تلخيص مجمع الاداب** . ص ٤٢

معي مسودات من الكتاب واستدعيت الشريف الناسخ وهو شمس الدين محمد الحسيني وكان كثيراً ما ينسخ لنا وخطه منسوب في نهاية الجودة وهو فاضل في العربية ، فاخليت له موضعاً عندنا وكتب الكتاب في مدة يسيرة في تقطيع ربع البغدادي أربعة أجزاء . ولما تجلدت عملت قصيدة مديح في الصاحب أمين الدولة وبعثت بالجميع اليه مع قاض القضاة بدمشق رفيع الدين الجبلي وهو من جملة المشايخ الذين اشتغلت عليهم ... وكان بيني وبينه انس كبير . ولما وقف امين الدولة على ذلك أعجبه غاية الاعجاب وفرح به كثيراً وأرسل إلي مع القاضي المال الجزيل والخلع الفاخرة وتشكر وقال اشتهى منك ان كلما تصنفه من الكتاب تعرفني به [1] » . وقد كانت بعض الهدايا من الكتب احياناً ذات قيمة وافرة ، فقد أهدى عبد الله بن احمد بن طباطب الحسني إلى أبي بكر الطحاوي كتباً قيمتها الف دينار [2] . (وكان ذلك في القرن الرابع الهجري) . ويطول الحديث في هذا الباب ان أردنا الاستقصاء .

رحلة الكتب :

كانت البلاد الاسلامية وحدة ثقافية واحدة رغم التجزئة السياسية التي أصابتها وجعلت منها عدداً كبيراً جداً من الدويلات الهزيلة المتقسمة ؛ وكانت الافكار والكتب والبضائع والاشخاص تنتقل بحرية تامة ، والاغلب انانتقال الكتب كان يتم من الشرق إلى الغرب أي إلى الاندلس حيث ان الشرق كان – في عصوره الاولى على الاقل – متقدماً على الاندلس في التأليف . وقد ذكرنا سابقاً سلمة بن سعيد الاندلسي وقدومه إلى الشرق واستقراره في مصر وجمعه الكتب من جميع أرجاء العالم الاسلامي وذهابه بها إلى الاندلس في أواخر القرن الرابع الهجري . كذلك فقد سافر الكرماني أحد رجالات الاندلس إلى المشرق وعند عودته اليها جلب معه رسائل اخوان الصفا [3] . وقد مر

(١) ابن أبي اصيبعة **طبقات الاطباء** . ج ٢ . ص ٣٨٦ – ٣٨٧

(٢) المقريزي . **الخطط المقريزية** . ج ٢ . ص ١١٩

(٣) أمين ، أحمد . **ظهر الاسلام** ج ٣ . ص ٢٣٣

معنا سابقاً كيف كان الحكم الثاني في القرن الرابع الهجري يبعث البعوث ويرسل الوكلاء والتجار إلى جميع البلاد الاسلامية لشراء الكتب واستجلابها إلى الاندلس من المشرق حتى اجتمع عنده منها مالم يجتمع لغيره قط . وقد تأخر وصول بعض الكتب المشهورة إلى الاندلس فقد وصل كتاب القانون في الطب لابن سينا أول ما وصل إلى الاندلس زمن أبي العلاء ابن زهر (القرن الخامس الهجري) ، ذلك ان رجلاً من التجار جلب من العراق إلى الاندلس نسخة من هذا الكتاب قد بولغ في تحسينها فاتحف بها أبا العلاء بن زهر تقرباً اليه ولم يكن هذا الكتاب وقع اليه قبل ذلك [1] ، ولكن الغريب في الأمر أنه لم يقع منه موقعاً حسناً ، ذلك انه لما تأمله ذمه واطرحه ولم يدخله خزانة كتبه وجعل يقطع من طرره ما يكتب فيه نسخ الادوية لمن يستفتيه من المرضى [2] . كذلك يذكر ابن جلجل ان كتاب الحشائش لديسقوريدس بتعريب اصطفان بن باسيل واصلاح حنين بن اسحق كان معروفاً عند الاندلسيين زمن عبد الرحمن الناصر [3] . ولقد كانت ترد كتبأجنبية من البلدان الاخرى هدية الى الحكام المسلمين ، فقد أرسل ارمانيوس امبراطور الروم هدية عجيبة إلى الخليفة الناصر لدين الله الاندلسي وكان من جملتها كتابان . يقول ابن جلجل « وورد هذا الكتاب (كتاب الحشائش المصورة) إلى الاندلس وهو على ترجمة اصطفن منه ما عرف له اسماً بالعربية ومنه ما لم يعرف له اسماً فانتفع الناس بالمعروف منه بالمشرق والاندلس إلى أيام الناصر عبد الرحمن بن محمد وهو يومئذ صاحب الاندلس فكاتبه ارمانيوس الملك ملك القسطنطينية ، أحسب سنة ٣٣٧ هـ ، وهاداه بهدايا لها قدر عظيم فكان من جملة هديته كتاب ديسقوريدوس مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب . وكان الكتاب مكتوباً بالاغريقي (اليـــوناني) وبعث معه كتاب هروسيوس صاحب

---

(١) ابن أبي اصيبعة طبقات الاطباء • ج ٣ • ص ١٠٤

(٢) نفس المصدر ج ٣ • ص ١٠٥

(٣) ابن جلجل • طبقات الاطباء • مقدمة : ص ٢٢

القصص (واسمه الحقيقي باولوس اوروسيوس) ، وهو تاريخ للروم عجيب فيه أخبار الدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة ، وكتب ارمانيوس في كتاب إلى الناصر ان كتاب ديسقوريدس لا تجتنى فائدة الا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الادمية فإن كان في بلدك من يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب ، وأما كتاب هروسيوس فعندك في بلدك من اللطينيين من يقرأ باللسان اللاطيني وان كشفتهم عنه نقلوه لك من اللاطيني إلى اللسان العربي [1] . ويقول ابن جلجل أنه لم يكن يومئذ بقرطبة من نصارى الأندلس من يقرأ اللسان الاغريقي الذي هو اليوناني القديم فبقي كتاب ديسقوريدس في خزانة عبد الرحمن الناصر باللسان الاغريقي ولم يترجم إلى اللسان العربي وبقي الكتاب بالاندلس والذي بأيدي الناس بترجمة اصطفن الواردة من مدينة السلام [2] .

وبهذه المناسبة فقد كانت الكتب التي تبعث بها الدولة البيزنطية إلى الدول الاسلامية وحكامها تحفاً فنية رائعة بحسن منظرها وجمالها وزخرفها وحسن خطها والهالة الفنية التي تحاط بها ، وكل ذلك ، طبعاً من أجل اظهار عظمة الدولة ورقيها الحضاري ؛ فقد ورد على الخليفة عبد الرحمن الناصر بقرطبة كتاب من صاحب القسطنطينية وكان في ورق مصبوغ لوناً سماوياً مكتوباً بالذهب بالخط الاغريقي ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة (ايضاً مكتوبة بفضة بخط اغريقي أيضاً)؛ وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل على الوجه الواحد صورة المسيح عليه السلام وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع ، وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالديباج [3] . وقد كانت الكتب المرسلة إلى العباسيين

---

(١) **نفس المصدر** . المقدمة . ك

(٢) **نفس المصدر** .

(٣) **المقري** ، احمد بن محمد التلمسانى . **نفح الطيب** ... تحقيق =

من أباطرة الروم على نفس الدرجة من الجمال والزخرفة واظهار ابهة الدولة البيزنطية وتفوقها الحضاري فقد أرسل ملك الروم كتاباً سنة ٣٢٦ هـ إلى الخليفة العباسي الراضي بالله اذ كانت الكتابة بالرومية بالذهب والترجمة بالعربية بالفضة [(١)] .

ومما له علاقة برحلة الكتب ما يحكى عن يحيى بن علي التبريزي المعروف بالخطيب ، ذلك ان الخطيب التبريزي هذا (ويسميه ياقوت يحيى بن علي الشيباني [(٢)]) حصلت له نسخة من كتاب **التهذيب في اللغة** تأليف أبي منصور الازهري في عدة مجلدات لطاف وأراد تحقيق ما فيها وأخذها عن رجل عالم باللغة فدل على المعري (أبي العلاء المعري) فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً فنفذ العرق من ظهره اليها فاثر فيها البلل وهي ببعض الوقوف في بغداد، واذا رآها من لا يعرف صورة الحال ظن انها غريقة ، وليس بها سوى عرق الخطيب المذكور [(٣)] »

اللهم أننا لا نعرف انساناً أحب العلم وشغف به وتعب في سبيل الحصول عليه وصحى من أجله كما فعل الخطيب التبريزي المذكور آنفاً ، ولا نظن ان حب العلم والرغبة في الاطلاع والاستزادة من المعرفة والتلمذ على استاذ شهير يصل بالانسان حداً يجعله يقطع مسافة تربو على الفين من الكيلومترات ماشياً وكتبه موضوعة في مخلاة على ظهره كما فعل خطيبنا هذا ، فرحم الله الخطيب التبريزي وأمثاله ، وان المسلمين وصلوا إلى ما وصلوا اليه بأمثال الخطيب فأكثر اللهم من أمثاله بيننا ولا سيما في هذه الايام اذ اننا أحوج ما نكون إلى بحاثة وعلماء وتلاميذ من طراز الخطيب التبريزي .

= احسان عباس . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ م . ج ١ . ص ٣٦٧ ـ ٣٦٨

(١) ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري** . ج ١ . ص ٢٤٧

(٢) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** . ج ٢ . ص ٢٦

(٣) ابن خلكان . **وفيات الاعيان** . ج ٥ ص ٢٣٩

استعمال المكتبات للبحث والاستفادة من محتوياتها :

لم تكن المكتبات في الاسلام موجودة لمجرد الزينة أو للتباهي والتفاخر أو لقطع الوقت وتزجية الفراغ أو ارضاء لهواية جمع الكتب ، بل كانت لغاية أسمى من ذلك بكثير ، فقد كانت مكاناً لتثقيف الشعب ككل ومكاناً للبحث والدرس والتأليف والتمحيص بشكل خاص . وان النشاط الهائل الذي أظهره علماء الاسلام وادباؤه عائد بالدرجة الأولى إلى حسن استخدامهم المواد التي توفرت لديهم في مكتباتهم ، فالمأمون الذكي الطلعة استفاد فائدة كبرى من مطالعاته في مكتباته واشتهر بالعلم والذكاء لكثرة ما قرأ وبحث وكذلك الجاحظ العالم الموسوعي الذي جمع فأوعى والف المؤلفات العظيمة استفاد كل الفائدة من المكتبات ومن دكاكين الوراقين ، وكانت مؤلفاته ثمرة مبيته الليالي الطوال في دكاكين الوراقين يطالع ويدرس ، وان كتاب **الفهرست** لابن النديم كان ثمرة لاشتغال مؤلفه النشيط بالوراقة والنسخ والأمور المكتبية ، ويستطيع المرء أن يتخيل مقدار الخسارة التي كانت من الممكن أن تلحق بالتراث الاسلامي لو فقد هذا الكتاب ، ذلك ان هذا الكتاب حوى معلومات عن الكتب والمؤلفين والنقل والتعريب ليست موجودة في غيره من الكتب وكل من أتى بعده نقل منه واعتمد عليه وهو مدين له في هذه الناحية

هذا وان فيلسوفنا العظيم وطبيبنا النطاسي ابن سينا مدين بعلمه وكتبه ومؤلفاته إلى مطالعاته وحسن استفادته من محتويات مكتبة السلطان نوح بن منصور الساماني التي أطلع عليها وحده وهو في ابان تفتحه وأوان نضجه ، والتي يصفها بأنها تحوي من الكتب ما لم يصل اسمه إلى كثير من الناس — بله محتوياته .

كذلك استفاد المؤرخ الكبير ابن مسكويه من كونه خازناً لمكتبتين من أشهر مكتبات عصره وهما مكتبة عضد الدولة البويهي ومكتبة ابن العميد فاستمد مادة كتبه في التاريخ والأخلاق منهما .

حتى الحكام والخلفاء الاذكياء الذين أحبوا الكتب وجمعوها بالألوف واعتنوا بها وأنفقوا عليها قسماً كبيراً من أموالهم أحسنوا الاستفادة من كتبهم ومكتباتهم ، فهذا هو الحكم الثاني خليفة قرطبة الذي لعله أعلم خليفة في الاسلام يصفه صاحب **نفح الطيب** ويصف استفادته من كتبه بقوله « وكان ذا غرام بها (بالكتب) فقد آثر ذلك على لذات الملوك فاستوسع علمه ودق نظره وجمت استفادته [1] . وذكر في مكان آخر « وقلما يوجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان ويكتب نسب المؤلف ومولده ووفاته ويأتي من بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن [2] .

بل ان بعض ملوك الطوائف في الاندلس كالمظفر بن الافطس استفادوا من مجموعاتهم إلى الحد الذي جعلهم مؤلفين حقيقيين ، فقد الف هذا الملك **الكتاب المظفري** في خمسين مجلداً يشتمل على فنون وعلوم ومغاز وسير ومثل وخبر وجميع ما يختص به علم الادب [3] . فهو بهذا المعنى دائرة معارف أدبية حقيقية .

ولقد استفاد ياقوت الحموي من مكتبات مرو العشر التي ذكرها استفادة جلى ، وهو نفسه اعترف بذلك بقوله « فكنت أرتع فيها واقتبس من فوائدها وانساني حبها كل بلد والهاني عن الاهل والولد ، وأكثر فوائد هذا الكتاب (يقصد معجم البلدان) وغيره مما جمعته فهو من تلك الخزائن [4] .

كذلك أحسن ابن الفوطي استخدام المواد التي وجدها تحت تصرفه في مكتبتي الرصد في مراغة والمدرسة المستنصرية في بغداد ، ذلك أنه أمضى شطراً كبيراً جداً من حياته خازناً وأميناً لأكبر مكتبتين علميتين على عهده ، وكان ذا ذكاء مفرط فقرأ ما شاء ونقل ما أراد ، وكانت المكتبتان غاصتين

---

(١) المقري • **نفح الطيب** • ج ١ • ص ٣٩٥

(٢) **نفس المصدر** •

(٣) **نفس المصدر** • ج ٣ • ص ٣٨٠

(٤) ياقوت الحموي • **معجم البلدان** ج ٦ • ص ٢٥٥ ــ ٢٥٦

بالكتب النفيسة النادرة في جميع المواضيع من تاريخ وسير والقاب وأنساب وفقه وحديث وأخبار وأدب وشعر ولغة وتصوف وحكمة وطب وما وراء الطبيعة ... فاستطاع ، مع وجود هذه المصادر وفي مثل الجو العلمي الذي وجد به أن يؤلف عدداً من المؤلفات القيمة .

وأما ابن خلكان فهو نفسه يعترف بأنه تمكن من تأليف كتابه القيم **وفيات الاعيان** بعد ان امتص المعلومات الموجودة في كتب معينة كان يهدف من زمن بعيد إلى مطالعتها « فلما وصلت إلى القاهرة صادفت فيها كتباً كنت اؤثر الوقوف عليها ، وما كنت أتفرغ لها ؛ فلما صرت أفرغ من حجام ساباط بعد ان كنت أشغل من ذات النحيين كما يقال في هذين المثلين طالعت تلك الكتب وأخذت منها حاجتي ثم قصدت لاتمام هذا الكتاب (كتاب **وفيات الاعيان**) حتى كمل على هذه الصورة [1] .

على انه وجد بعض المؤلفين الذين كانوا يسيئون استعمال المكتبات وكتب الآخرين . فاحمد بن علي الخطيب يتهم بأنه الف أغلب كتبه ما عدا التاريخ استناداً على أعمال كان غيره قد بدأ بها ولم يتمها فحصلت له وتممها هو ونسبها إلى نفسه ، يقول ياقوت « سمعت أبا الحسين بن الطيوري ببغداد يقول : أكثر كتب الخطيب سوى التاريخ مستفادة من كتب الصوري ، كان الصوري بدأ بها ولم يتممها ، وكانت للصوري اخت بصور فمات وخلف عندها اثنى عشر عدلاً مخروماً من الكتب فلما خرج الخطيب إلى الشام حصل من كتبه ما صنف به كتبه [2] .

وكذلك يصف ياقوت نفسه أبا جعفر محمد بن حبيب المتوفى ٢٤٥ هـ الأنه كان يغير على كتب الناس فيدعيها ويسقط اسماءهم « فمن ذلك الكتاب بذي الفه اسماعيل بن أبي عبيد الله ، واسم أبي عبيد الله معاوية ، وكنيته

---

(١) ابن خلكان · **وفيات الاعيان** جـ ٦ · ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦
(٢) ياقوت الحموي · **معجم الادباء** جـ ٤ · ص ٢١ ـ ٢٢

هي الغالبة على اسمه فلم يذكرها لئلا يعرف وابتدأ فساق كتاب الرجل من أوله إلى اخره فلم يخلطه بغيره ولم يغير منه حرفاً ولا زاد فيه شيئاً ، فلما ختمه أتبع ذلك بذكر من لقب من الشعراء ببيت قاله ... وما علمت ان احداً من العلماء صنع صنيعه هذا ولا من استحسن أن يضع نفسه هذا الموضع القبيح ، واحسب الذي احمله على ذلك ان كتاب اسماعيل هذا لم تكثر روايته ولا اتسع في أيدي الادباء ؛ فقدر ابن حبيب ان امره ينستر وان اغارته عليه تميت ذكر صاحبه [1] » .

كره الكتب :

مر معنا سابقاً ، أمثلة حية رائعة غزيرة على حب المسلمين للكتب والمكتبات وتقديرهم لها ، ولكن وجد ، إلى جانب تلك الأغلبية الساحقة وإلى جانب ذلك الحب العظيم ، أمثلة تدعو ، لا نقول إلى كره الكتب وكره المكتبات ، وانما على عدم الاعتماد الكلي على الكتاب وإلى عدم المغالاة في حب الكتاب، وجمعها من أجمل الزينة والتفاخر . والمأثور عند المسلمين ان العلم في الصدور لا في السطور . ويقول أبو حامد الغرناطي المتوفي بدمشق سنة ٥٦٥ هـ .

العلم في القلب ليس العلم في الكتـــب
فلا تكن مغرماً باللهـــو واللعـــــب
فاحفظه وافهمه واعمل كي تفوز به
فالعلم لا يجتنى الا مـــع التعـــب [2] .

كذلك يروي ياقوت الحموي انه « كان لأبي بكر الصولي خزانة أفردها لما جمع من الكتب المختلفة ورتبها فيها أجمل ترتيب ، وكان يقول لاصحابه : كل ما في هذه الخزانة سماعي . واذا أراد مراجعة كتاب منها قال :

---

(١) نفس المصدر ، ج ١٨ ، ص ١١٣
(٢) المقري نفح الطيب ج ٢ ، ص ٢٣٦

يا غلام هات الكتاب الفلاني ؛ فسمعه يوماً ابو سعيد العقيلي يقول ذلك فانشد :

انما الصولي شيخ اعلم الناس خزانة
ان سألناه بعلم نبتغي عنه الابانة
قال يا غلمان هاتوا رزمة العلم فلانة [1]

وواضح من هذا المثل ومما مر من أمثلة اخرى ان المقصود بذلك ليس الكتب او المكتبة انما المقصود الطريقة التي استعملت بها هذه الكتب وهذه المكتبات .

اضطهاد الكتب والمكتبات :

وصلنا الآن إلى نقطة سوداء وصفحة مظلمة في تاريخنا شوهت معالم الصورة وقلبت فكرتنا رأساً على عقب ، وكنا نود الا تنعكس هذه الصورة بهذا الشكل ، او الأمر بنا ، ولكن ، لا بد مما ليس منه بد ؛ وهذه هي الحقيقة المرة سواء احببناها أم كرهناها . والواقع تعرض العالم الاسلامي لموجات من التعصب أو التسامح جعلت الكتب والمكتبات والافكار تنال نصيبها منها اكراماً وتعظيماً وتشجيعاً او تشريداً وتعذيباً وحرقاً واتلافا . وقد مرت معنا أمثلة كثيرة على كلتا الحالتين .

فابو حيان التوحيدي الذي هو نفسه أحرق كتبه قبيل وفاته الماً وحزناً انما فعل ذلك لأنه لم ينل في حياته من التقدير ما كان يرجوه ، وقد ذكر ان الصاحب بن عباد أحرق كتبه (كتب أبي حيان التوحيدي) في احدى نوبات حمقه ونوكه [2] . ولقد عانت كتب الصاحب بن عباد ، او بالاحرى بعضها ، مس المصير الذي تعرضت له كتب أبي حيان التوحيدي ، ذلك ان السلطان

---

(١) ياقوت الحموي . **معجم الادباء** ج ١٩ . ص ١١٠
(٢) **نفس المصدر** . ج ٦ . ص ٢٤٦ ـ ٢١٧

محمود الغزنوي استخرج كتب علوم الاوائل وعلم الكلام من مكتبة الصاحب بن عباد التي كان وقفها على مدينة الري وأمر باحراقها . بل ان بعض امناء المكتبات نصب نفسه رقيباً على الافكار والكتب ومنع تداول ما اعتقد انه خطر او مخالف للمعتقدات الشائعة ، بل ان احدهم ابا المعالي احمد بن هبة الله أجاز لنفسه محو كتابة كتاب الفه المعري لأنه لم يوافق معتقده ومزاجه ؛ يروي ياقوت « ان المبارك بن المبارك المعروف بالوجيه حضر ذات يوم بدار الكتب التي برباط المأمونية وخازنها يومئذ أبو المعالي احمد بن هبة الله فجرى حديث المعري فذمه الخازن وقال كان عندي في الخزانة كتاب من تصانيفه فغسلته فقال له الوجيه : وأي شيء كان هذا الكتاب ؟ قال : كان كتاب نقض القرآن . فقال له : اخطأت في غسله . فعجب الجماعة منه وتغامزوا عليه واستشاط هبة الله وقال له : مثلك ينهي عن مثل هذا ؟ فقال : نعم لا يخلو أن يكون هذا الكتاب مثل القرآن أو خيراً منه أو دونه ، فاذا كان مثله أو خيراً منه — وحاش لله أن يكون ذلك — فلا يجب أن يفرط في مثله ، وان كان دونه وذلك ما لا شك فيه فتركه معجزة للقرآن فلا يجب التفريط فيه فاستحسن الجماعة قوله ووافقه ابن هبة الله على الحق وسكت [1] .

وقد جرى اضطهاد الكتب واحراق بعضها وضيق على مؤلفيها ومقتنيها في الخلافة العباسية في عصورها المتأخرة ؛ فقد حدث ان أحد علماء بغداد البارزين في عهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الهجري) ، وهو عبد السلام بن عبد القادر بن أبي صالح بن جنكي دوست الجيلي البغدادي المدعو بالركن ، اتهم انه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة في قواعد هذا الشأن ، وكان عبد السلام هذا قد قرأ علوم الاوائل وأجادها واقتنى كتباً كثيرة في هذا النوع واشتهر بهذا الشأن شهرة تامة ؛ فأوقعت الحفظة عليه وعلى كتبه فوجد فيها الكثير من علوم القوم وبرزت الأوامر الناصرية باخراجها إلى موضع ببغداد يعرف بالرحبة وان

(١) نفس المصدر . ج ١٧ . ص ٦٥ — ٦٦

تحرق بحضور الجمع الجم فيها ، ففعل ذلك وأحضر لها عبيد الله التيمي البكري المعروف بابن المارستانية وجعل له منبر صعد عليه وخطب خطبة لعن فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم ، وذكر الركن عبد السلام هذا بشر وكان يخرج الكتب التي له كتاباً كتاباً فيتكلم عليه ويبالغ في ذمه وذم مصنفه ثم يلقيه من يده لمن يلقيه في النار [1] » . ويذكر القفطي راوي هذه القصة « ان الحكيم الاسرائيلي يوسف السبتي أخبره : قال كنت ببغداد يومئذ تاجراً وحضرت المحفل وسمعت كلام ابن المارستانية وشاهدت في يده كتاب الهيئة لابن الهيثم وهو يشير إلى الدائرة التي مثل بها الفلك وهو يقول : وهذه هي الداهية الدهماء والنازلة الصماء والمصيبة العمياء وبعد اتمام كلامه خرقها وألقاها في النار . قال : استدللت على جهله وتعصبه اذ لم يكن في الهيئة كفر وانما هي طريق إلى الايمان ومعرفة قدرة الله جل وعز فيما أحكمه ودبره [2] . واستمر الركن عبد السلام في السجن حتى أفرج عنه سنة ٥٨٩ هـ . وأعيد عليه ما كان له بعد الذي ذهب وعاش بعد ذلك عمراً طويلاً [3] » .

وقد كان المغرب (شمالي افريقيا) موطن نزعات محافظة بل ورجعية ، فقد حوربت كتب الغزالي فيه وأمر امراء المرابطين الذين تلقبوا باسم امراء المسلمين باحراقها وتقدموا بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء منها [4] . واستمر الحال على هذا المنوال زمن الموحدين ، ذلك انهم اضطهدوا علم المذهب وخاصة في أيام مؤسسي السلالة الموحدية محمد بن تومرت في القرن الخامس . يقول صاحب المعجب « وفي أيامه (محمد بن تومرت) انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب

---

(١) القفطي . **تاريخ الحكماء** . تحقيق جوليوس ليبرت . ليبسك ، ١٩٠٨ م . ص ٢٢٨ ـ ٢٢٩
(٢) **نفس المصدر** . ص ٢٢٩
(٣) **نفس المصدر** .
(٤) امين ، احمد . **ظهر الاسلام** . القاهرة ، مطبعة خلف ، ١٩٥٨ م . ٤ ج . ٣ ح . ص ٣٨

المذهب ... فأحرق منها جملة في سائر البلاد ، وقد شهدت ذلك وانا بمدينة فاس يؤتى منها بالاحمال فتوضع ويطلق فيها النار ؛ وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه وأمر جماعة ممن كانوا عنده من علماء المدينة بجمع أحاديث من المصنفات المشهورة في الأحاديث كالبخاري ومسلم فجمعوا ما أمرهم بجمعه فكان يمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه [١] .

وقد استمرت هذه النزعة المحافظة بعده في زمن خلفائه ، فقد قصد المنصور الموحدي (القرن السادس الهجري) الا يترك شيئاً من كتب المنطق والحكمة باقياً في بلاده واباد كثيراً منها باحراقها بالنار وشدد في أن لا يبقى أحد يشتغل بشيء منها وأنه متى وجد أحد ينظر في هذا العلم أو وجد عنده شيء من الكتب المصنفة فيه فأنه يلحقه ضرر عظيم [٢] ... ويذكر ابن أبي اصيبعة انه امتثل أمر المنصور في جمع الكتب من عند المكتبيين وغيرهم والا يبقى شيء منها واهانة المشتغلين بها » [٣] .

ولقد انتقل اضطهاد الكتب والمؤلفين إلى الاندلس حتى قبل ذلك الوقت ، فقد ذكرنا ان المنصور بن أبي عامر أخرج كتب المنطق والفلسفة وعلم الكلام من مكتبة الحكم الثاني وأمر باحراقها علناً ارضاءً للعامة وللفقهاء وكسباً لعطفهم وتأييدهم . كذلك اضطهد ملوك الطوائف ، أو بعضهم على الاصح ، بعض العلماء الاجلاء كابن حزم الاندلسي المشهور المتوفى سنة ٤٥٦ هـ والذي اعتنق المذهب الظاهري ، ودعا له بشدة مما أدى إلى اضطهاده وفراره من اشبيلية موطنه وموطن آبائه من قبله ؛ وابن حزم هذا يعتبر مؤسس علم الاديان المقارن في الاسلام وذلك بكتابه الشهير **الملل والنحل** والذي نحا نحوه فيه وقلده الشهرستاني ، وهو من أغزر المؤلفين المسلمين انتاجاً يروى عنه ابنه

---

(١) **نفس المصدر** . جـ ٣ . ص ٣٩
(٢) ابن ابي اصيبعة . **طبقات الاطباء** . جـ ٣ . ص ١١١
(٣) **نفس المصدر** . جـ ٣ . ص ١١١ ـ ١١٢

رافع انه اجتمع عنده بخط آبيه من تآليفه نحو اربعمائة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين الف ورقة ؛ ويهول ذلك ياقوتاً فيقول « وهذا شيء ما علمناه لاحد ممن كان في دولة الاسلام قبله الا لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري فأنه أكثر أهل الاسلام تصنيفاً »[1] . وقد أثار ابن حزم عداء المعتضد بن عباد صاحب اشبيلية فطارده وهدم دوره وصادر أمواله وأملاكه وأحرق كتبه بإشبيلية علانية ؛ فلما بلغه ما فعله المعتضد بن عباد بكتبه قال :

دعوني من احراق رق وكاغد
وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
نان تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذي
تضمنه القرطاس بل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي
وينزل ان انزل ويدفن في قبري[2] .

مصير هذه المكتبات :

بعد هذا الماضي التليد والتاريخ الحافل والحياة العريضة الفاخرة التي سجلتها المكتبات الاسلامية انحطت هذه المؤسسات العلمية وزالت من الوجود ، وكان السبب في زوالها هذا عاملان : احدهما داخلي والآخر خارجي . أما العامل الداخلي فهو ما اعترى العالم الاسلامي من تفكك وتفتت وانهاك وانهيار وما أصابه من ضروب المحن والثورات والحرائق واستلام الحكام الجهلة زمام الامور وتحكمهم بأموال الناس وأرواحهم ، وكذلك ما أصاب المسلمين أنفسهم من جمود وضعف وتأخر ، ونتيجة لتقهقر الحياة العقلية وتأخرها عند

---

(١) ابن حزم ، محمد . **طوق الحمامة في الالفة والالاف** تحقيق حسن كامل الصيرفي . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٧ م . المقدمة . هـ

(٢) المقري . **نفح الطيب** ... جـ ٢ . ص ٨٢

المسلمين ؟ وقد سبق أن قلنا ان المكتبات الاسلامية تعكس في تاريخها وتطورها حياة المجتمع الاسلامي وصيرورته ، وهي في الوقت نفسه ثمرة هذا المجتمع وثمرة حياته وانعكاس لها . وقد ذكرنا سابقاً مصائر كثير من المكتبات النفيسة الفخمة كمكتبة الحكم الثاني في قرطبة ومكتبة الحاكم بأمر الله الفاطمي في القاهرة ومكتبات الفواطم وغيرها .

وأما العامل الخارجي فيتمثل في الغزو المغولي والغزو الصليبي : من الملاحظ ان العالم الاسلامي تعرض خلال القرون الأربعة الميلادية الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر لهجمات منظمة مستمرة من الغرب والشرق بقصد تخريبه واجتياح أراضيه ؛ فقد بدأ المغول هجومهم على العالم الاسلامي منذ أوائل القرن الثاني عشر بل أبكر ، وكان الموت والدمار والخراب يحل بكل مكان تطؤه أقدامهم ؛ فقد دخلوا بخارى وهي مدينة مزدهرة عدد سكانها يزيد على أربعمائة ألف انسان وعندما تركوها، تركوها انقاضاً لا حياة فيها سويت بالأرض بعد ان نهبت ذخائرها وقتل رجالها وسبي نساؤها ، وحدث مثل ذلك لجميع المدن والقرى التي قدر الله لها أن تكون مسرحاً لغزواتهم ، وكان نصيب المكتبات من الخراب والدمار نصيباً موفوراً ؛ فقد دمر المغول المكتبات الرائعة الفخمة العشر التي ذكرها ياقوت والتي كانت موجودة في مرو وكذلك فعلوا في ساوة وفي جميع البلدان الاخرى، ولما وصلوا إلى قلعة الموت الشهيرة مقر الطائفة الاسماعيلية لم تصمد في وجههم ودمروها تدميراً تاماً وزال معها شيخ الجبل وخزانة كتبه المشهورة [١] . ولما احتلوا بغداد فعلوا بها الافاعيل فلمروا قسماً كبيراً منها وبذلوا السيف في أهلها حيث قتل منهم ثمانمائة الف نفس وخربت بغداد الخراب العظيم واحرقت كتب العلم التي كانت فيها من سائر العلوم والفنون التي ما كانت في الدنيا [٢] . ويقول ابن خلدون انه القيت وقت فتح بغداد كتب العلم التي كانت في خزائنهم

---

(١) لويد ، سيتون الرافدان ص ٢٣٩

(٢) ابن تغري بردي • النجوم الزاهرة ••• ج ٧ • ص ٥٠ ــ ٥١

بدجلة [1] . ويذكر محمد كرد علي « انه (أي هولاكو) بنى بكتب العلماء اصطبلات الخيول وطوالات المعالف عوضاً عن اللبن ؛ وقيل ان ماء دجلة تغير لونه لكثرة ما ألقى فيه التتر من الكتب والأوراق ؛ قيل انه أقام بكتب العلم ثلاثة جسور على دجلة [2] » وذلك طبعاً عدا ما نهب من كتب العراق والجزيرة والشام ووضع في مكتبة الرصد في مراغة على ما مر معنا سابقاً . وقد كان ذلك خسارة للثقافة والمعرفة والحضارة الاسلاميـــة خاصة والمعرفة والحضارة الانسانية عامة لا تعوض .

كذلك تعرض العالم الاسلامي من الغرب لهجمات لئيمة شرسة أرادت استئصال جذوره والقضاء على مقومات وجوده ومقومات حضارته ، ذلك ان الغرب الاوربي الحقود شن أول ما شن الحملات المعروفة باسم الحروب الصليبية والتي استمرت قرنين كاملين (١٠٩٦ – ١٢٩١ م) ، وقد دمر قسم كبير من العالم الاسلامي خلالها فاحرق ما احرق ودمر ما دمر ، وكان من جملة ما دمر من المكتبات مكتبة بني عمار في طرابلس الشام كما مر معنا ؛ ولما عجزت هذه الحروب من تحقيق غايتها التي شنت من أجلها وجهت اوربا جهودها شطر شبه جزيرة ايبريا تريد القضاء على الاسلام والمسلمين فيها ، فشنت على المسلمين والاسلام حرباً لا هوادة فيها حتى تمكنت لسوء الحظ من اخراج المسلمين من شبه الجزيرة الايبرية وانهاء وجودهم فيها نهائياً وكان ذلك سنة ١٤٩٢ م . ولسنا الآن بصدد بحث مأساة المسلمين الذين ظلوا في الاندلس بعد امتلاك الاسبان لبلادهم ؛ ولكنا نريد أن نقص ما فعله الاسبان الحقودون تجاه الكتب والمكتبات التي وجدوها في غرناطة خاصة بعد سقوطها في أيديهم . لقد نصت شروط تسليم غرناطة على السماح للمسلمين بالاحتفاظ بدينهم وأملاكهم وثقافتهم وكتبهم ما شاءوا ذلك ، ولكن الاسبان ما لبثوا ان نقضوا تلك الشروط شرطاً شرطاً ، وقد لاحظ الاسبان ان الكتب العربية والثقافة الاسلامية

---

(١) ابن خلدون **كتاب العبر** ... جـ ٥ . ص ٥٤٣

(٢) كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . جـ ١ . ص ٣٢٣

عاملان مهمان في تمسك المسلمين بدينهم ، وان عليهم اذا أرادوا استئصال المسلمين أو تنصيرهم ان يفصلوهم عن تراثهم الديني والثقافي ، فحاولوا الغاء الثقافة الاسلامية وذلك عن طريق تحريمها وتحريم تعليمها وابادة أوعيتها وهي الكتب ، وقد بدأت هذه المحاولات سنة ١٤٩٩ م اذ حاول في ذلك التاريخ رئيس أساقفة غرناطة أن يرفع من الاستعمال ما أمكن من الكتب العربية في مختلف فروع العلوم الانسانية فأمر باحراقها فثار المسلمون وبعد فترة تولى الكردينال كسينميس الأمور في المدينة ، وكان ذلك سنة ١٥١١ م . وكان يضطرم بغضاً للاسلام وأهله وتعصباً للنصرانية ، فرأى انه لا يمكنه القضاء على الاسلام والمسلمين في شبه الجزيرة نهائياً الا بالقضاء على ثقافتهم وتراثهم الروحي وحضارتهم المتمثلة في تراثهم المخطوط فأصدر أمره بجمع جميع الكتب العربية ولاسيما المصاحف منها فجمعت وكانت غرناطة نفسها مسرحاً لاحراق أكبر عدد من الكتب العربية في جميع أنواع الفنون ومختلف فروع المعرفة [١] . وقد تم ذلك في ميدان باب الرحلة BIBRAMBLA ، وقد اختلف المؤرخون بتقدير عدد الكتب التي أحرقت بين مقل ومكثر ، والعدد يتراوح بين المليون والسبعين الفاً ، ويلوح لنا أن العدد لا يمكن أن ينقص عن مائة ألف مجلد . وحصل الشيء نفسه في مختلف مدن اسبانيا بهمة وتعصب أعمى لمدة أكثر من نصف قرن ؛ ثم تم جمع ما تبقى من ذلك التراث المجيد زمن فيليب الثاني (أواخر القرن السادس عشر م) ووضع في قصر الاسكوريال القريب من العاصمة مدريد ، ولكن ديوان التحقيق الذي آلى على نفسه ابادة كل أثر للاسلام والعروبة في الاندلس قرر أن يجعل من هذه البقية الباقية من المخطوطات العربية ، وهي كل ما تبقى من الكتب الاسلامية في الاندلس ، طعاماً للنار لولا ان حماها المركيز فيلادا وحال دون احراقها [٢] . هذا ولا يتجاوز عدد المخطوطات العربية المحفوظة في خزائن قصر الاسكوريال أربعة الاف مجلد .

---

(١) **نفس المصدر** . ص ٢٦٨ ــ ٢٧٠

(٢) **نفس المصدر** . ص ٢٧٠

وللحقيقة والتاريخ نقول ان حقد اوربا على المسلمين وحضارتهم وتراثهم لمكتوب وكتبهم ظل كما هو لم يتغير ولم ينقص ولم يزده كر العصور الا اضطراماً، وان اختلفت البواعث والأسماء، واستمر احراق الكتب العربية حتى القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، فقد ذكر الفرد تبلر في كتابه فتح العرب لمصر نقلاً عن سيديو ان الفرنسيين عندما فتحوا قسطنطينة (الصواب قسنطينة) في شمالي افريقيا أحرقوا كل الكتب والمخطوطات التي وقعت في أيديهم « كأنهم من صميم الهمج »[1] بل اننا نجد منظمة التحرير الفرنسي السرية التي تألفت في الجزائر قبيل استقلالها تحرق مكتبة جامعة الجزائر المحتوية على أكثر من نصف مليون كتاب ، وقد تم هذا في النصف الثاني من القرن العشرين !!!

وأما ما سلم من الكتب العربية والتراث الاسلامي المخطوط فقد رَانَ عليه جهل مظلم وتعصب ذميم بحيث راح أغلبه طعاماً للأرضة أو النيران أو الاتربة والغبار ولم ينتبه أحد له أو لقيمته ، فقد روى المقريزي أنه في سنة ٦٩١ هـ وقع حريق هائل في احدى خزائن الكتب في القاهرة فتلف بها من الكتب في الفقه والحديث والتاريخ وعامة العلوم شيء كثير جداً كان ذخائر الملوك فانتهبها الغلمان وبيعت أوراقاً محرقة فظفر الناس منها بنفائس غريبة ما بين ملاحم وغيرها وأخذوها بأبخس الاثمان[2] . وظل الحال على هذا المنوال حتى بدأ الاحتكاك مع الغرب وبدأ الغرب اغارته على العالم الاسلامي وبدأ يسطو على كنوزها وكان من جملة ماسطا عليه المخطوطات العربية ، واذا قدر لاحدنا ان يزور مكتبات الغرب الكبرى فسيجدها تزخر بروائع تراثنا المخطوط وهي تشكل أجود وأثمن وأجمل محتويات تلك المكتبات من المخطوطات .

مميزات هذه المكتبات :

أما وقد فرغنا من قص سيرة مكتباتنا الحافلة العجيبة التي تملأ الانسان فخاراً

---

(١) بتلر ، الفرد **فتح العرب لمصر** الهامش ص ٣١٢
(٢) المقريزي . **الخطط المقريزية** . جـ ٣ . ص ١٣٤

واعجاباً ، فاننا نريد أن نذكر بايجاز شديد أهم المميزات التي امتازت بها هذه المكتبات وأهم النواحي التي برزت فيها وأهم الصفات التي اتصفت بها .

١ : الميزة والصفة الدينية : لقد قامت المكتبة في الاسلام ، أول ما قامت ، من أجل غاية دينية هي تعليم الناس أمور دينهم وتفقيههم وتثقيفهم ثقافة دينية ، وقد انشئت المكتبات من أجل هذا في المساجد والجوامع ، ولذا نرى ان أقدم المكتبات ظهوراً في الاسلام هي مكتبات المساجد ، وهذا شيء طبيعي ومنطقي طالما ان العلم في الاسلام وتعلم الانسان أمور دينه واجب ديني ، وهذا استلزم أن تكون الصفة الدينية أول وأبرز ما يكون في تكوين وطبيعة المكتبات الاسلامية .

٢ – الميزة والصفة التعليمية التربوية : لقد كانت المكتبة مركزاً للتربية والتعليم وكانت قسماً مهماً جداً من أقسام المؤسسات التربوية التعليمية التي ظهرت في الاسلام كالمدارس والكتاتيب والجامعات ، وقد لاحظنا ان جميع بناة المدارس في الاسلام الحقوا بها خزائن كتب وكانت الخزانة شيئاً أساسياً في عملية التربية والتعليم في الاسلام .

٣ : الميزة والصفة العلمية : لم تكن المكتبة في الاسلام مكاناً لتعلم الفرائض والواجبات الدينية وتلقي العلوم الاخرى فحسب ، بل كانت إلى جانب هذا وذلك مركزاً من مراكز البحث والدرس والتمحيص والتأليف الرئيسية ، ولذا نرى محتويات المكتبات حتى في المساجد والجوامع تتنوع وتتعدد حتى تتفق مع أغراض البحث والدراسة العلمية ، بل ان بعض المكتبات اختصت بالبحث والدراسة العالية كبيت الحكمة في بغداد مثلاً .

٤ : الميزة والصفة الاجتماعية : وهذه الصفة بارزة كل البروز ، فلم تكن المكتبة في الاسلام مكاناً مهملاً مهجوراً يعلوه الغبار ولا يقصده الا بعض الشيوخ الذين لا عمل لهم سوى قطع الوقت بارتياد المكتبات وغيرها ؛ بل كانت منتدى اجتماعياً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معانٍ يجتمع فيه أهل

البلدة أو الحي ويمارسون فيه حياة اجتماعية راقية كما كانت عليه الحال في مكتبة البصرة التي يصفها الحريري في مقاماته في القرن السادس الهجري والتي يقول عنها بانها منتدى المتأدبين ومجمع الغائبين والقادمين ؛ ومما لا شك فيه ان تلك المكتبة لم تكن الوحيدة من نوعها في بلاد الاسلام وانما كان هناك كثير وكثير جداً من أمثالها في العالم الاسلامي .

٥ : الميزة والصفة الدعائية : لم تكن هذه الصفة شائعة أو ذائعة كل الذيوع وليست واضحة وضوح المميزات الاخرى ، ولكن وجدت مكتبات في الاسلام أسست منذ اللحظة الاولى لتقوم بالدعاية لمذهب معين أو عقيدة معينة أو فكرة خاصة ، وذلك طبعاً بالاضافة إلى قيامها بالوظائف الاخرى . فالمأمون العالم والخليفة المتنور استخدم بيت الحكمة هذه من أجل الدعاوة لأفكاره الاعتزالية ولترويج هذا المذهب الفكري الهام ، وذلك إلى جانب الاهتمامات الاخرى الأساسية التي أسست المكتبة من أجل ترقيتها وخدمتها ، والشيء نفسه يقال عن الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي أوجد دار الحكمة في القاهرة للدعوة إلى المذهب الفاطمي الاسماعيلي الذي كان مذهب الدولة الرسمي ، وقد رأينا كيف كان الخوف من انتشار المذهب النزاري والجدل الذي حدث فيها من الأسباب التي أدت إلى اغلاقها بشكل موقت . ولقد أسس حكام طرابلس في القرن الخامس الهجري مكتبتهم الشهيرة من أجل الدعاية لمذهبهم الاسماعيلي ، مع العناية بالبحث والتعليم وتسهيل وسائل نشر العلوم والتعليم .

الفصل الثامن

إنتقال تراثنا المكتبي إلى اوربا وتأثيره في نهضتها

ازدهرت حضارة الاسلام مدى ستة قرون أو أكثر وذلك خلال الفترة الواقعة بين القرن السابع والقرن الثالث عشر ميلادي، كانت البلاد الاسلامية خلالها مركزاً عظيماً من مراكز الازدهار الحضاري والرقي العقلي والتقدم الفكري الذي كانت اوربا محرومة منه ؛ تشغل هذه الفترة في عرف التاريخ والمؤرخين ما يسمى بالعصور الوسيطة ؟ وهي في عرف المؤرخ الاوربي عصور مظلمة سيطر فيها الجهل والتعصب والظلم وسيادة الكنيسة والاقطاع على حياة البشر الروحية والمادية . ان هذا الوصف وهذا الوضع ينطبق على اوربا وحدها لا على العالم الإسلامي ؛ فعصور اوربا الوسيطة هي عصورنا الزاهية وجهلهم يقابله علمنا ومعارفنا ، وتعصبهم يقابله تسامحنا وهكذا ، وفي الوقت الذي كان فيه شارلمان ملك اوربا الغربية يحاول تعلم توقيع اسمه وكتابة بعض الكلمات باللغة اللاتينية كان معاصراه الرشيد والمأمون ، وخاصة المأمون يبحثان أدق المسائل الفلسفية المتعلقة بالقضاء والقدر والعقل وحرية الارادة وخلق القرآن وما شاكل ذلك ؛ وفي الوقت الذي كانت فيه المكتبات في العالم الاسلامي تعد بالألوف وحوت بعضها مئات الألوف من المخطوطات؛ كانت المكتبات في العالم الغربي مقصورة على الاديرة وكانت أغلب الكتب تبحث في اللاهوت وهي مكتوبة باللغة اللاتينية ولا يطلع عليها الا الرهبان؛ فقد حوت أكبر مكتبة في اوربا آنذاك ، وهي مكتبة كاتدرائية مدينة كونستانز ٣٥٤ كتاباً فقط أغلبها كتب دينية ؛ وقد وجد في مكتبة دير البندكتيين عام١٠٣٢م

ما يزيد على المئة كتاب بقليل [1] . بل ان ملك فرنسا شارل الخامس المعروف بالحكيم عندما أراد أن يؤسس مكتبة في أواخر القرن الرابع عشر ميلادي لم يستطع أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من ٩٠٠ مجلد يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت [2] .

ولكن هذه الصورة تغيرت مع الزمن وكان السبب ، أو أحد الاسباب ، في تغيرها انتقال تراثنا إلى اوربا ، وسقوطنا صرعى تحت ضربات الاعداء الخارجين وسيطرة الجهل والجمود على العالم الاسلامي . يقول جيبون « ان عصر العلم العربي يتوافق مع اكلح عصر من حوليات اوربا وأكثرها جهلاً [3] » وان انتعاش العلم الغربي كان بسبب تأثير المعرفة العلمية العربية على أمم غربي اوربا وبسبب الترجمة السريعة لمؤلفات المسلمين العلمية ونقلها من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية لغة التعليم العالمية آنذاك [4] .

هذا وان التراث الاسلامي انتقل إلى اوربا عن ثلاث طرق : الأول طريق صقلية وجنوبي ايطاليا ، الثاني طريق اسبانيا الاسلامية ، والثالث عن طريق الاحتكاك المباشر الذي تم زمن الحروب الصليبية في الشرق ؛ ولما كان الطريق الثالث أقل الطرق أهمية في عملية نقل التراث العقلي إلى اوربا فاننا سنركز اهتمامنا على انتقال التراث الاسلامي إلى اوربا عن الطريقين الاولين فحسب . هذا ويبدو لنا ان مدرسة الطب التي انشئت في سالرنو تعرضت لتأثيرات اسلامية في القرن العاشر الميلادي وذلك بواسطة شخص يهودي اسمه ساباط بن ابراهيم كان قد وقع أسيراً بيد المسلمين فنقلوه إلى بالرمو عاصمة صقلية وهناك تعلم علوم الاسلام من مصادرها الاصلية ، وعندما انتقل إلى

---

(١) ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري** . ج ١ . ص ٢٤٤

(٢) لوبون ، غوستاف . **حضارة العرب** . تعريب عادل زعيتر . ط . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٦ م ص ٤٣٤

(٣) تومبسون ، ج ، و . **المكتبة في العصور الوسيطة** . ص ٢٦٠

(٤) **نفس المصدر** . ص ٢٦

سالرنو ومدرستها الطبية أدخل اليها الطب الذي تعلمه عند المسلمين والعلوم المساعدة الاخرى ؛ ويجب أن نلاحظ ان شبه الجزيرة الايطالية كانت آنذاك تحت النفوذ البيزنطي ؛ ولذلك يمكن القول ان التأثيرات الاسلامية واليونانية (البيزنطية) التقت في شبه الجزيرة وخاصة في مدرسة سالرنو الطبية .

وقد اصطحب معه في سنة ٩٥٠ م جان غورتز اللوريني من كالابريا إلى المانيا نسخاً من كتاب ارسطو المسمى **الفصول** وكتاب **ايساغوجي** — لفرفوريوس . ويعتبر جان غورتز هذا أقدم اداة انتقلت عن طريقها علوم المسلمين شمالي جبال الألب وأقدم من نشرها في اوربا . ولقد أرسل الامبراطور اوتو الكبير جان غورتز هذا في بعثة سياسية إلى الخليفة عبد الرحمن الناصر في الاندلس وذلك سنة ٩٥٣ م . وهناك وقع تحت تأثير نفوذ الفيلسوف الاندلسي اليهودي ابن شبروط ، وقد مكث جان في الاندلس مدة ثلاث سنوات تقريباً تعلم أثناءها اللغة العربية ، وعندما رجع إلى المانيا سنة ٩٥٦ م جلب معه حمل حصان كتباً عربية ؛ ونحن لا نعلم على وجه التحديد طبيعة الكتب التي أحضرها والمواضيع التي تعالجها ، ولكن لا بد أن بعضاً منها كان كتباً علمية ، لأنه وجد في القرن التالي(الحادي عشر)أزدهار ملحوظ في دراسته العلوم واهتمامه بها وخاصة في الرياضيات وذلك في مدارس مقاطعة اللورين ، وانتشر الاهتمام بعد ذلك من هناك إلى حوض الرين والفلاندر. وهناك سبب يدعو إلى الاعتقاد ان العلوم الاسلامية وصل نفوذها والاهتمام بها إلى المدارس الفلمنكية،وان بعض نواحي هذه العلوم او بعض الاقتباسات منها على الاقل كانت تدرس في تلك المدارس ، ذلك انه عندما احتـــل الملك الدانمركي كنوت Knut (١٠٠٠ — ١٠٣٥ م) انكلترا عزل الاساقفة الانجلوسكسون واستبدلهم بأساقفة من كنائس الأراضي الواطئة وشمالي فرنسا ؛ وقد كان لدى خمسة منهم بعض المعرفة الاولية بالعلوم العربية (يقصد بالعلوم هنا العلوم بمعناها الفني كالرياضيات والفيزياء والكيمياء ... لا المعرفة عامة) . وان أقدم ناقل للمؤلفات الاسلامية العلمية إلى اللاتينية هو قسطنطين الافريقي؛ وهو نصراني

ولد في قرطبة وعاش بين المسلمين مدة طويلة وارتحل في بلاد المسلمين ثم تمكن من الهرب إلى اوربا وأصبح راهباً في دير كاسينو سنة ١٠٥٦ م . وقد اثرت نقوله تأثيراً عميقاً في دراسة العلوم في جنوبي ايطاليا ؛ وفي الوقت الذي ظلت فيه مدرسة سالرنو الطبية مخلصة لتقاليد الطب والعلم الاغريقي، فان دراسة الطب والعلوم في دير كاسينو اقيمت على أسس مستمدة من علم الطب عند المسلمين.

كان المركز الرئيسي لنقل علوم المسلمين إلى اوربا وخاصة الطب طليطلة؛ ذلك ان المدينـــة سقطت بأيدي المسيحيين سنة ١٠٨٥م ؛ وكانت مركزاً من مراكز الثقافة الاسلامية الكبرى ؛ وكانت جوامعها ومكتباتها مليئة بالكتب التي تبحث في كل فروع المعرفة وخاصة العلوم؛ هذا وان طليطلة نفسها ، بمكانها المتوسط في شبه جزيرة ايبريا ، أثبتت انها مكان صالح من أجل عملية التبادل الثقافي هذه ؛ وقد وجد بها كثير من العلماء الذين يتقنون اللغتين العربية واللاتينية ؛ وقد نشأت فيها مدرسة نظامية للنقل من العربية إلى اللاتينية ، وذلك بمساعدة اليهود والعرب المتنصرين . وقد ساعد هذه الحركة ورقاها وأخذها تحت حمايته اسقف طليطلة ريموند (١١٢٥ – ١١٥١ م) ؛ هذا وان أوائل النقلة في هذا المركز كانوا رجالاً من انكلترا من أمثال اديلارد من باث وروجر من هنيسفورد ودانيال من موزلى وغيرهم . وقد كان اديلارد اسقف باث وابن عم هنري الأول ملك انكلترا ، الرائد في هذه الدراسات ، ذلك انه ارتحل إلى الشرق وتعلم اللغة العربية ؛ ورغم ان طليطلة كانت هي المركز الرئيسي لحركة النقل هذه ، الا انه وجد نقلة في مدن اسبانية اخرى مثل برشلونة وبنبلونة وشقوبية وحتى في جنوبي فرنسا في بيزانسة وناربونة وتولوزة . ومما ساعد في نجاح هذه الحركة واستمرارها وجود بعض الملوك الذين تأثروا بالتقاليد الشرقية وحمايتهم لها . فالفونسو السادس الذي فتح طليطلة كان بلاطه متأثراً بالحضارة الاسلامية وكان معجباً بهذه الحضارة إعجاب خلفه فريدريك الثاني ملك صقلية بعد قرنين من الزمان بها . وقد نقل

اديلارد الباثي إلى اللاتينية من العربية الزيج الفلكي المنسوب إلى الخوارزمي (وهو مجموعة لوحات فلكية جمعها وصححها المجريطي) . هذا وان أعظم ناقلين ظهرا آنذاك هما الايطالي جيرار القرموني وافلاطون التيفولي ، وذلك من الناحية الكمية على الاقل . أما الاول الذي توفي سنة ١١٨٧ م ، فقد أمضى معظم سني حياته في طليطلة وعندما توفي كان قد أنجز نقل أكثر من سبعة عشر كتاباً من العربية إلى اللاتينية ، ولا يقل انتاجاً عنه زميله افلاطون التيفولي وقد كان معجباً بعلم الفلك عند المسلمين ، وقد استهل أحد كتبه التي نقلها بمقدمة أعلن فيها استهجانه واحتقاره لعلم الفلك عند الاوربين . وقد نقل هو نفسه إلى اللاتينية من العربية زيج البتاني الفلكي المؤلف حوالي سنة ٩٠٠ م . وقد نقل الزيج نفسه نقلاً آخر إلى الاسبانية مباشره عن العربية وكان ذلك بعد فترة طويلة وبناء على طلب الفونسو العاشر المتوفي سنة ١٢٨٤ م وتحت اشرافه ؛ هو الملك المعروف باسم الفونسو العالم والفلكي . ويجب ذكر أيضاً اليهودي فرج بن سالم الذي نقل كتباً طبية عربية إلى اللاتينية .

وهكذا لم يأت أوائل القرن الثالث عشر الا وكانت اوربا قد وجدت تحت تصرفها نقولاً كاملة لمؤلفات ابقراط وجالنيوس الطبية نقلت عن العربية وكتبت باللاتينية ، وذلك بالاضافة إلى مؤلفات كثيرة منقولة في الكيمياء والطبيعة والرياضيات والفلك وبالاضافة أيضاً إلى مجموعة ضخمة من الكتب العربية العلمية والطبية **كقانون** ابن سينا في الطب وغيره . وبهذه الصورة وجد في أواخر العصور الوسيطة في اوربا مجموعة ضخمة من المعارف اليونانية ــ العربية الجديدة ، وكان على الغرب أن يتمثل التراث الحضاري الضخم الجديد . وقد تمكنت اوربا خلال قرنين من الزمان أن ترث وأن تتمثل التراث العلمي لأربع حضارات كبرى هي الحضارة اليونانية والحضارة اليونانية ــ المشرقية ، والحضارة البيزنطية والحضارة العربية الاسلامية . وقد استأثرت الحركة الجديدة هذه باهتمام حاكمين كبيرين من حكام اوربا في القرن الثالث عشر هما الامبراطور فريدريك الثاني والفونسو العاشر العالم ملك قشتالة . وقد كان

مترجم الامبراطور ومعرفه مايكل سكوت المولود سنة ١٢٠٠ م ؛ وقد درس مايكل سكوت هذا وتعلم في اسبانيا النصرانية ثم دعاه الامبراطور إلى بلاطه في بالمرو في صقلية ؛ وهو من أصل اسكتلندي أو ايرلندي ، وكان قد درس ، قبل ذهابه إلى اسبانيا ، في اكسفورد وباريس ، وبعد ذلك استقر في طليطلة حيث وقف نفسه لنقل الكتب العلمية من العربية إلى اللاتينية ، وعندما التحق بخدمة الامبراطور استمر يقوم بالعمل نفسه ، وقد قام بنقل بعض الكتابات الطبية العربية إلى اللاتينية بناء على طلب الامبراطور .

أما الامبراطور فريدريك الثاني (١٢١٥ — ١٢٥٠ م) الحاكم الزنديق الذي كان امبراطوراً للامبراطورية الرومانية المقدسة وملكاً على صقلية والمانيا معاً ، فقد تأثر بالحضارة الاسلامية كل التأثر وعاش في قصره عيشة نصف شرقية وجمع حوله العلماء من الشرق والغرب والفلاسفة من سورية وبغداد وأوجد في قصره حريماً وعقدت في قصره المناقشات ، وكان متسامحاً مع لاديان وقد كانت له علاقات تجارية دبلوماسية مع ملوك الايوبين في سورية ومصر وذلك لغايات سياسية وتبادل معهم الهدايا وخاصة مع السلطان الاشرف ملك دمشق ، وكان قصره معبراً لانتقال العلوم الاسلامية والفلسفة الاسلامية إلى اوربا . وقد أوجد في قصره مركزاً للنقل والترجمة كان مايكل اسكوت المذكور آنفاً أحد نجومه البارزين .

وقد ظهر في قشتالة ملك عالم ، وهو معاصر لفريدريك الثاني وأصغر منه ، ذلك هو الفونسو العاشر المتوفي سنة ١٢٨٤ م الذي كان حامياً للعلوم مشجعاً لها وخاصة نقل العلوم الاسلامية إلى اوربا . وقد لقب هذا الملك بسبب غيرته على العلم وتشجيعه للعلوم بالعالم وأحياناً يلقب بالحكيم ولكن هذا خطأ والاصح هو تسميته بالفونسو العالم او المتعلم كما هو المتعارف عليه . وقد كان حوله مستشارون علماء من العرب حببوا له الدراسات العلمية وتأثر بهم كل التأثر[1] .

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٦٧

وهو الذي أسس جامعة طلمنكة (سلمنكة) وبدأ بتأليف أول تاريخ قومي لاسبانيا وجمع قوانين المملكة ووحدها لأول مرة . وان أعظم خدمة اداها للعلم بشكل عام هي اللوحات الفلكية المعروفة باسم **جداول الفونسو الفلكية** ، وهي سلسلة من الاحصاءات الفلكية الفها وأوجدها له عدد من علماء الفلك العرب الذين دعاهم الفونسو إلى بلاطه وأمرهم بتأليفها باسمه . وقد ظلت هذه الجداول مستعملة في اوربا حتى نهاية القرن الخامس عشر .

وهكذا فقد امتلك الاوربيون قبل نهاية القرن الثالث عشر أثمن وأفضل ما في المكتبات الاسلامية وأصبح تحت تصرفهم جاهزاً في نقول وترجمات لاتينية وهي لغة البحث والدراسة والتأليف آنذاك في اوربا ؛ وهو نفس الوقت الذي ترنح فيه الاسلام تحت ضربات البرابرة المغول في الشرق ودمر فيه قسم كبير جداً من بلادهم وحضاراتهم وكتبهم ومكتباتهم وذهبت طعاماً للنار. ورغم ان بقاء المسلمين امتد في شبه جزيرة ايبريا حتى أواخر القرن الخامس عشر ، الا ان العداء بينهم وبين الاسبان واستشراء الصراع وامتداده وعمق الكره الذي اشتعل في صدور الاسبان ضد الاسلام والمسلمين وشدة التعصب الديني حالت دون مواصلة القوم الاستفادة من التراث الاسلامي المكتبي في الاندلس بعد ذلك التاريخ ، ولا سيما انه لم يل العروش المسيحية ملوك متنورون يستطيعون أن يجعلوا عملية التبادل الثقافي تستمر ، مما أدى إلى تدمير الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي في الاندلس تدميراً يكاد يكون كاملاً . بل لقد تتبع الاوربيون بحقدهم الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامي والكتب الاسلامية أينما وجدوها ؛ فعندما هاجم شارل الخامس (شارلكان) امبراطور الامبراطورية « الرومانية المقدسة سنة ١٥٢٦ م مدينة تونس واحتلها ونهبها دمر جنوده جميع المخطوطات العربية وأحرقوها بالنار رمزاً لكرههم للعرب والاسلام ولحضارتهم ولكل ما يمت اليهم بصلة .

هذا هو الطريق الذي سلكه التراث المكتبي الاسلامي إلى مكتبات اوربا ، وأما في حقل المكتبات بالذات فقد ظل الغرب ، كما رأينا ، متخلفاً بضعة

قرون عن المسلمين في هذا الحقل وليس هناك سوى مثل واحد يمكن أن نجد فيه محاولة من أحد ملوك الغرب لتقليد المسلمين في تأسيس المكتبات والعناية بها، ذلك ان ملك فرنسا لويس التاسع الذي أتى إلى الشرق ابان الحروب الصليبية ، قد تأثر على ما يبدو بالمكتبات الاسلامية وحاول تقليدها فأسس في باريس مكتبة قدر لها أن تصبح فيما بعد مكتبة عامة [1] .

أما كيف حدث ، فيما بعد ، ان انتشرت المكتبات والعلوم والمعارف في اوربا، وتقلص ظلها في بلادنا وأفل نجمها عندنا في بلادنا التي هي موطنها ومنها نبعت ، فهذا بحث مجاله غير هذا المجال ولا مكان لبحثه هنا .

---

(١) بينتو ، اولغا • « المكتبات العربية في العصر العباسي » في : الثقافة الإسلامية ، المجلد الثالث • ص ٢٢٠

لائحة المصادر

١ : ابن أبي اصيبعة ، موفق الدين أبو العباس احمد. **عيون الانباء في طبقات الاطباء** . بيروت ، دار الفكر ، ١٩٥٦ م . ج ٣

٢ : ابن الأثير ، ابو الحسن عز الدين علي . **الكامل في التاريخ** . القاهرة ، دار الطباعة المنيرية ، ١٣٥٣ هـ .

٣ : ابن بشكوال ، أبو القاسم خلف بن عبد الملك . **الصلة في تاريخ ائمة الاندلس** تحقيق عزت العطار الحسيني . القاهرة ، مكتبة نشر الثقافة الاسلامية ، ١٩٥٥ م . ج ٢

٤ : ابن تغري بردي . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٣ م .

٥ : ابن جلجل ، ابو داود سليمان بن حيان الاندلسي . **طبقات الاطباء والحكماء** تحقيق فؤاد سيد . القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، ١٩٥٥ م .

٦ : ابن حزم ، محمد . **طوق الحمامة في الألفة والألوف** تحقيق حسن كامل الصيرفي . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٦٧ م .

٧ : ابن خلدون ، عبد الرحمن . **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ...** القاهرة ، دار الطباعة الخديوية ، ١٢٨٤ هـ . ج ٧ .

٨ : ابن خلكان ، أبو العباس شمس الدين احمد بن محمد . **وفيات الاعيان وأنباء أبناء الزمان** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٨ م . ج ٦ .

٩ : ابن سعيد **المغرب في حلى المغرب** .

١٠ : ابن الطقطقي ، فخر الدين محمد بن علي طباطبا . **الفخري في الآداب السلطانية والامم الاسلامية** . القاهرة ، ١٩٢٣ م .

١١ : ابن عبد ربه ، أبو عمر احمد بن محمد . **العقد الفريد** تحقيق احمد امين وأحمد الزين وابراهيم الابياري . الطبعة الثانية . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ م . جـ ٧ .

١٢ : ابن الفوطي ، ابو الفضل عبد الرازق . **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب** تحقيق مصطفى جواد. دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

١٣ : ———— **الحوادث الجامعة والتجارب النافعة** تحقيق مصطفى جواد . بغداد ، المكتبة العربية ، ١٩٣٢ م .

١٤ : ابن كثير ، عماد الدين أبو الفداء اسماعيل . **البداية والنهاية** ... القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٥١ هـ .

١٥ : ابن مسكويه ، أبو علي احمد بن محمد . **تجارب الامم وتعاقب الهمم** . القاهرة ، شركة التمدن الصناعية ، ١٩٤٥ م .

١٦ : ابن النديم ، أبو الفرج محمد بن اسحق . **كتاب الفهرست** . القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٣٤٨ هـ .

١٧ : أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني . **كتاب المصاحف** تحقيق ارثر جفري . القاهرة ، المطبعة الرحمانية ، ١٩٣٦ م .

١٨ : أبو بكر المعافري ، محمد بن عبد الله بن عربي . **أحكام القرآن** . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١ هـ .

١٩ : ابو شامة ، عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي . **كتاب الروضتين في أخبار الدولتين** . القاهرة ، مطبعة وادي النيل ، ١٢٨٧ هـ .

٢٠ : ابو العلاء المعري . **تعريف القدماء بأبي العلاء** : نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩١٤ م . القاهرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ م .

٢١ : ———— رسالة **الغفران** تحقيق بنت الشاطىء . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٠ م .
٢٢ : ———— **شروح سقط الزند** . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٤٥ م .
٢٣ : أبو الفداء ، عماد الدين اسماعيل . **المختصر في أخبار البشر**. القاهرة ، المطبعة الحسينية المصرية ، ١٣٢٥ هـ . ج ٤
٢٤ : ارنولد ، سير توماس (محرر) . **تراث الاسلام** . اكسفورد ، مطبعة كليرن ، ١٩٣١ م .
٢٥ : امير علي ، سيد . **مختصر تاريخ المسلمين** . لندن ، ماكميلان ، ١٩٢١ م .
٢٦ : امين ، احمد . **ضحى الاسلام** . الطبعة الثالثة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٢ م . ج ٣ .
٢٧ : ———— . **ظهر الاسلام** . القاهرة ، مطبعة خلف ، ١٩٥٨ م . ج ٤ .
٢٨ : بتلر ، الفرد **فتح العرب لمصر** تعريب محمد فريد ابو حديد . الطبعة الثانية . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٦ م .
٢٩ : البرقوقي ، محمد عاطف والتوانسي ؛ ابو الفتوح محمد . **الخوارزمي العالم الفلكي الرياضي**. القاهرة، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٤ م .
٣٠ : البستاني ، بطرس . **كتاب دائرة المعارف** . بيروت ، ١٨٧٦ — ١٩٠٠ م ج ١١ .
٣١ : بينتو ، اولغا . « المكتبات العربية في العصر العباسي » في : **الثقافة الاسلامية** ، المجلد الثالث (١٩٢٩ م) .
٣٢ : تومبسون ، ج . و . **المكتبة في العصور الوسيطة** . نيويورك ، شركة هافنر للنشر ، ١٩٥٧ م .
٣٣ : الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر . **البيان والتبيين** تحقيق حسن السندوبي . الطبعة الرابعة . القاهرة، مطبعة الاستقامة، ١٩٥٦م. ج ٣

٣٤ : الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر . **كتاب الحيوان** تحقيق فوزي عطوي . دمشق ، مكتبة النوري ، ١٩٦٨ م .

٣٥ : ———— **المحاسن والاضداد** . القاهرة ، ١٩٣٢ م .

٣٦ : جرونيباوم ، جوستاف . **حضارة الاسلام** تعريب عبد العزيز جاويد . القاهرة ، ١٩٦٠ م .

٣٧ : حاجي خليفة ، مصطفى بن عبد الله. **كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون** تحقيق محمد شرف الدين يا لتقايا ورفعت بيلكه الكليسي . استانبول ، وكالة المعارف ، ١٩٤١ — ١٩٤٣ م . ج ٢ .

٣٨ : حتي فيليب . **تاريخ العرب من أقدم العصور حتى الآن** . الطبعة السادسة . لندن ، ماكميلان ، ١٩٥٦ م .

٣٩ : الحريري **المقامات** . بيروت ، دار بيروت ، ١٩٥٨ م .

٤٠ : الحميدي ، حاتم بن ابراهيم . **المجالس المؤيدية** .

٤١ : خدانجش ، صلاح الدين . **مجلة القرن التاسع عشر** (الجزء الثاني والخمسون) ، ١٩٠٢ م .

٤٢ : دوزى ، رينهارت . **تاريخ المسلمين في اسبانيا** . لندن، ساتو دونيدوس ١٩١٣ م .

٤٣ : ديورانت ، ول . **قصة الحضارة** تعريب احمد بدران . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ —

٤٤ : دي بور ، ت . ج . **تاريخ الفلسفة في الاسلام** تعريب عبد الهادي أبو ريدة . الطبعة الثانية . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٧ م .

٤٥ : الرفاعي ، احمد فريد . **عصر المأمون** . الطبعة الثانية . القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٨ م .

٤٦ : زيدان ، جرجي . **تاريخ التمدن الاسلامي** . الطبعة الرابعة . القاهرة، مطبعة الهلال ، ١٩٢٢ م . ج ٥ .

٤٧ : شلبي ، احمد . **تاريخ التربية الاسلامية** . بيروت ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٥٤ م .
٤٨ : شوشتري ، أ . م . أ . **مختصر الثقافة الاسلامية**. بانغالور ، مطبعة بانغالور ، ١٩٣٨ م .
٤٩ : صاعد الاندلسي **كتاب طبقات الامم** .
٥٠ : العقاد ، عباس محمود . **التفكير فريضة اسلامية** . القاهرة ، دار القلم .
٥١ : عنان ، محمد عبد الله . **الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية** . الطبعة الثانية . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٩ م .
٥٢ : فنسك (محرر) . **دائرة المعارف الاسلامية** . ليدن ، بريل ، ١٩٠٩ — ١٩٣٨ م .
٥٣ : القفطي ، جمال الدين علي بن يوسف . **تأريخ الحكماء** . . تحقيق جوليوس ليبرت . ليبسك ، ١٩٠٣ م .
٥٤ : القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي . **كتاب صبح الاعشى في صناعة الانشا** . القاهرة ، دار الكتب المصرية، ١٩١٤ — ١٩١٩ م . ج ١٤ .
٥٥ : قينتو الاربلي ، عبد الرحمن بن سنبط . **خلاصة الذهب المسبوك مختصر سير الملوك** . بغداد ، مكتبة المثنى .
٥٦ : الكتبي ، محمد بن شاكر بن احمد . **فوات الوفيات**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . القاهرة، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م .ج ٢
٥٧ : كرد علي ، محمد . **الاسلام والحضارة العربية** . الطبعة الثانية مزيدة منقحة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٥٠ م . ج ٢ .
٥٨ : ــــــــــ . **امراء البيان** . الطبعة الثالثة . بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ م .
٥٩ : ــــــــــ . **خطط الشام** . دمشق ، مطبعة الترقي ، ١٩٢٦ م . ج ٦ .

٦٠ : ــــــــــــــــ . **رسائل البلغاء** .

٦١ : لسان الدين بن الخطيب . **أعمال الاعلام في من بويع قبيل الاحتلام من ملوك الاسلام** تحقيق ليفي بروفنسال . بيروت ، دار المكشوف ، ١٩٥٦ م .

٦٢ : لوبون ، غوستاف . **حضارة العرب** تعريب عادل زعيتر . ط٣ . القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٥٦ م .

٦٣ : لويد ، سيتون . **الرافدان** .

٦٤ : ماكينسن ، ر . س . « أربع مكتبات كبرى في بغداد في العصور الوسطى » في : **المكتبة العضلية** المجلد الثاني (تموز ١٩٣٢ م) .

٦٥ : ــــــــــــــــ . « خلفية تاريخ المكتبات الاسلامية » في : **المجلة الامريكية للغات السامية وآدابها** ، المجلد الثاني والخمسون (تشرين أول ١٩٣٥ ــ تموز ١٩٣٦) .

٦٦ : ــــــــــــــــ « الكتب والمكتبات العربية في العهد الاموي » في : **المجلة الامريكية للغات السامية وادابها** ، المجلد الثاني والخمسون (تشرين أول ١٩٣٥ ــ تموز ١٩٣٦) .

٦٧ : المرتضى الزبيدي . **تاج العروس من جواهر القاموس** . بنغازي ، دار ليبيا للنشر والتوزيع ، ١٩٦٦ م .

٦٨ : معروف ، ناجي . **تاريخ علماء المستنصرية** . بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٥٩ م .

٦٩ : المقدسي ، شمس الدين أبو عبد الله محمد . **أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم** تحقيق مارجوليوث . ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ م .

٧٠ : المقري ، احمد بن محمد التلمساني . **نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب** ... تحقيق احسان عباس . بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٨ م . ج ٧ .

٧١ : المقريزي ، تقي الدين احمد بن علي. **اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين**

الحلفا تحقيق جمال الدين الشيال . القاهرة ، لجنة احياء التراث الاسلامي . ١٩٦٧ م .

٧٢ : ———— **الخطط المقريزية** . الشياح ، لبنان ، مكـ احياء العلوم . ج ٣ .

٧٣ : « مكتبات » في : **دائرة المعارف البريطانية** . الطبعة الثانية عشرة شيكاغو ، وليم بنتون ، ١٩٦٣ م .

٧٤ : ميتز ، آدم . **الحضارة الاسلامية في القرن الرابع هجري** تعريب عبا الهادي أبو ريدة . طبعة ثانية . مزيدة منقحة . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٨ م . ج ٢ .

٧٥ : نصار ، حسين . **المعجم العربي** ... القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٦ م . ج ٢ .

٧٦ : النعيمي ، عبد القادر . **الدارس في تاريخ المدارس** تحقيق جعفر الحسني . دمشق . مطبعة الترقي ، ١٩٥٣ م .

٧٧ : هل ، ى . **الحضارة العربية** تعريب ابراهيم احمد العدوي . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٦ م .

٧٨ : ياقوت الحموي ، ابو عبد الله شهاب الدين بن عبد الله الرومي . **معجم الادباء** تحقيق احمد فريد الرفاعي . القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٣٦ م . ج ٢٠ .

٧٩ : ———— **معجم البلدان** . القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٠٦ م .

٨٠ : اليعقوبي ، احمد بن أبي يعقوب بن واضح . **كتاب البلدان** تحقيق دي غويه . ليدن ، بريل ، ١٨٩٢ م .

كشاف هجائي عام

ـ أ ـ

وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) (1) » وقد أخرج الترمذي وصححه عن ابن عباس

المحتويات